

جراح لا تندمل^{١٨}

د. أبو القاسم أحمد رشوان

اسم الكتاب: جراحٌ لا تَنَدِمُ

المؤلف: د. أبو القاسم أحمد رشوان

الناشر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: محمد فاروق

التجهيزات الفنية: حسام أنيس



25 شارع شريف- القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

02/23920369 - 01001889363

رقم الإيداع : 2014/1896

الترقيم الدولي: 2- 978-977-5016-65

الرواية إبداع، والإبداع يمثل وجهة نظر مبدعه

جراح لا تندمل^{٢٨}

رواية

د. أبو القاسم أحمد رشوان



الطبعة الأولى 2014

الإهداء

إلى بلاد المال التي بها نشأت، التي لا يعرف أحد من أهلها لم سميت بهذا الاسم، وأكثر ما يطلق المال -عند العرب- على الإبل، فهل كانت يومًا ما مرتعًا لها؟ أو سوقًا لبيعها وشرائها؟ أغلب الظن أن شيئًا من ذلك حدث، وأنَّ لهذه التسمية علاقة ما بالمال بمفهومه العربي الإبل والغنم والماعز، ويقوِّي هذا الظن اسمها الآخر (الكُعيّيات)، وهو جمع (كُعيمة) تصغير (كُعامة)، وهو ما يجعل على فم الحيوان لثلا يعض أو يأكل، يُصنع من حبال ونحوها، فهل اشتهرت هذه المنطقة التي قسّمت الآن قسمين كبيرين (بلاد المال بحري، وبلاد المال قبلي، ويضم كلُّ منهما عددًا من القرى) بصناعة الكعامات أو الإتجار فيها؟ أم إنها كانت مرتعًا لهذه الأنعام أو سوقًا لها، ولمن كانت الأنعام؟ ومتى؟ ولو سألت أي رجل من سكان هذه البلاد لأقسّم أنَّ جده الأكبر كان ملكًا على هذه الديار، وأنَّ الأرض أرضه والمال ماله.

إلى هذه القرية النائية القابعة في حضن الجبل، بين الحاجر والقُرنة، وخور عبد الرشيد وساقية الفسكاني، حيثُ الدروب الضيقة والقباب المشققة والطناير الممزقة والخرائب المخربة. لقد أعطاك الموقع مذاقًا

خاصًا، حيث جُللت الأقدام بطين الريف، وزُكِّمت الأنوف برمال الصحراء، لقد أعطاك الريف طعمًا مصريًا، كما منحتك الصحراء لونًا بدويًا، فكانت ثقافتك (عادتك وتقاليديك وأعرافك) خليطًا من المزاج المصري المرح والبدوي الكيلج.

في أغوارها وخرائبها وأطلالها، وفي أحضان خيلها وبغالها ونوقها وجمالها، وحميرها وجحوشها، وخرفانها وجديانها، وجاموسها وأبقارها، وحماتها وفروجهما، وقمريةا وزرازيرها، وبومها وغربانها وضافدعها و(جُعمصها) وثعابينها وعقاربها، وبوصها وحطبها، وفي ساحاتها وكيانها، وأمام كوانينها، وفوق أفرانها لعب الصبي مع اللاعبين، وتسلق الأشجار، وقذف النخيل، ورجم البيوت، وسبح في الترع، وعام في البرك، وجاب الصحراء، وقطع الفلوات دون غاية أو هدف إلا جنون الصبا.

ومهما يكن من أمر النشأة الأولى، فإنَّ الصبي ظلَّ أسيرًا لحياة أقرب ما تكون إلى حياة الجاهليين في بلاد العرب بعاداتها وتقاليدها وأعرافها وقبائلها، الأمر الذي سهَّلَ عليه استحضار هذه الحياة بكل ما فيها، فلم يجد عناءً في فهم أشعارهم.

إليك أهدي هذا العمل

ولذلك: أبو القاسم

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	
جدود الجدود	
1- العباسي الكبير .	9
2- سيدي المفتري .	11
3- البرعي برعي .	19
4- مهران العباسي .	25
5- أبو هدير .	27
6- أولاد الإيه .	33
7- مهران العباسي .	40
8- حليلة النجارية .	54
9- عبيد العبيد .	57
10- دماء لا تجف .	63
	76
الفصل الثاني	
مهران وبنوه	
1- وهل غير الفؤاد لها قبر ؟	83
2- الفارس المثلث :	85
3- الكيلانية وبنوها (1) .	95
4- سور الرئيس العظيم .	102
5- هنية الكيلانية (2) .	108
6- حللت ضفائري .	115
7- خمس ولدي .	121
8- محمد مهران .	123
9- الخالق الناطق .	129
10- تحت قدميها .	133
	136

- 143 - 11 حسان البرغوثي .
 146 - 12 آخِتامكم .
 150 - 13 النّجّمي .
 154 - 14 تليفون العمدة .
 156 - 15 عبد الجبار الجّبار .
 163 - 16 مَوْتُ هِرْقُل .

الفصل الثالث

سوق الأحد :

- 171 - 1 أبو الطّواقي .
 173 - 2 علاّم الزّفر .
 182 - 3 ديل الكلب .
 187 - 4 مَلاليم فرحانة .
 195 - 5 لَبَسْنَا طَرَحًا .
 196 - 6 إِنْ كُنْتَ رَجُلًا !!
 203 - 7 وراودته التي
 210

الفصل الرابع

كلنا برعى

- 225 - 1 ولدي ... ولدي .
 227 - 2 نصيب أمي .
 235 - 3 في غيابة الجُبِّ .
 244 - 4 الصّفعة .
 251 - 5 الخازوق بالخازوق
 258 - 6 قامت القيامة .
 274 - 7 زمن الهواشم .
 295 - 8 العمدة الكبير .
 306 - 9 على حسب أوّداد قلبي .
 318 - 10 عود ثقاب .
 323 - 11 خضرة الشريفة .
 327

الفصل الأول

جدود الجدود

- (1) العباسي الكبير .
- (2) سيدي المفتري .
- (3) البرّعي برعي .
- (4) مهران العباسي .
- (5) أبو هدير .
- (6) أولاد الإليه .
- (7) مهران العباسي .
- (8) حليلة النجارية .
- (9) عبيد العبيد .
- (10) دماء لا تجف .

العباسي الكبير

[1]

بعد سنّ السبعين حافظ العباسي الكبير على الصلوات في المسجد

همس في أذن الإمام :

فاتتني صلوات كثيرة احسب كم سنة؟ ، وكم صلاة في السنوات الماضية ،

وسأدفع بدّهم غلّة أو فلوسًا .

- الصلوات لا بد أن تُقضى .

- كيف ؟

- مع كل صلاة تُصليّ صلاة قضاء .

- صلاة واحدة لا تكفي . الصّراف حسبها وقال :

- الخمسون سنة (يقطعوهم بتسعين ألف صلاة) غير السنن والتّوافل .

- صلي يا كبير الناس على قدر ما تستطيع .

- لا أعرف الصلاة وحدي . بعد كل صلاة ، وبعد أن يخرج الناس تُصليّ

بي وحدي حتي يأتي وقت الصلاة التي بعدها .. الإفطار والغداء والعشا في

الجامع .. سأصلي وأنا جالس ، وأنت واقف ، نبدأ من يوم السبت .

- تتم الإمام .

« عنك ما ركعتها أنت ولا أهلك : جد جدك ، عمره ما ركعها ، اشْ مُعني

أنت »

- ماذا تقول يا علي ؟

- على بركة الله .

- سأصلي بك من غير وضوء يا ابن الكلب .

- بعد عشرين ركعة سمع الإمام شخير العباسي . توقف .. بعد

ساعتين تلمل العباسي .. صاح الإمام :

- ربنا ولك الحمد.

توكأ على عصاه .. تحسّس مركوبه ... أسرع الغلام :

- مركوبك يا جدي :

- خبطه خبطتين نفّضه . جلس . لبس فردة .. تحسّس الأخرى . حشر رجله

فيها ببطيء . شديد . نهض ... أسند يدًا إلى الحائط .. أمسك الغلام أطراف
يُمناه . سحبه .

- السّلام يا جدي .

على يمين الباب الكبير . أسند العباسي ظهره .. مدد رجله سحبه الغلام

مركوب جده .

- مركوبك كبير قوى يا جدي .

مركوب هواره يا ولدي .

لفيف من الأحفاد حول الجد ، منهم من يمشى على بطنه .. ومن يمشى على

أربع .. ومن يتوكأ على الجدران ... ومن يتنطط كالأرانب ... يعبثون بمركوب

الجد ، يملثونه ترابا .. الولد سيد غطّس فردة في السبيل .. قاسم طرطر في

الثانية .

- الله يجازيكم يا شياطين .

- طالعين لجدهم الكبير يا جدي

- لا يا جدي جدنا الكبير قوي .. قوى .

- لا .. إبليس الأول .. هكذا يقول عيال الشرقاوية .

- وماذا يقولون ؟

- هواره متكبرين زي جدّهم إبليس ، كان رجلا جعيصا ربنا قال له :

- اسجد لأدم .

- رفض وقال : عليّ الطلاق ما أنا موطني لأحد . أوطي جُلوس طين .
- ربنا قال له : ستدخل النار أنت وعيالك
- قال : النار ولا العار . هكذا قال الجد :
- أنت يا أحمد يا ولدي أكبر عيال العباسيين وكل المشاكل منك .
- الولد الشرقاوي قال :
- هم الهوارة ، وغيرهم زبط . وابن الخلايلة قال :
- نحن والشرقاوية أشراف وغيرنا عَجَر .
- قلت له العباسيون أسيا دكم .
- قال : أنتم جدكم نصراي .
- ضربته وشرّكت جلاّ بيته . كل عيلة جاية من بلد . هي البلد لا أصحاب لها .
- قال الجد :
- مصر يا ولدي فرعونية قديمة جدّا .. شعب واحد ، أصل واحد، دين واحد قبل أن يهجم البدو من الشرق ، والبربر من الغرب . الفراعنة أقدم ناس يا
- لدي
- أقدم ناس !!
- الشيخ يقول :
- كلهم في النار .
- لا يا ولدي فيهم كُهان ورهبان وقسيسون ، وأولياء وأنبياء . في
- العَرابة كله مكتوب .
- ابن الشرقاوي يقول :
- إنهم أشراف أولاد سيدنا أبو جهل رضى الله عنه .
- الله يجازيك يا ولدي

- الفراعنة عرب يا جدي ؟
- أقدم ناس . هم الذين عمّروا الأرض بعد نوح . أتعرف نوحا ؟
- هو الذي غرق الناس في البحر .
- الكفار بس
- الخطيب قال لنا سوره . هو راح فين بعد الغرق ؟
- زهقتني يا ولدي .
- حكاياتك غريبة يا جدي ، الشيخ في الكتاب النهار كله يلعن سنسfil فرعون والي جابوه ويقول : رينا لعنهم في القرآن هم وناسهم مائة مرة ، كلهم في النار ، وأنت تقول : فيهم أنبياء ، هي الأنبياء تحش النار يا جدي ؟ حرام عليك وإلا أنبياؤنا غير أنبيائهم ؟ !!
- صدقني يا ولدي النبي إدريس المصري جاء بعد نوح ، علّم الناس الزراعة والتجارة : الفأس والمحراث ، والنورج والشادوف . وكم ان الكتابة والقراءة .
- مات والا عايش ؟
- مات واندفن .
- فين قبره يا جدي ؟
- في العرابة .
- هو صعيدي يا جدي .
- صعيدي ابن صعيدي .
- حرام عليك يا جدي نبي صعيدي ؟ وكم ان علم الناس الكتابة ، هو فيه حد يكتب في الصعيد ؟ ضاقت الدنيا فلم يجدوا إلا صعيديا يعملونه نبيًا .

- همّ الصعايدة « شوية » علموا الناس كلها .. طفحت رمال الصحراء
على الأرض الحرة فأفسدتها ، فلم تعد حرة . جدك فرعون الكبير رفض أن يكون
نبيا وقال : أنا ربكم الأعلى .

- كان رجلا جدعا يا جدي .

- الله يرحمه .

- نقرأ له الفاتحة يا جدي .

الشيخ يقول :

فرعون كان كافراً ، لم يكن يحفظ القرآن ، كل من يسمع اسمه يلعنه ، ويسب
له الدين .. هوّ عمل إيه يا جدي .

- حارب اليهود .

- ومن يحارب اليهود يدخل النار ؟

- الناظر قال لنا في المدرسة الناس في المدينة حاربوا اليهود ، وطردوهم

من بيوتهم ، وقتلوا رجالهم ، وأخذوا نسوانهم ، وعيالهم . وسيدخلون الجنة »
اشمعنه جدنا فرعون نجش النار ، وكمان الشيخ قال : إن فرعون قتل الحسين
« الكلام دا صحيح يا جدي ؟

- الله أعلم .

- همّ الفراعة بدّنة كبيرة يا جدي ؟

- مصر كلها .

- والعمدة منهم ؟

- حكموا الدنيا كلّها آلاف السنين

- كلهم في النار يا جدي ؟

- هوّ واحد يا ولدي اختلف مع اليهود

- الشيخ قال : فرعون هو الذي ربّى موسى وحفظه القرآن ودخله الأزهر .
- الله يجازيك . هو كان فيه أزهر .
- الأزهر بتاعهم .
- وهو فرعون اسمه ايه ، ومن أبوه ؟
- والله ما حد عارف اسمه يا ولدي
- سب ولعن وشتّم في واحد لا يعرفون اسمه ! هذا الرجل له الجنة يا جدي .



- كل يوم عيطة يا جدي .
- نحن عرب . نحن أشراف . نحن أتراك ، نحن أولاد كذا ، وكذا
- قلت لهم كلكم أولاد مُبتين كلب . وهرُبت .
- الكلاب عمرها ما تخون ولا تغدر يا ولدي ..شويه أعراب، وبربر ، رعاة غنم فسقه ، يهاجمون الأطراف ، ينهبون ، ويفرون .
- أولاد الكلب الحرامية .
- فلما غزا أهلهم مصر استولوا عليها .
- بالعافية يا جدي؟
- حكم القوي يا ولدي !!
- وأين كتتم يا جدي ؟

- أعطاهم قريبهم أرضنا وبيوتنا ،ونسوانا .الطين الذي يُبَرَّطعون فيه ليس ملكا لهم .عمر ك يا ولدي شفت غريب جاي وشايل على رأسه جالوس طين !!
- والله يا جدي لو شفت واحد من أولاد الكلب يشتم جدي فرعون، لضربته بالمركوب .
- مجنون وتعملها يا ولدى مهران .
- فرعون راجل جدع يا جدي ،دافع عن بلده ودينه ، « حد يقول لي أطلع من دينك وأنا أسكت له»
- وكان أخذ بتار ابن عمه الذي ضربه ،اليهودي في بطنه . الود ابن شاهين قال.
- أخذه علي خيانة وضربه بالشلوت في محاشمه . وكان ناوي يموت واحد ثاني .
- هو فرعون راح فين يا جدي؟
- غرق في البحر
- الشيخ يقول من مات غريقا مات شهيداً .
- إلا المصريين ياو ولدي ، يأخذون أرضنا وديارنا وينطون على بيوتنا وحریمنا . ويقتلون رجالنا .القاتل يدخل الجنة والمقتول يدخل النار...!!

[2]

- كل الناس سُمر ، وسود إلا خوالي .
- أحسن ناس . بياض وحمار باين عليهم أتراك . من بلاد الروم
- جدهم ديك رومي ؟
- الله يجازيك .
- لا تنس يا جدي تاخدي للمساخيط .
- غداً سأخذك فرح أولاد الشرقاوي
- كل ما يحصل فرح تقول سأحكي لك عن فرح أبوك . ولم تحك .

[3]

- فرح لا قبله ولا بعده كل البلاد حضرت .
- وأنت كنت موجوداً يا جدي ؟
- أنا صاحب الفرح .
- وقف رفع ثوبه «رجع قليلا استعد للهروب .
- الشرقاوية طهروا كل أولادهم في الفرح .
- ونحن يوم فرح أبوك طهرنا كل أولاد العباسيين !
- وأنت يا جدي ! طهروك .
- فرّ هاربا
- كاد يغشى على الشيخ من الضحك .
- يا ابن الكالب ..

2- سيدي المفتري

[1]

- أين كنت يا شيطان ؟ بحثت عنك في كل مكان . بيوت واسعة منادر
دواوين مساطب « طنابير قباب ، لا شبايك ولا بيسان . كلاب قطط فئران ،
بُوم ، وطاويط ، زرازير » زنّان ، لُكك عسل . عيال تجرى ، تلعب ، تفظ ، جامع
كبير خربان . عواميد طويلة ، مساخيط ...

- بيوت من يا جدي ؟

- بيوت سيدنا المفتري .

- عليه الصلاة والسلام .

- أضحكنتني الله يجازيك .

أنت تقول يا جدي

- سيدنا

يبقى لازم نقول عليه الصلاة والسلام .

- المفتري جد الجماعة البحرين . بيوت عز . حُكم . سلطان . سجن
، ضرب ، نهب . أكبر قرية في الزمام عصت غفيره . آتاهها أمره
ليلا .. حصدها .. حرثها هدمها . دمدمها . سواها .. زرعها بطيخا . هكذا كان
يفعل بمن يخالف أمره .

- وأين أصحاب هذه البيوت ؟

- الكلام كثير يا ولدي .

- بلعتهم الأرض .

- افتقروا وباعدوا الأرض . هربوا .

يقول بقاياهم :

- سيعودون يوما ليؤدبوا كل الناس .

- ونحن من جدنا القديم قوي؟
- شعبان . رمضان . حسان كله زي بعضه
- قال الغلام مازحا :
- مهران .
- روح نام يا ولدي

- كلما ازداد الفقر ، وطفى الظلم ، ازداد النباش في القبور كل الشعوب المغلوبة
تلوذ بالحسين حتي المسيحيين:
- اسمه حُنيْن .
 - حُرْف .
 - نحن أولاد الحسين لنا الجنة حريم بيضه ملظظة لا مصاريف ، ولا عيال ، ولا غم .
 - بطيخ ، قصب بلح فقوس ملوحة .
 - لحمه .
 - متبقاش طَّمَاع
 - تركنا لهم الدنيا يشبعوا بها أولاد أبو علي .
- طمع سلطان في بنت شرقاوية طلبها من أبوها رفض
همس : كل نسوانكم حريمه من غير زواج يا أولاد ...
- كان سيدي المفتري .. حتي بعد ما مات نقول سيدي ، تعود الناس على
ذلك الجماعة إياهم لما استولوا على البلاد . أمروا كل المغلوبين أن يقولوا سيدي
لكل أعرابي ، أو بربري ، هم السادة ونحن الموالي ، يعنى العبيد ، لا تسمع كلمة
سيدي إلا خارج الجزيرة ، لم يأخذوا جزية أو خراجا ، ولا نساء من العرب

الذين لم يدخلوا الدين الجديد . وفعلوا كل ذلك في غيرهم . كان سلطان
يضاجع النساء في الشارع ، في السوق في الجامع : أمام زوجها ، أخيها ، أبيها .

- من هذه المرأة ؟

- أمي .

ومن هذه ؟

زوجتي .

- أمسك لي رأسها . تركت لك أملك ، أشبعها ، وبالوالدين إحسانا .

- في كل زمن مفترى . في كل بيت مفترى

كان أبو على يفتخر بأنه المفترى الوحيد . والإمام يدعو له :

- اللهم انصر سيدي المفترى ورجاله .

والناس جميعا يرددون

- آمين - آمين .

- وأنت يا جدي ؟

- آمين .

- أنت عجوز قوى يا جدي

- أنا أكبر واحد في البلد .

- أكبر من النخلة ؟

- أكبر من النخلة

- والناس الكبار راحوا فين يا جدي ؟

- ماتوا .

- وأنت لماذا لم تمت ؟

- الأعمار بيد الله .

- لما تموت يا جدي خذني معك ألْبَسْكَ المركوب .

- بُعد الشر عنك يا ولدي .
- من يخدمك ؟
- جدتك في الجنة .
- وأنت يا جدي هتدخل الجنة ، ولا النار ؟
- الله أعلم يا ولدي .
- من في الجنة يا جدي ؟
- الناس الطيبون .
- دخلوا بفلوس والا ببلاش ؟
- بفلوس .. أكلوا الناس ، وكسوهم وساعدوهم ، وأعطوهم فلوسا .
- أنت يا جدي لا تدخل الجنة .
- لماذا ؟
- ليس معك فلوس ، ولا أكل ولا شرب ، ولا ملابس ، بيعثون لك رغيفاً واحداً وشوية حامض ، أو صحن طبيخ وبتاوتين . ومعك جلاية واحدة . ومركوب قديم « عمري ما شفت معاك فلوس » .
- دمعت عينا العجوز ، ولم ينبس .
- ومن يدخل النار يا جدي ؟
- الظالم .
- والحرامي يا ولدي .
- العيال يقولون : جدك العباسي كان أكبر حرامي . صحيح يا جدي ؟
- لم ينطق العباسي .
- والظالم المفترى الذي أكل زرع الناس
- يدخل النار .
- كل الناس يقولون !

- مرعي ظالم ومفترى .
- ربك غفور رحيم
- أنت تقول غفور رحيم
- وجدي برعى يقول:
- المنتقم الجبار . هو فيه كم رب يا جدي ؟
- رب واحدا ولدي
- رحيم ولا متقدم ؟
- اسأل خالك الشيخ هاشم ..
- أنت وأولادك في النار يا جدي وسايين جدتي وحدها في الجنة خدوها معكم يا جدي .

- عيالك من يا جدي ؟
- جدك مرعي ، وجدك برعي
- برعي وعياله خدامين عايشين بلقمتهم
- لهم النصف في كل شيء
- جدي مرعي قال:
- إنهم شغالون
- كلّمه يا جدي
- لا أحد يسمع كلامي
- لماذا لا يسمعون كلامك . وأنت أكبر واحد ؟

- أنا في عشرة القرد يا ولدي قاعد تحت ساس الحيط أبخلق في الداخل والخارج .ولا أحد يحس بي .
- يعني أنا أقلك يا جد ولا يا قرد
- متفرقش يا ولدي
- سالت دموع العجوز .

3 - البرعي - برعي

- هو جدي مرعي قريبك يا أبوي ؟
- أنت قلت جدي .
- كل العيال تقول جدي
- هو جدك حقيقي . عمي : أخو والدي
- أخوه .
- أخوه لزَم
- شقيقه .. أنا محمد برعي العباسي ، وهو مرعي العباسي
- أمال : الأراضي ، والزراعة والجنائين ، والبهايم : ونحن .. ؟
- كل ما تراه لنا نصفه .
- كيف ؟
- كان جدك بُرعي رجلا طيبا ، سلّم كل شيء لأخيه الكبير . يبيع ، ويشترى . جدك في الغيط ليل .. نهار . يصلي العشاء . ينام في الغيط .. كنا نعيش في بيت واحد . نأكل ونشرب من طعام واحد ، علي طبلية واحدة ؛ الرجال . النساء . الأطفال .. من كثرة التعب والشقاء مات جدك في الغيط .. لم يتغير شيء . أنا وعمك سدينا مسده ، كثر الزرع .. اتسعت الأرض كل المحاصيل . كل الفلوس تصب في حجر جدك مرعي .. كُثر عياله . كبروا : تغير كل شيء قلت المئونة نقص المصروف طالبت بحقي :
- يا عمي لم تصل المئونة ولا التسويقة .
- أجر تكم وصلتكم .
- لسنا أجراء يا عمي نحن شركاء .
- شركاء من ؟
- لنا نصف كل شيء

- لم يكن أبوك يملك شيئاً .
- سأخذ حقّي بالحكومة .
- اخبط رأسك في الحيط .
- ترك جدك لأخيه الكبير كل شيء . كل ما اشتريناه . كل ما ورثناه .
- زور الختم . باع لنفسه .. اشترى .. سجل .. لم يترك لنا إلا هذا البيت الصغير .
- سمعت حكاية القبيل والهبل .
- لا تسكت على حقك ، حتى لو كان أخوك .
- هبل كان رجلاً طيباً ، مثل جدك .
- لم يكن اسمه كذلك . لما انضحك عليه سماه الناس هابل . سمعت
- واحداً في السوق يقول لآخر :
- هو أنت فاكربي برعي .
- كل ما واحد يضحك على واحد يقول له :
- أنت فاكربي برعي .
- أنا برعي . وأنت برعي . وجدي كان برعي وأمي برعي . كلنا برايع
- إلى يوم الدين
- كان جدك رجلاً طيباً من الصلاة للغيط .
- ياليت لم يركعها .. كل الطيبين تأكل عشاها القطط
- له الجنة .
- دخل الجنة وتركنا في النار .. ليت لم يدخلها .. دخلها على حسابنا .
- اقرأ الفاتحة لجدك .
- هو ناقص فواتح لن اقرأ شيئاً إلا بعد أن آخذ حقّي .
- لن تستطيع .
- لن أسكت .

[1]

في العشرين من عمره .. شديد الوسامة .. متين البنيان . أعطاه شبابه ،
وثرأؤه وجاهة .. على وجاهة .. في جرأة وإقدام ومهابة .
لم يتهيب كثرة: لم يتخوف عن قلة .. مضى يشق طريقه وسط غيطان البشر -
شقا .

لم يجرؤ أحد .. لم يفكر أحد . منذا الذي يطلب يد الأميرة : صفية أبو
هدير .. جاه .. ثراء . كريمة عين الأعيان .. شيخ البلدان .. رب النفوذ .
صاحب السلطان .

كل يحلم .. يتخيل .. ولكن منذا الذي يصاهر .. لم يستطع ختاس أن
يوسوس .. لم يستطع قلب أن ينبض . لم يستطع خيال أن يتخيل: لكنّ مهران
العباسي فحل لا يُجَدِّع أنفه .

[2]

أذن مؤذن ... تنادى الناس .. سالت أودية .. تدفقت أمواج البشر - ..
رجال .. ركبان .. زمّرت مزامير .. طبلت طبابيل .. دقت دُفوف تقارعت
نباييت .. سهلت خيول نهقت حمير . حنت نُوق ، هاجت جمال ... زغردت
نسوان . ذبحت ذبائح . تحرت إبل . فار التنور .. غلت القدور . أفعمت
أنوف .

رُصّت الصواني .. مدّت الطبايى .. على جوانب كل الطرقات .

تهادى الركب العباسي .. يتقدمه الفتى (مهران) على مهر كُئِيت ، أغرَّ
مُجَل ، عريض الصدر ، واسع الجنب .. مكحول العين . حديد البصر مَرَهْف
السمع .. تنوس خصلات سبائه ، نُوس الحرير . على خد أسبل . عليه سرج
طعم بالذهب والفضة . سَرَّجه أشهر سروجي تحت الربع . عقد جدائله شيخ
العقادين .

أصطفَّت الصَّافِنَاتِ الجيادِ المضَمَّرات ، المدرَّبات .. من بين خيول الهديري
برزت بيضاء تتهادى كالشهاب . يحف بها خدم وحشم .. برق البرق ، بزغ
الضوء . انشَّق القمر . أشرق النور .. ترَّجل الفارس العباسي .. فتح ذراعيه .
تلَقَّف النار والنور .. الذهب والبنور . برَفَّق القوارير حملها ، صكَّت النيرات
الأسماع .. أعشت الأنوار الأبصار .

هو فين الفرح يا جدي؟

هذا هو فرح (أبوك) يا ولدي .

حرام عليك يا جدي . لماذا لم تأخذني معك !!

[3]

غاصت الأقدام في المياه والوَحْل ، شقت المعاول الأرض شقا .

حتي أيام الأعياد نقضيها في الحقول :

- هذه البلدة عَفِيَّة يا ولد أبوي ، لا يعيش فيها إلاّ العفي
- لا ينقصنا شيء : الأرض ، والزرع والبهايم .
- انظر إلي الجرون من حولك .
- لسنا أقل الناس .

- ولسنا أكثرهم ..
- يستغنون باهم . يتعافون برجالهم . فكيف نكون مثلهم ونحن قلة !!
- سنشترى القوة والرجال بالمال .
- كيف ؟
- بعقلك وفأسك تملك الدنيا والآخرة يا ولد أبوي
- ورث أولاد مرعي (مهران وزيدان) نصيب أبيهما ، وما جار عليه الوالد من نصيب أخيه البرعي . لم يقنعا بما آل إليهما ..
- قال مهران :
- عرض عليّ الحاج أحمد شاهين مشاركته في زراعة عشرة فدادين ، . عليه التكاليف ، وعلينا الخدمة .
- قال زيدان :
- نعمل أجراء !!
- شركاء .. النصف خالص مخلص ، دون تكاليف .

- كان مهران العباسي ذكيا جريئا ، طموحا ، ورث عن أبيه طموحه وحبه المال والعيال . تواقا للجاه والسلطان ، ومناطحة ثيران الشهانة ، وتيوس الشراقة . لم تمكنه ظروفه العائلية من فرض نفوذ .
- النفوذ : قوة ، والقوة : مال ، ورجال ، وسأحققهما .
 - كيف ؟
 - الزراعة وحدها لا تكفي .. الناس يزرعون كما نزع ، وأرضهم أكثر من أرضنا ، وإذا لم نجد طريقا آخر فلن نلحق بهم أبداً .
 - كيف ؟

- التجارة في الحبوب والمواشى ، وكل شيء . نغلف العجول ، ولن نبيعها .
- تقدمها نذورًا لأولياء الله الصالحين .
- لا صالحين ، ولا فاسدين .. نبيعها لحما في الأسواق . المكسب مُضاعف .
- جزّارين ؟
- جزارين .. حلاقين .
- نخك غريب يا ولد أبوي .
- عليك الزرع . وعليّ التجارة .

لا يفارق زيدان العباسي أرضه . فيها معاشه ، وإليها معاده .. أكله شربه . نومه . صحوة . حدود أرضه آخر دنياه .. لا يعرف أن خلف الجسور والترع دنيا . هو أصغر من مهران ببضع سنوات . بيد أنه ابن له . لحق به ابن مهران البكر .. أخاً له ، مهران والد الجميع .

- زيدان أحسن مزارع في البلد .
- برعي آخر

لم يعد الحرث ، والبذر ، والسقى ، والرى ، والحصاد ، والجمع ، والضّم ، وسهر الليالي لائقاً بالفتي المتطلّع للجاه والنفوذ . انسحب مهران ، غسل رجليه ، نفّس يديه من الماء والطين ، ترك الزراعة لأخيه ، وابنته .

- نشط الأخ .. اجتهد الابن .. تنوعت المناشط .. كثرت المداخل، صُبت الأموال في حجر مهران صبا ، في كل عام . قراريط ، فدادين .
- همس هامس :سأل سائل عن ثراء وقع :عز اتسع .
- قال شاهين :
- عمّ تساءلون ؟
 - قال العنترى :
 - عن الثراء العظيم الذي اتسع والناس نيام .
 - قال الشاهين :
 - لا خوف منهم .. قلة قليلة مستضعفة يخافون أن تتخطفهم نسور الشهبانة ، تمزقهم كلاب الشراقة . المال بلا رجال خوف وجبن .
 - يقولون :
 - النسور قُلِّمَتْ أظفارُها .. الكلاب كُسِّرَتْ أنيابها .
 - طأطأ الشاهين .. لم يُجِب :
 - قال العنترى ، تداركا للموقف :
 - أبو على انتهى ، أبو هدير في النازل . الشراوية رجال بلا مال . لا هم لهم إلا جَنِّ شيخهم عبد العال ، كلما سمع عن جد كبير ، من الصحابة ، من الكفار ، من اليهود . قال : هذا جدكم .
 - الناس لها جد واحد ، والشيخ عبد العال له مائة جد .
 - أكمل العنترى .
 - الخوف من عيال العباسي
 - لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .

- لا تستهينوا بهم .مهران داهية .أخواله من الشرقاوية يتباهون به .
- مناسب أبو هدير .. مرّبط مع نصف البلد . لا يدّعون ما تدّعون لا يتكبرون .
- لهم جد واحد ، ونحن من كثرة الجدود تهنا . لا نعرف من جدنا ؟
- ابتسم شاهين . لم يجب .
- واصل العنّرى .
- لم يقع منهم ظلم حتى الآن .لم يأكلوا مال أحد .
- قال العوضي :
- نقول حتى الآن . كل الناس يبدؤون أطهارًا أنقياء ، أنقياء .. يعدلون
- لا يظلمون .. ثم ينتهون ظالمين ، فاسدين ، مفسدين .
- قطّب شاهين
- استدرك العوضي .
- إلا سيد الأولين والآخرين ، سيدي الشاهين .
- غمغم العنّري .
- ولا الضّالين



- في خلوته لهج شاهين العجوز . مناجيا نفسه !
- خراب هذا البيت على أيدي هؤلاء الأحفاد . هذه الأيدي الناعمة ،
- أنعم من أيدي النساء . كروش عزّ الشباب . يتباهون بما تتباهى به النساء .
- يُقْبَلون بعيون الطّباء . ويدبرون بأعجاز النساء . المهفهفة والحفحفة ، والسّبسبة ،
- أول خراب البيوت .. رجولة الرجل في عرق جبينه .

5 - أبو هدير

- الولد ابن شاهين يقول :
- جذك أبو هدير الأبيض الجعيص . ليس من أهل البلد . جدهم امرأة اسمها فاطمة الزهراء .
- معقول يا جدى أن جدهم الكبير امرأة!!
- أنت لا تكفّ عن الأسئلة . وأنا لا أستطيع أن أجيبك عن الكلام القديم ، روح لخالك الشيخ هاشم . متعلّم في الأزهر .

- قال الشيخ هاشم !
- الفاطميون يا ولدى ..
- جدى العباسي يقول : يا ولدي .
- وجدى أبو هدير يقول : يا ولدى
- وأنت خالي تقول : يا ولدي .
- ومهران يقول : يا ولدى
- هو أنا لي كم أب ؟
- الجد والد ، والخال والد . لكن أبوك الحقيقي مهران .. وكل كبير تقول له يا أبوي .

- طيب ما أنا أكبر العيال ؟
- لا تغضب . أنا هاخليهم كلهم يقولون لك :
- يا بابا أحمد
- نكمل . الفاطميون يا ولدى
- تاني يا خال !!
- بطلّ لماضة :

- قوم لا يعرف أحد أصلهم . هل هم عرب ؟ هل هم فُرس ؟
- يعني جدّهم فُرس ؟
 - الفُرس أمة من الأمم القديمة ذات الحضارات العريقة.
 - حضارات .. عريقة . والله مانا فاهم يا خال .
- ويقال : إنهم من اليهود.
- يُقال .. يُقال . أرسيلك على بر يا خال .
- لا أحد يعرف .. لا أحد يعرف . الظاهر أن كل أهل البلد لا أحد يعرف أصلهم ، ولا فصلهم .
- نحن مصريون . لا تُصدق من يتمسّحون في النبي ، ويدّعون الشرف .
- حتى الفاطميون الذين أسسوا دولة في المغرب .
- قال الغلام :
- تركوا الناس يصلون المغرب ، وعملوا دولة ، والعصر يا خالي؟
 - المغرب بلد يعني جهة الغرب
 - عند الساقية الغربية.
 - بعيد قوى .
 - في القُرْنة ؟
 - أبعد .
- وزّعوا مالا ، وجمالا وأغناما ، على الأعراب .
- ناس الود أبو عرابي
- والبدو .
- ناس السيد البدوى؟!
 - اصبر شوية يا ولدى
 - موش أنا كبير العيال؟

- وكبير العيال .
- ضحك وقال : عَيْلٌ
- كُونُوا جيشاً كبيراً . غزوا مصر .. استولوا عليها .
- مصر بعيدة يا جدى ، « احنا ما لنا وماها » .
- كل البلاد واحدة البحر الذى نراه من أوله إلى آخره . بلدنا .
- جدى العباسي يحكى لى حكايات وفي الآخر يقول :
- استولوا عليها
- وجدى أبو هدير يقول :
- استولوا عليها .
- وانت يا خال تقول :
- استولوا عليها .
- هي مُلْطِشَة يا خال . عمره ما حد قال لى استولينا على حاجة .

- رَمَر بدأ يتصاعد . طبل بدأ يرنّ . دفّ يُقرع .
- وضع الغلام طرق ثوبه بين أسنانه . فَرَّ هارباً .. ثار غبار .. تطاير حصى .
- سَأَحْضَرُ الدرس بالليل .

قال الشيخ :

- الدرس للكبار

رَدَدَ وإذا رَأَوْا تجارة أو هُؤَوا انفضوا إليها ، وتركوك قائماً؟

يعد صلاة العشاء ، تحلّق الكبار حول الشيخ .

- استعان الغزاة بأعراب المشرق ، وبرابرة المغرب ، لتثبيت ملكهم وبسط نفوذهم، وجمع الإتاوات ، والجزية ، والخراج . أنواع الضرائب التى لا ضابط لها . يرهبون بها أصحاب البلاد، ويرهبون بقية العباد الذين صيروهم عبيدا ، وموالي، وملك يمين .. أحفاد كسرى ، وقيصر-، أبناء إزييس ، وأوزوريس .

جاءوا بنفوس تجول فيها أمانى السلب والنهب ، وإحساس بالدونية والهوان . يهدّون بخيلهم ورجلهم ، وسيوفهم ورماحهم ما شاد بالعلم والإيمان بناء الحضارة ، صنّاع التاريخ .

تدفعهم عقد الحُسة ، وإن علت رماحهم . وخفقت أعلامهم . طغوا في البلاد .. أكثروا فيها الفساد . نهبوا العباد باسم الفتح المبين، فسقوا باسم الدين . وملك اليمين . شلت أيمانهم ، وشمائلهم وقُطعت أيورهم .. شبعوا في حرائرنا فسقا وفجورًا.

تدفقت ذئاب الجبال تحت رايات شعارها «نساؤها عجب» لم يتعففوا عما تعفف عنه كل الكفرة ، والمشركين الذين سبقوهم ، أو جاءوا من بعدهم . ملّك الغزاة عبيدهم ، وثعابينهم المتسللة من جحور الأعراب ، وكهوف البربر .. ملكوهم أرضا ، وديارًا لم يطئوها من قبل .

- هل كنت معهم يا شيخ ؟

- هذا كلام مكتوب في الكتب ، سأقرأ عليكم شيئا منه .

في أول خطبة قال الغازي :

لقد صدقكم وعده ، ونصركم على عدوه وعدوكم ، من بعد أن جاء بكم من البدو . انظروا إلى هذه الجنان الوارفة . هل ترون لها حدودا ؟ هل ترون للنخيل الباسقة آفاقا ؟ جنات عرضها السماوات والأرض . ادخلوها بسلام آمين ، ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، اسكنوها أنتم وأزواجكم ، وأحفادكم ، أنتم أهلها وأصحابها وأحق بها ، هذه الجنان وما فيها من عنب وتين ، وزروع ونخيل . ولحم طير مما أنتم منه محرومون ، ونسوان مما تشتهون ، كلوا مما رزقكم ، ولا تطعموا بائسا ولا فقيرا ، كلوا من طيباتهم . وضاجعوا نساءهم قبل كل صلاة ، وبعد كل صلاة ، وأثناء كل صلاة . واجعلوا لذلك كتابا موقوتا .

أرايتم الجنان التي تتفتئون ظلالها ، وتقطفون ثمارها ، يختلف ألوانها ، متشابه أشكالها . وغير متشابه ، صنوان وغير صنوان ، كلوا من ثمره إذا أثمر أو لم يثمر . كلوا منها حيث شئتم ، هي حلال طيب لكم ، ليس لأحد حق في أموالكم . لا تطعموا بائسا ولا فقيرا ، ولا تكسوا عريانا . إنما أهلك من كان قبلكم إنفاقهم على هؤلاء ، فلما شبعوا عضوا الأيدي التي أطعمتهم من جوع ، وامتنهم من خوف .

أرايتم هذه الأنهار التي تجري من تحتكم ؟ إنها ملك لكم ولأولادكم خالدين فيها إلى يوم الدين ، أرايتم العسل المصفي يسيل من مناحله ، واللبن الخالص يجري من أصابع الخالبات . أنهار من لبن وعسل لذة للشاربين واللاحسين واللاهطين .

أرأيتم أرجل الفلاحات يُرّفسن في مياه النيل كأنهن أقماع الطين ؟ أرأيتم السابحات وقد انتفشيت جلايبهن كالخيام : تراقصت أرداف ، تكسرت أمواج .. بلُعطت أُنذاء ، تمايلت بالجرار ظباء التصق بالظهور والبطون كساء . مياه عُدْب ، وأرض ذهب حدائق غُلْب ، نساء عجب ، هن لمن غلب .
أرأيتم الغلمان التي تشتهون في الترع يتنططون كالضفادع يظهرون ويختفون . كل ذلك جزاءً وفاقا . عطاء حسابا .

عليكم بالحمد ... وشكر المنعم الذي أطعمكم بعد جوع ، وكساكم بعد عُرى ، وجزاكم أحسن الجزاء ، وأنعم عليكم بالمركوب والحذاء .
أسمعتكم عن شيء من ذلك في أجداد أجدادكم الأولين ، أو رأيتم بأعينكم ، أو أعين أهليكم الجربانين . أو خطر على قلوبكم أو قلوب من خلفوكم إلى يوم الدين .

في مصر من النعيم والبساتين والنساوين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أعرابي . ورثوها أحفادكم إلى يوم الدين ، ليسوا عليها بجواليس الطين .

لا تصدقوا أنكم تقاتلون لنشر - دين ، بل تقاتلون من أجل هذه الجنان الفسيحة والنسوان المليحة

تصدقوا على أهل هذه البلاد ، ولو بشق بطيخة .. انهم إخوانكم ومواليكم ، وعبيدكم ، وخدمكم .

انكحوا الأيامي من نسائهم ، والفارض ، والبكر ، والعوان ، من النسوان والغلمان . أتى شئتم .. ومتى شئتم . وكيف شئتم . ولا تعزلوهن أبداً . انكحوا

الصالحات والفاسقات ، المؤمنات والكافرات . ما ملكت أيمانكم ، وما لم تملك ،
فإن نكاحهن شفاء لما في الصدور . وراحة لما في الظهر .

أوصيكم ونفسي بالعفة والطهارة والنجاسة ، فلا طهارة إلا بعد نجاسة ،
بالجنابة ، وكبح شهوات النفس عليكم بالصوم فإنه وقاية ، إنه أحفظ للفرج ،
وأغض للبصر .

اقول قولي هذا . واستغفر الله لي ولكم . وأقم الصلاة
في الصباح قال الغلام :

- كل الكلام في الكتب يا خال ؟
- أي كلام ؟
- ما قلته بالليل يا خال
- من قال لك .
- لبّدت تحت الدّكة ، وسمعت كل شيء .
- أعوذ بالله .

6 - أولاد الإيه

[1]

لم يصدق أن الواقف ببابه الشيخ أبو هدير نفسه ، اعتاد أن يوقظه خفير شعبان أبو علي ، يجره من قفاه .. يُلقِي به أمام الدوار .

- انتظر هنا حتى الصّباح :

لم يعرف لماذا جَرَّجروه !! لم يسأله أحد . قرب الظهر نظر إليه خفير .

- ماذا تريد ؟ غور إلى خرايب أهلك .

وضع طرف ثوبه بين أسنانه . أخذ يعدو ...

- إلى أين يا عمّ شرقاوي ؟

- إلى البيت يا ولدي

- أنت قرب الجبانة بحري البلد . بيتكم قبلي البلد .

- واصلني يا ولدي .

دُهِش .. زاغ بصره .

- الشيخ أبو هدير جالس على الأرض !!

- اجلس يا شيخ عبد العال .

وضع أصابعه في أذنيه . هزّهما .. فرك عينيه . تأكد أنه يسمع ويرى

تمتم :

- حرّم شعبان علينا، حتى على إمام الجامع أن ينعت غيره . هو الشيخ

فقط ، حتى من في القبور ، أولياء وليسوا مشايخ .

قال لزوجته ساعة حَمِي الوطيس :

- اهسي بها في أذني :
- قالت وهي تتأوه .
- ش ..ى . ش .ى . إخ .
- ارفعي صوتك
- الوسادة لها آذان .

- طرق الباب طرقا خفيفا .
- من ؟
- أنا عبد الودود
- عبد الودود من ؟
- تلعثم .. تهته .
- شيخ - أل .. غفر .
- شيخ الغفر اسمه عبد الجبار .
- كان .
- اسم يقلقل الجبال ، يزلزل الرجال ، يخوف العيال .
- يُجَبِّلُ العقول ... يحطم القلوب .. كان الرَّجُلُ اليمَنِي لشعبان . يبطش بها
- يَرْفُس . يُشَلِّت .
- لم يستطع أحد أن يرد ... عاود الطرق .
- أنا يا شيخ شاهين .
- استحلب ريقه .
- ليلة أبوك كَحَلَّة يا شاهين .
- فتح زيقاً من الباب .. حدق .

- الصوت .. رق .. دق .. الشَّنب ، تدلُّدل . الجسم ترهّل .. الريق تهطل .
- شيخ البلد ينتظرك في دوار الشيخ شرقاوي .
- أي شيخ ؟
- الشيخ أبو هدير .
- أبو هدير ذات نفسه ؟!
- عند الشيخ شرقاوي . ينتظرك .
- ينتظرني أنا !!
- قال لى اذهب استأذن عمك الشيخ شاهين .
- تشجّع .. فتح نصف الباب .. ويده على قفاه .. تنحّى شيخ الغفر ..
- تفضل يا عم الشيخ شاهين .
- تفضل أنت، وأنا وراك .
- لا تزال يده على قفاه .
- المقام لك يا عم الشيخ .
- قال الشيخ شاهين :
- والله لن يحدث ذلك أبداً لن أتقدم عليك خطوة واحدة مدى الحياة .
- قبل أن يصل تنحي شيخ الحفر .
- أمام باب الشرقاوي تأكد أنه الشيخ الكبير ، هم الشيخ هشّ وبشّ . لم يصدّق أن الشيخ يُجالس الشرقاوي .
- همس شاهين .
- منذ أن تولّى أولاد أبو على لم نر إلا جرّجره .. وكركره . ومرمطة .. من كثرة الضرب على قفانا نسينا أن لنا وجوها .

قال الشيخ أبو هدير :

- في البلد عشر بَدَنَات ، لكل بدنة كبير ، سأجتمع بالكبار ، وأنتم أولهم ، نناقش كل شيء ونحكم بما ترونه . من الآن نحن جميعا مسئولون ، سيساعدكم شيخ الخفر .. في آخر كل أسبوع تأتوني بكل التفاصيل ، أما المشاكل الكبرى التى لا تستطيعون حلها فتحال إلى . لا تتدخلوا في شئون العائلات الأخرى ، كل في بدنته فقط . إذا ضُبط الأمن في الشهانية ، والشرافوة ، انضبط في البلد كلها ، موعدنا نهاية الأسبوع . وصل الشيخ شاهين يا شيخ الخفر .

تقدّم عبد الجبار ، سار شاهين خلفه عدة خطوات ، في أول انعطاف جذب من قفاه .
 - لا تنس نفسك يا ابن العوضى ، إياك أن تتقدم خطوة واحدة أمام سيدك شاهين .
 تتم عبد الجبار .
 - سبحان مغير الأحوال .

فرح المتكبرون بمقعدهم عند الشيخ الجديد ، بعد أن أذاقهم شعبان أبو على الذل والهوان ، وسامهم الخسف وسوء العذاب ، قاسمهم أمواهم وأولادهم ، ونساءهم .

أغمض عبد الجبار عينيه .

- الله يرحم أيام أولاد علي كانوا مشايخ بصحيح ، أدبوا الذئاب والكلاب ... والحمير والبغال . طاف طائف ، هتف هاتف ، جلبل صوت شعبان أبو علي :

- اذهبوا إلي الشرقاوي وشاهين ، وجرجروهما لا تذهب بنفسك ، أرسل إليهما أصغر خفير عندك . ليقول لهما . لا يغادرا بيوتهما إلا بالليل .. كما تغادر القنافذ والخفافيش .

قل لعبد العال الشيخ قد يصلي الجمعة غداً ، حضر خطبة ، مخصوص ، وإذا لم يستطع الشيخ أن يحضر آخر الخطبة لصلاة المغرب في الطراوة . عن الرجل الجدد الذي لبس الناس طرحة في العراق سيدنا أبو الحجاج المسقوف ، وعن طاعة ولي الأمر ، وما يجب على الناس من أموال . وقل له ينتظر على المنبر إلى أن يأتي الشيخ ، ولا يدخل الجامع أحد قبل أن أدخل ، وأن يقف الإمام خلفي ، ولا يسلم هو أو غيره قبل أن أخرج من الجامع .

- أنهى الرجل خطبته ، هم بالنزول ، بدأ مقيم الشعائر : الله أكبر .. الله أكبر في منتصف المنبر ، استوقفه .

- اشرح الآيات مرة أخرى

- إنها الصدقات .

- ليست هذه .

- وفي أموالهم حق

- ولا هذه

- واعلموا أننا غنمتم ..

- هذه .

- من يأخذ الخمس يا عبد العال ؟
- الرسول .
- وبعد موته ؟
- الحاكم ولي أمر المسلمين .
- المسلمون فقط .
- واليهود والنصارى والمشرى والماجوس
- بس !!
- والشرافوة والشهانة .
- ومن ولي أمركم الآن ؟
- لا أحد غيركم يا سيدى .
- اقرأ هذه الآيات فى كل الصلوات ، جهرا فى كل ركعة مرتين ، ولا تقرأ شىئا غيرها . لا يتخلف كبير ولا صغير ، ولا رجل ولا امرأة عن الصلوات الخمس : مرّ على كل البيوت . حفظهم اشرح لهم ، علمهم أمور دينهم ، واجبههم نحو ولي أمرهم ، حضّر كما شوية أحاديث ، وشوية شعر . ومن يحفظ سمّع له فى الدوار . وأعفه من الصلاة .. ومن لم يستجب سبّ له على المنبر ...

- قال أبو هدير :
- ناديت عليك عدة مرات . أكنت نائما أم .. ؟
- تنبه مذعورا
- الله یرحم أيامه .
- أيام من يا عبد الجبار ؟
- سيدنا شعبان .
- شعبان من ؟

- سيدنا شعبان بن عفّان رضي الله عنه
 - الله يجازيك يا شيخ الغفر .
 - سيدنا عثمان بن عفّان ، كان رجلا طيبا .
- همس :
- ..زيك .. رجل بركة .

[4]

- استدعي أبو هدير الشيخ عبد العال .
- أنت الذي أفتيت بأكل أموال الناس بالباطل ، وأحللت ما حرم الله ؟
 - عليك بتحريم ما حرم الله في كل خطبة :....

- حمد الله ، وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال :
- إن دماء المسلمين وأموالهم ، وأعراضهم حرام عليكم
 - قال أبو هدير :
 - المسلمون وغير المسلمين أموال كل الناس ، قال عبد العال :
 - لا يحل أكل أموال كل الناس
 - « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلّوا بها إلى الحكّام لتأكلوا
 - فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون»
 - وذكر كل الآيات ، والأحاديث التي تحرم أكل أموال الناس .
 - أصدر أبو هدير أمره :
 - لا يدفع أحد شيئًا لأحد من اليوم ، وكل من سلب ما لا يُرده في
 - خلال شهر ، ولن نهدأ إلّا بعد استرداد الحقوق . وكل من لا عمل له يحضر -إلى
 - الدوار .

قال شاهين ...

أسمعت ما قال صاحبك ؟

يريد أن يحاسب الناس على كل ما حدث أيام أولاد (أبو علي)

- والذين ماتوا؟

- سيخرجهم من قبورهم .

- أقسم أنه سيسترد كل قيراط ، وكل جنيه .

- يستردها بقال الله وقال الشيخ .

- بالرجال .

- ليس لديه رجال . صدقنا ما غار أبو علي ، يأتي من هو شر منه

- عامل أبو علي .

- همس الشرقاوي في أذن شاهين .

- نجتمع عندي أو عندك نحلّ كل المشاكل دون أن تُتعب الرجل .

- يزعل؟

- نستأذنه .

- قال الشرقاوي :

- بعض المشاكل التافهة لا تستحق تعب شيخنا نستأذنكم في النظر فيها

وحلّها .

قال الشيخ :

- لا بأس .

قالا:

- السمع والطاعة يا سيد الناس .
- تهامسا .. تغامزا تلامزا تخابثا . تباعدت الأخبار تقطعت ... انقطعت .
- مضت عدة أسابيع لم تصلني أي أخبار .
- ذهبت إليهما عدة مرات وعدا ولم يقيا .

[6]

أطلت الثعابين . ثعلبت الثعالب . تحفشت الخفافيش . تذاءبت الذئاب .
تنابحت الكلاب ، تضابعت الضياع ، تنأطعت النطاعة . عمت السكاعة
والرذالة . سلّب نهب . حتي الخفراء سأل لعابهم .
- من يشتكي منكم فلن يعود إلي بيته . وأشار إلي شيخ الخفر سامع يابن
العوضي .

- لم يقل لي مرة يا شيخ الخفر .
طاف أبو هدير : من لديه شكوى . من لديه مظلمة ؟
لم يرد أحد .

- كيف حال الأمن يا شيخ الخفر ؟
قبل أن ينطق قال الشرقاوي :
- كله تحت السيطرة يا شيخنا :

تهامس ناس :

- الله يرحم أيامك يا شعبان ، كنت ملبسهم طرْحاً .
- على الأقل البلد كان فيها كبير واحد .

- عياهم مشايخ .
- ونسوانهم .
- تصور باعوا كل طماطم البلد من غير ما يشاوروا أحدًا .
- إن كان على الطماطم زرعة وأنفوت .. أرض الجبل كنّا نستصلح فيها فداناً أو أكثر . أجروها لناس من بحرى يزرعونها ، اتضح أنه بيع نهائي للحرامية .
- هل يستطيع واحد منكم يشتري قيراطا واحداً بحرى الجسر .
- ولا إيجار .
- لم يبق إلا النسوان .
- ومين عارف
- الرجل طيب وعادل .
- خانوه
- بلدنا وأنا عارفها ، لا يُصلحها إلا المركوب . أبو هدير رمي الكرباج . كان أول من ضُرب به .
- ربك يؤلى من يصلح .
- دعاء ولاية ، طول عمرنا نقوله ، ولم يحدث شيء . الله يرحمك يا شعبان ، حتي الجوامع كانت مَلَيَّانه ، كان يجلد الذين لا يصلون . وعمره ما ركعها .
- كانوا يصلون من غير وضوء حتي الشيخ عبد العال .
- يعني الشيخ إلي النهار كله يقول : قال الله - وقال الرسول ماذا فعل ؟ وناس تانيين لا أحد يعرف من هم ، عمرهم ما شافوا بلادنا وإذا سألت عنهم يقولون :

- هم ملايكة .
- مساخيط
- داير يوعظ وسايب البلد تُحْبَط ، ترقع ، هي ناقصة وعاظ -كفاية
- الشيخ عبد العال الذي حرّم علينا كل شيء .

[7]

قال مهران العباسي :

- لا بد من عمل أي شيء صد هؤلاء المتكبرين دايرين يبرطعوا في البلد .
- قال أبو هدير :
- رحمتهم من ظلم أولاد علي .
- وتركتهم يظلمون الناس !!
- الرحمة واجبة يا ولدي .
- الرحمة ضعف وعجز .
- الله رحيم .
- لأنه قادر .
- رحيم بعباده .
- لأنهم عباده .
- هو الرحمن الرحيم .
- وهو المنتقم الجبار .
- كل جمعة أخطب وأقول :
- الحلال بين والحرام بين .

- إذا كان كله بينا واضحا، فلا لزوم للخطب .. الناس ملّت
- الصابرون لهم الجنة .
- الناس يقولون أين نحن وأين الجنة ؟ أحييني اليوم ، وأمتني غداً.
- أقول لهم سيدنا صبر على الجوع .
- صبر بمزاجه ، وكل زمان وله سيدنا ، وأنت سيد زماننا
- سيدنا كان عادلا .
- العدل لا يتحقق إلا بالقوة
- القوة ظلم
- عدل العامة ظلم للخاصة .العدل لا يتحقق إلا بظلم الظالمين -
- المستبد العادل .
- سيدنا عدل ولم يظلم .
- لماذا قُتل ؟ لا يقدم على القتل إلا مظلوم طفق الظلم .
- قال أبو هدير :
- الناس بدأت تترك البلد .
- من عدلك يا خال .
- أنا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر .
- يا ليتك تنهى عن المعروف ، وتأمّر بالمنكر. البلد لا يصلح لها
- درويش .
- الشرقاوي وشاهين منهم لله .
- دعاء العاجزين .

قال الهديري:

- أصل سَيِّد..د..نا
- الله يرحم الجميع .. تتم مهران خَلَّيه ينفعك .
- عم الطغيات ... انزوي أبو هدير .. مات كمداً

قال الشرقاوي :

- لم يبق من يصلح لها إلا أنا أو أنت يا شيخ شاهين .
- لابد من مقابلة والي الزمام .
- نذهب للسلام أولاً .
- ومعنا الهدايا .
- جمعت كل ما يلزم

- نحن كبار البلد ولا يصلح لها إلا واحد منا ، أو نحن معا .
- أخرج الوالي ملفاً كبيراً .
- في هذه الأوراق كل ما فعلته . اقرأ على كل واحد منهما كتابه - كل شيء مسجل حتى البط والأوز الذي أحضرتموه الآن . لم يترك السجل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .
- لن أعين واحداً منكما وسيبدأ التحقيق معكما فور تعيين الشيخ الجديد .

7- مهران العباسي (2)

لم يكن الطوالي الكبير راضيا عن إدارة ابن عمه « أبو هدير » فالهداية بيت طيب عفيف متدين مؤدب . لكن البلد عايزة ولد شعبان من لبن أمه ، يَشْكُمُ الغجر .

في السهرة قال الطوالي .

- رحم الله الشيخ «أبو هدير» ندعوا الله أن يولي من يصلح.

قبل أن يؤمّن الناس قال الشيخ شاهين :

- البركة في شيخنا الشرقاوي . إذا قبل المشيخة.

- تهامس قوم :

- إذا قبل !!!

قال الشرقاوي :

- الأمر لا يحتاج إلي تفكير ، لا يصلح لها أحد الآن إلا الشيخ شاهين.

أكبرنا سنا ، أكثرنا مالا ورجالا ، وقف ضد ظلم أولاد علي .

- (تحسس شاهين قفاه)

- واصل الشرقاوي كان مساعداً للشيخ أبو هدير . شایل البلد على

أكتافه (وبصوت خفيض) والحكومة .

- لا تريد غيره .

- مُدّ يدك يا شيخ شاهين نقرأ الفاتحة ، أنت شيخ البلد .

- قال شاهين : لا شيخ غيرك يا شرقاوي .

- همس هامس : المغضوب عليهم والضالين . دبروها أولاد الكلب

كانا قد أخفيا زيارتهما للوالي انظر الطوالي إليهما .. تأملهما طويلا . ثم قال :

- استدعاني الوالي وقصّ ما كان منكما ، وعرض علىّ موضوع المشيخة ،

وهو ميال لضمنا للسمعوني كما قال لكم . قلت له :

- نحن البلد الأكبر ، والناس لا يقبلون غريبا .
فماذا ترون ؟ الوالي ينتظر الرد .
قال الشرقاوي :
المشيخة مال ورجال وشاهين يملكهما . قل له : لا نريد غريبا . والناس لا
يرضون بغير شاهين .
قال الوالي :
- نحن رجال من لا رجال له . اقبل باب هذين الرجلين
تناظر الشرقاوي وشاهين .
واصل الطوالي وقال :
كلاما لا أستطيع قوله ، عار أن يتولي أمركم غريب . نريد رجلا قوياً يعرفه
الناس ويعرفهم ، وقد لَمَح من بعيد إلي ..
سكت الطوالي ... مَضْمَض حَوْقَل ضرب كفا بكف انتفض الناس .
- إلي من !!
- شيخ الخفر .
في نفس واحد هبّ الجميع في استنكار شديد .
العوضي !!
هتف شرقاوي وشاهين :
تغور المشيخة ومن يريدّها ، لو تَوَلَّى العوضي البلد تولّع نار ، غداً نذهب إلي
الوالي ونخبره .
قال الطوالي
- لو رآكم لَعَيْنَه فوراً . ليس أمامه إلا السمعوني ، أو العوضي . إلا إذا
اتفقتم على أحد آخر . يريد الرد غداً .

المقدس جوده عبد المسيح رجل حقاني ، لا مطمع له ، عاصر شعبان ، وأبو هدير . محبوب من الجميع ، لا عداوة بين أهله وبين أحد من الناس
- لم نسمع رأيك يا شيخ جودة .

قال المقدس :

- شهدت أواخر أيام (أولاد أبو علي) وشفّت الظلم والكره في أعين الناس . وعاصرت أيام الرجل الطيب الشيخ أبو هدير .. الذي تسامح مع كل الناس . نريد شيخًا شابا قويا عادلا . ليس وراءه أقارب يتحكمون في الناس . شعبان من بيتهم ، نستطيع أن نحاسبه ، وقد رفضتم الغريب ، ورفض الوالي من رفض . وأنا وأبو طالب عواجز . فلم يبق أمامكم إلا رجل واحد . وأنتم جميعا رجاله قال الطوالي :

- ما رأيكم فيما يقوله المقدس ؟

- قال أغلب الحاضرين .

- نعم ما قال .

قال المقدس :

- سمعونا الفاتحة .

- تقدم الناس مباركين .

- طأطأ شاهين رأسه . نكس شرقاوي عمامته

- عُين مهران العباسي شيخا للبلد .

في العودة وشوس الخناس في صدر شاهين الترياس .

- لن ندعه ينعم بها يوما واحداً .

- على بركة الله .

- يد الله مع الجماعة ... وتعاونوا على ...

8- حليمة النجارية

[1]

منذا الذي يقترب من النار والنور من المرمز والبنور ، من النعيم والجحيم ،
أهدنا الصراط المستقيم ... استعصت على كل الرجال - استعصمت
بالدلال .. تحصنت بالجمال .

من يتسلق الجبال .. من يرقى إلى السماء . من يستبق البراق . من يسرق
الأسعاف . من يغوص في الماء ، من يلتقط اللؤلؤ والمرجان . من يقطف الرمان ،
من يصطاد العنقاء . من ينظر في عيون الزرقاء . من يلمس جلد الرقطاء .
حفيدة الإمام النجار مفتي الديار . نزل أجداده هذه القرية . لا أحد يعرف
من أين جاءوا ، شأنهم شأن غيرهم .. أسرة علم ، وخلق . موضع حب
واحترام . خيار من خيار .

تُضرب بنسائهم الأمثال . تحاك الأساطير تناقل النسوان جماها .
شعر ولا شعر النجارية الذي تصفه نفيسة المدلكتية تدعو بمثله لكل النساء
حتى سيدة القرعة .. تتغزل في كل عضو : شعرها ، عيونها ، متأخيرها .
أسنانها . جيدها صدرها لا تترك عضوا حتى ما يُستقيح ذكره . فلا احتشام بين
النسوان : تفاحة .. برتقالة .. لؤلؤ مكنون . حقدن - حسدن - يالف العادة صار
إعجابا .. حبا .

الشيخ محمد النجار ، وكلهم شيوخ ، ابن عمها إمام مسجد القربة نال قسطا من التعليم الأزهري عاد إلى القرية . صلي بالناس . خطب الجمعة . صار إماما .. يمتلك بضعة فدادين ، يتعاش منها .

لم يكن كبقية بني النجار ، طولا وعرضا ، وبياضا . انتزعه عرق : سمارا ونحافة وتوسطا ، وكأنه من قوم آخرين .

سأل سائل : ممن الفتى يا مولانا ؟

قال النجار الكبير من قوم بيننا وبينهم ميثاق .

يزعم القوم أنهم من نسل حسان بن ثابت ابن النجار الخزرجي الأنصاري . وهم الذين أؤوا الرسول ونصروا دعوته ، سُموا بذلك لأن جدهم - كما يقولون - ضرب فارسا بالقادوم ، فنجره نصفين .

رُفَّت حليلة إلى ابن عمها ، ولما تبلغ السادسة عشر ، حاول الشيخ أن يُقنع نفسه بأنها ليست مُحَرَّمَا فلم يستطع . كلما همَّ بها شَلَّتْ جميع أطرافه ، هجر مرقده . نام على دكة .. طاف خيالها . احتضنها ..

- همت .. همَّ بها .. تحرك ثعبان . انسل رمح أُشْرِع سيف .. استيقظ .. ألقى جلبابه .. قبل أن يلج مخدعها أفرغت السحابة ماءها ومرعاها لم تشعر به . اكتشف أنه عار لم يعد لمثلها .



قالت نفيسة الدلالة :على مهلك يا شيخ ،حكم أنا عرفاكم يا أولاد النجار
بثلاث رجول ، البنت صغيرة وأنت مفترى .

قال الشيخ أبو الفضل : لونك مخطوف يا مولانا ، لا ترهق نفسك . لك
عندي وصفة متينة ، خفف الوطأ يا مولانا .
طأطأ رأسه . أدار وجهه .

- الشيخ يتآكل كأنه قطعة ثلج .
- في منتصف الخطبة سقط .. مات الشيخ محمد النجار الصغير .

[3]

بعد سنوات قالت نفيسة :
- (آه يا ليل يا قمر والمنجا طابت على الشجر .
- وشك عكر .
- ذكر ولا كل الدكور .
- يكسرّ عضمك وابور .
قابلني .. كلمني ، كشف المستور ، رجل من رجال القرية . عظيم الجاه ،
مسموع الكلام ، حوله رجال ، غلاظ شداد يفعلون ما يؤمرون . صمّ بكم لا
يعقلون . تحت رجليه يرتمون :
ينتظر الفرح والسرور .
- اكفّ على الخبر ماجور .
- الخبر شاع في النجوع .. في الكفور .
- قبل أن أعرف .
قال الناس ؛ من ذا الذي يعصى للشرقاوى أمراً ؟

- هو لا يستأذن أحداً .
- إخبار لها 0 ولأهلها .
- قالت النجارية .
- بنت حسان بن ثابت لا تتزوج إلا كُفئاً لها . حسباً ونسباً وجمالاً .
- قالت نفيسة :
- لا يستطيع أحد أن يبلغه رفضك ، أخشى عليك ، وعلى أهلِكَ بطشه . ليس أمامكم إلا القبول : سيرسل المأذون ، دون أن يستأذن . شاهين صاحبه . شيخ البلد جديد ، لم يتمكن بعد .

- سرحت النجارية : شاهين وجاهه ، غني عفة .. شرف . ليس عليه اعتراض من أحد .
- تناثرت أخبار .
 - الشرقاوى طير المشيخة من شاهين . اتفق مع الطواليبي .
 - ربط مع المقدس .
 - كافأه مهران . أجرله فداناً .
 - زوجة زيدان العباسى شرقاوية .
 - شيخ الخفر الجديد صاحبه .
 - سيدفع كرامته وكرامة الشرقاوية ، وشرفهم إن كان لهم شرف هكذا ناجي شاهين نفسه .

الشرقاوي سيقتمح الدار، تتساقط له الجدران ، تتفتح الأبواب . تتشقق الأرضين .

- وقعت أبوه طين .
- كل الناس يعرفون أنك له ، دون أن يهمس أحد .
- وصفتك الفلاية قبل أن تترملى . قرر الزواج .
- وأنا متزوجة !!
- إن لم يكن زوجك قد مات لطلقك منه.

[4]

- مصيبة مصيبة يا كبير الشرقاوية.
- ماذا حدث ؟
- تزوج اثنان من أولاد العوضى .
- دون علمي !!
- ليت الأمر كذلك ؟ تزوجوا بنتين من بنات أقاربنا .
- انتفض.

بنات الشرقاوية ؟

- أعوذ بالله حتى شيخ البلد لا يجرؤ

قال الكبير :

- ماذا نفعل يا شيخ عبد العال ؟
- نطبّق شرع الله .
- حاصروا مساكنهم حرّقوا عليهم بيوتهم .

- صلبوهم في جذوع النخل . قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف .
اجلدوهم . ارجوهم .. ألقوا بهم من فوق الأسطح .. قتلوا رجالهم . استحيوا
نساءهم . اتخذوهم إماء . ملك أيانكم 0 طبقوا عليهم حدود الردة والزنا ،
والسرقة والحراقة ، والخروج على الجماعة . تلك حدود الله . ومن يتعداها ،
فؤلئك هم الكافرون ، الفاسقون ، الظالمون .

- قال الكبير : طلقهم يا شيخ عبد العال .

- ليس هناك طلاق ، لأن الزواج باطل ، لعدم الكفاءة في الحسب
والنَّسب .

- نفذوا الأوامر .

- هربوا إلى بيوت الشهانية . هل نقتحم عليهم البيوت ؟

- انتظروا الأوامر .

شاهين عمره ما هيئسى مقلب المشيخة . حجر صوان في طريقي . إلى
متى؟؟

9- عبيد العبيد

[1]

أمام بيته في الرَّحبة الممتدة حتى الجامع ، في ظل جدار متشقق ، خلفه خرابات الأجداد ، بالت عليه كلاب السكك ، وُضعت دكة عليها بقايا حصير ، على يمين الدكة شجرة سَنَط عجوز ، علق فيها زير قديم مشروخ ، بالأص كُسرت رقبته ، صار «قَطُوما» .. قلة تهتمّ خَشْمها ، تتسرب المياة منه ، كأنها تتساقط من فم أثرم .

اتكأ الشرقاوي .. كَوَّع على بقايا وسادة محشوة تبنا .. وضع رجلا فوق أخرى ، كأنها أرجل ماعز تعاظلت ، تداخلت ، جُدلت .
انحسر الجلباب عن قميص من الدّمور .

يا للأقدار . تدبير الواحد القهار . موت زوجتي وموت زوجها من قبل .
ترتيب المدير ، أراحني من أخذها بالقوة هذا والله هو زواج الساء . معقول .
ياود يا شرقاوي فيك شي لله !!

ذا أنت عمرك ما ركعتها .. شاهين مرة هزّر معي ، وقال :

يوضع سره في أوسخ خلقه !!

هي امرأتك يا شرقاوي دون غيرك .. هكذا هتف الهاتف في أذني . سألبي النداء . سأمزج الدم الأسمر بالأبيض . أعبر الحدود . أكسر-السدود . أحطم القيود . إلى حيث البياض والجمال والدلال ، سأعكّش كومة اللحم الأبيض ، وأتمنى الموت ، الموت في سبيلك أسمى أمانينا ، إن لم يكن الموت على صدرك

شهادة ، فمتي يكون الاستشهاد ؟ من مات على صدرك مات شهيدا وإن لم
يركعها .

[2]

بعد صلاة العصر رَشَّ السَّقاء باحة الشهانة .. رُصَّتْ (الدَّيْكَ) فُرِشَتْ
البسط اليدوية ، من نسج داوود البهجوري . عليها اسم شاهين الأكبر ، وتاريخ
صنعها .
يتباهي الشهانة .

- صنع النساج لجدنا ثلاث سجدات ، أهدي شاهين واحدة لقصر -
السلطان العثماني . وواحدة لقصر الخديوي إسماعيل ، صديقه . يقال إنه أخوه
من الرضاع . كانا يتبادلان الزيارات .
لا يكف الشهانة .. لا يملون الحديث عن أجداد صنعوها ، أمجاد تخيلوها ..
- كلما ضعفت الأحوال ، كثرت الحكايات :
- جدودهم الذين فتحوا بلاد الشرق والغرب .. ملكوا الدنيا .. تأمر
عليهم الكفار طردوهم إلى الصعيد . أسسوا زمام بلاد المال خزائن لأموالهم :
خيولهم .. إبلهم . أغنامهم ..

تمطَّع الشاهين . أغمض عينيه . أسند ظهره إلى وسادة طرية . هففت بقايا
كساء كان أبيض مُزهراً ، تربع الصقر في جلباب فضضاض ناصع البياض ،
اعتَجَرَ عمامة مزهّرة ، لَفَّتْ حول رأس كبير مستدير . بدا الرأس كأنه الشمس
كُورَتْ .

تدلت أغصان السَّيسبان ، تساقطت أوراق الزَّيزفون ، جف شمام اللبَّخ .
لفت بقايا مزاير حول جذع شجرة عجوز . كيزان من الصفيح . من النحاس .
طارف وتليد . بقايا عز قديم . آثار مجد عجوز .
قبل أن تطأ قدمه الحرم الشاهيني .. ترَّجل سار أشواط قبل أن يصل بقايا
العرش . عادات منذ الشاهين الأول . لا يحالسه إلا الشيخ النجار وكبير
الشرقاوية .

[3]

على حافة مسطبة متهدمة تشعبط ، تسلق ظهر أتان ترعى عفشا ، تطلع ، غار
جلالها بين أضلع كأنها بقايا ألواح ودُسر . آثار (برْدعة) .
على كَتِفِ كأنها عَصْد جرادة . لفح أطلال ثوب شرقاوي . انكمش ..
قَصْر .. ضاق لا يلبسه أبدا .
على الكتف الأخرى شال فرشوطي . وعلى رأس الفجلة لبدة ، تمازجت
أصباغها ، تباينت ألوانها نُقعت في عرقها حتى اُرتوت . على أسفلها لفّ شريطا
أبيض كأنه لفافة مضمّد . على جنبي الأتان تدلّلت ساقان . خيْطان نقعا في
قطران .
أمام الدّوار لمّ رجله ، تزحلق . تدحرج .. سار يطلّع .. يحجل كأنه قُبْرَة .
أمسك برجل الدّكة توّكأ .. كأنه فأر يتسلقها .

طاف طائف الشهاينة ، دار البنزاهير .. منقوع الحلبة .. رفع الساقى براد
الشاي عاليا .. تدفق الحلب كأنه حَبُّ الرّمان .. يعلو ويهبط على جدران أكواب

من البلور. علا الحَبَب يضيء وينطفئ ، أُنْثَرَت كأنها كئوس النَّوَاسِي ، فضةٌ ذهب.

شفط الشرقاوي شفقة . شقت الجمجمة .. أتبعها الرادفة . توالي النفخ والشفط واللحس .

تمتم شاهين :

- الله يرحم منقوع البراطيش .

قال الشرقاوي :

- جئت أخبرك الخبر اليقين .

- سكت بُرْهة ... نظر شاهين . لم يتساءل . طال النظر .. أيقن أن

صاحبه لن يسأل . طال الصمت.

- لا يعنيه أمري . تأزم الموقف .. استأنف :

- قررت الزواج.

- مصاهرة الشرقاوية عِزْوة .

في سره : الشرقاوية كلهم وليس شخصي ، عزوة وليس شرفا

- أرذت تحسين النسل . نسل الشرقاوية

(لو نفّعوكم في المالح لنجستوه) الشرقاوية سمار وجمال.

- أريد حمارًا ، وحلاوة.

- تزوج إذن بطيخة .

- مقبولة منك يا ابن ... القافية تحكم .

[4]

لشاهين أخت تجاوزت الأربعين - رفضت الزواج من عيون الأعيان.
صادف الرفض هوًى فهي قسيمته والشهائنه لا يحرمون بناتهم.

قد تكون زهقت من الوحدة . نفسها في عَيَل لكن شرقاوي !! هي تقرف من
سيرتهم . من حقها الزواج . لكن شرقاوي !!
ماذا تفعل لو طلبها وقبلت ؟ ربما يكون قد أرسل إليها سرًا . لا تريد أن
تتزوج رجلا أقل من أبيها وأخيها .. لكن شرقاوي !!

[5]

لم يعد قادرًا على الحركة .. اعتزل الناس .. انزوى في ركن قصي... أنس
لمحمد الجمال يساهره ، يُسامره كل ليلة .

انحنى محمد الجمال يقبل يد الشيخ الكبير .

- أستودعكم الله .
- إلى أين يا ولدي ؟
- أرض الله واسعة .
- وهل ضاقت بك أرضنا !!
- انتهى الموسم . وعمّ الفيضان . ولا عمل للجمال في البحر .
- أعمال البر كثيرة .
- سأعود في الموسم .
- المواسم لا تنقطع .

لا أحد يعرف من أين جاء محمد الجمال ، ولا إلى أين سيذهب، تبدو عليه
نجابة النجباء . في حديثه، في أدبه، في مأكله . في ملبسه.
- الولد كأنه ابن أعيان .
لا أحد يسأله عن شيء .

ما دمت سأقيم بينكم فسأقصّ عليك حكايتي .
- لا تقل شيئاً : أظن أن رجلاً عجوزاً مثلي يسمح لرجل غريب بدخول
بيته دون أن يعرف عنه كل شيء ؟
- أخذ الفتى يقصّ عليه حكايته.
- لا أحد يعرف سرّك إلا أنا ، وحفيدي شاهين ، كبير البيت الآن.

تصغره بعدة سنوات تعلّقت به منذ رآته .. طارده سرّاً خشي الفضيحة قرر
الهرب ..

طرقات خفيفة .
- من ؟
- لم يسمع رداً .
- توالي الطّرق .
فتح الباب قليلاً : اندفعت كاللبؤة - انهالت عليه تقبيلاً .. انخرطت في
بكاء شديد .
- لن أدعك تهرب سأهرب معك .. عشقتك من قبل أن أراك . أنت
زوجي . أنجبت منك عشرة أولاد كلهم محمد الجمال . أهرب معك إلى أي
مكان .

- يقتلوننا .
- نموت معا .
- سأعود إليك .
- سأخلع ثيابي ، وأهرب عارية .
- خلعت ثوبها ، سأغتصبك .
- أخذها بين يديه . هدأت سكنت ، ألبسها ثوبها .
- سأدبر أمري وأعود إليك .
- لن أعيش بدونك .

اختفي الجمال ، غاب . ذاب تحسست تلصصت غاب قمرها ، انطفأ ضوءها . كُفنت قلبها .. دفتته بين ضلوعها . نحل الجسد البض . غارت عيون . تقشفت شفاه ، برزت ضلوع تساقط شعر . عافت نفس . لا طب نافع ولا حجاب شافع .. زوت نؤارة الشاهين ، ذابت قرة العيون ...

[6]

بعد حين قال الشراقوي :

- لم تسألني من هي ؟
- الكبير لا يسأل .
- الفرحة أنستني الأصول .

قال الشاهين :

- الكبير لا يسأل عن أهل بيت ، ولا أولاد ، ولا مال ولا أعمال . ولا يسأل ضيفه ماذا يأكل ، ولا ماذا يشرب ؟ الجودة من الوجود ، حتى لا يشعر

الضيف بالغبرة . إذا عاجلت ضيفك . ماذا تشرب ؟ فكأنك تقول: لماذا أتيت ؟
- تعجل له الطعام . فأنت تودّعه .

- كلامك غير كلام المدّاحين .

- كلام شُعرا . المدّاح نفسه كل يوم برأي . إذا كان زبانية هلالية قال

كلاما . وإذا كانوا زناتية ، قال كلاما آخر . الكريم لا يتحدث عن الكرم . الذي يتحدث عن الكرم الطفيلي .

- الشيخ إبراهيم يقول عن كرم العرب ، ويقول لنا شعرهم في الكرم ، وما كانوا يذبّحون من الجمال والخيل .

- سيبك من كلام الشعرا . لو أنت اللي اسمك شرقاوى عشيت مرة في حياتك شاعرا . لقال إن جدكم كان مسلما .

- الله يجازيك يا شاهين .

- اسمع القرآن يتحدث عن بخل العرب . وكثرة الفقراء والمساكين

الجعانين . كلما تخطى تطعم مساكين . والنبي يقول : تصدق ولو بنصف بلحة ..
بخلع الدرس .

- هو نص البلحة شوية .

- يبدو أنهم كانوا شرقاوية . لو كانوا كرماء بالفطرة ، ما فُرضت عليهم

الصدقة . تاجر يدفع قرشا يأخذه عشرة . وعازب أكثر الناس اللي قالوا بعد موت

النبي نعطي فلوسنا لعيالنا موتوهم وقالوا عنهم مرتدين . الشيخ إبراهيم

يقول :

- كلام بيني وبينك لا يُقال للناس .

- وكلام الخطب

- ولا حد فاهم ، اسأل الناس بعد الصلاة . الشيخ كل جمعة يقول :
الشیطان . إبليس والناس جميعا يرددون : عليه لعنة الله .
هذه الجمعة الشيخ غير وقال : الطاغوت في نفس واحد : قالوا صلى الله عليه
وسلم .

[7]

اجتر الشرقاوي كلاما .
- ستين في الأزهر ، عامل نفسه عالما ، لا يكف عن التكبر والإهانة ،
رجله في وجهي طوال جلستنا ، رجل بيضة «ملظظة» ناعمة ، كأنها لم تمس
الأرض قط . أطرافها كأنها حبات التوت ، أرجل امرأة !!
في كل جملتين يزجّ بواحد من الذين خلفوه ، والذين خلفوا جده الباشا .
جده الوالي .
وجدك يا شرقاوي ، كان أحسن غفير ، كان شيخ الحرامية كلهم ، سبع ابن
سبع ، أبا عن جد . البلاد لا تصلح بدون أعيان ، وجدعان . ونسي أنهم ممالك ،
اشترى الوالي العبد المملوك جدهم من سوق النخاسين ، كان غلاما جميلا .
وكان الوالي يعشق الغلمان فقربة .. ثم أحبه .. أقطعه هذه الأراضى يملكها ومن
عليها .. صار المملوك مالكا ، والعبد سيدا وأصحاب البلاد عبيدا وخداما .

قال الشرقاوي :
- هل سمعت عن جميلة الجميلات ؟
الخدود نار . الأرجل جُمار . الشلايف بلابل زّمار .. العود ريان . الرقبة
كهرمان .. الصدر رمان .. القفا شعبان .
قال شاهين :

- والعريس كحيان . جريان . الذباب منه قران .
- قال الشرقاوي : رجعنا لطول اللسان
- أنت اللي عامل أبو الشعران .
- قال الشرقاوي : نعود لبنت شيخ الديار . داقق في كل بيت مسمار .
- الليل خلص . طلع النهار سلام يا أعز ...
- حين سمع الشاهين :
- داقق في كل بيت مسمار . أحس أن مسامير الدنيا كلها دُقَّتْ في رأسه .. كاد يسقط . أمسك بحافة الدّكة .
- كنتُ أظن ، حتى بعد قِلَّة أدبه ، أنها أختي .. دون غيرها . لكن دق المسمار حلّ اللغز . هي النجارية دون سواها .. كان عليك أن تفهم مما ساق من أوصاف . فليس معقولاً أن يتغزل في أختك بهذه الوقاحة . كما أنها ليست كما وصف .
- كنتُ انتظر الوقت المناسب ، ولم يدر بخُلدي أنه سيتزوج قبل أن يمضى على وفاة ابنة عمه شهور . هل أحس ميلي نحوها فسبقني . هو دائماً يحاول أن يخطف اللقمة من حنك السبع الشاهيني .. تعددت إساءتك يا ابن الشر-قاوي . لكنها لن تقبل هذا العبد الأسود .. هل يُغمس جالوس الطين في اللبن الحليب !! لن تستطيع أن تُعلن رفضها .
- مَنْ بنو النجار !!
- من ذا الذى يستطيع أن يتصدَّى للطغيان والاستبداد . عائلة من التعدي والظلم : والفسق والفجور ، والنطاعة والردالة ..

لا أحد يستطيع أن يمر أمام خرائبهم راكبا .. الشيخ الهديري ، كبير البلد ،
الله يرحمه ، غير طريقه لقلّة أدبهم .

- اخلع نعليك ، وعمامتك ، وسر حافيا ، حاسر الرأس ، كأنك داخل
الحرم المقدس .

- افترؤا بعد موت شعبان أبو على ، كان يربطهم في جذوع النخل عرايا ،
يغلّقون أبوابهم من المغرب .. كل نسائهم خدم في بيوت أولاد على . هن ملك
يمينهم .

لو كانت الأمور آلت إلى لعلمتهم الأدب ، لا يصلح أمرهم إلا بالعصا
والكرباج ، استقوينا بهم على الناس ، فكنا أول ضحاياهم - أغدقت عليهم
لأملكهم . فتمردوا ، وتنّمروا . لم يعد أحد بقادر على ردعهم . إن لم تفعل شيئا ،
فتلك نهايتك . لم تعد البلد تسعنا .

الحمد لله . لم يُصرّح .. لم يفهم أي فهمت ، ظن أن ذهني شرد في مكان آخر .
سيفاجأ الجميع . لن أعلن قبل كتب الكتاب ..

سأصفعك على قفاك المزيت قبل أن تصحو من نومك .

[8]

برفق طرق باب الشيخ عبد الحميد النجار .

- من !!!

- من يطرق بابك بعد منتصف الليل ؟

- حللت أهلا . ونزلت سهلا .. تذكّرني أيام الصبا ، أيام المكتب .
- والدكم ، عليه رحمة الله ، علّم البلد كلها .. لم تسألني ما الذى أتى بي
- في انصاص الليالي ؟
- وهل يسأل الرجل متي يدخل بيته !!
- جئتُك في أمر لا يحتمل التأخير.
- خير إن شاء الله .
- أنت أخ وصديق ، ولا أخفي عنك سرًا . وتعلم علاقتي بأهل بيتي .
- وأن أم أولادي مريضة منذ سنوات ، مرضا لا شفاء منه .
- أعلم كل هذا . وقد وسّطتني عدة مرات لاقتعك بالزواج ، فلم
- تستجب .

- الليلة سأستجيب.
- وهل وجدت عروسا ؟
- وجدتها . وجئتُ أخبطها منك
- ليس عندي بنات .
- جئتُ طالبا يد شقيقتكم .

انتفض الرجل

- لا ترغب في الزواج . رفضت كل من تقدم لها .
- شاهين ليس كأحد من الناس .
- الموضوع ليس سهلا ، دعني اتدبّر الأمر .
- الليلة .
- كيف ؟
- الآن .
- سأحدثها .

- دعني أعرض عليها الأمر بنفسى ، وأسمع ردها .
- فلما قصّ عليها حكايته قالت :
- لي شرط واحد ؛ موافقة زوجتك
- قال النجار :
- أنا أعرف رأيها . هي التى وسطتني لزواجه ، ولولا ذلك ، ما فاتحتك
- في الموضوع .
- قال شاهين :
- خير البر . كنت قد مررت على المأذون وهو جاهز عليكم بالشهود .

اختطف الشاهين الأحمر اليهامة البيضاء من مخالب الغراب الاسحم .
صفعة .. بضقة .. مركوب .. شلّوت .

10 - دماء لا تجفّ

[1]

تهامس الشرقاوية :

- المصائب تتساقط علينا كالمطر . تتوالى كضربات القدر . ما نكاد نرفع رأسنا مرة حتى نغمسها في الوحل مرات . وممن؟
- من كبارنا : رجالا ونسوانا .
- عيون الناس تبصق علينا .
- نظراتهم صفعات على أففيتنا .
- حتى الحيوانات لم تعد تحترمنا
- كلاب الحي تنبحنا .
- قال سيد الشرقاوي باستغراب شديد:
- من يصدّق . من يتصوّر . طلبت يد بنت من بنات العوضي ،
- قاطعه شرقاوي آخر :
- أجننت يا رجل - تُناسب العوضي !!
- يا ليتهم قبلوا !!
- قال العوضي :
- من تطرده بنت النجار ، ويُلغوص في نسوانهم ابن الحفّار . لا يصاهرهم إلا حمار .
- لم نُعد كفتا لأحد .
- قال شرقاوي ثالث :

- سبحان الله !! كنا نتزوج نساءهم من غير أن نستأذنهم !!
- وبدون زواج .
- قال كحول الشرقاوي :
- مررت على بائعة النابت ، فرفعت ثوبها . قلت لها : تحشمي يا امرأة .
- قالت :
- المرأة لا تتحشم من امرأة مثلها .
- قال عبد الله الشرقاوي :
- موضوع عمتكم كلام حريم ، إشاعة أطلقها الشهاينة الذين لا يكفون عن الحقد والحسد ، ويدارون فضيحة بنتهم التي عشقت محمد الجمال .
- قال سيد الشرقاوي :
- ما فعله شاهين ، عار لا يغسله إلا الدم .
- قال الشرقاوي الكبير
- لا أريد أن أسمع هذا الكلام .. لو سالت نقطة دم واحدة ، فلن يتوقف تيار الدم . الثأر لا يُباع ، ولا يُشتري .. لا يصدأ ، ولا يسوس . لا يصيبه عطن ، ولا عفن ميراث مرّ؛ لا ثورتوه أولادكم ، فيهم رجال ، كما فيكم . أنا صاحب الحق ، سأسترد كرامتي . كفوا عن هذا الموضوع .
- [2]
- لم يكف الشرقاوية عن الغليان .
- هذا الرجل قبل الإهانة على نفسه . لكنها إهانة للجميع الشيخ إبراهيم الهلالي الذي درس في الأزهر يقول :

- البلوي تعم ولا بد من تطبيق شرع الله . ولكم في القصاص حياة..
 عاقبوا بمثل ما عوقبتم به . من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه . لم يقتل الكفار
 أحدا من المسلمين . فلماذا كانت غزوة بدر؟
 كانت ردًا على ما لحق المسلمين من إهانة ، وكذلك بقية الحروب . إن القتل
 المعنوي ، أشد من قتل الجسد ، إن إهانة كبيركم إهانة لكم جميعا .
 إن إذلال النفوس ، وجعلها سخرية للساخرين ومهزأة للمستهزئين ، الذين
 سخروا منكم وبأولادكم وأحفادكم ، وأجدادكم . يستوجب الرد ، وأنا أقول
 لهم سيأتيكم أنباء ما كنتم تستهزئون ويحيق بكم ما كنتم منهم تسخرون .
 إن كل الحروب التي وقعت في الماضي سببها أن رجلا كبيرًا كشيخكم هذا ،
 أراد أن يتزوج امرأة ، فسبقه إليها عدو الله وعدوكم وتزوجها .
 ظلت خطب الشيخ وحكاياته تلهب عواطف الشرقاوية .

[3]

قال عبد الله الشرقاوي :
 - صرنا مهزأة لكل الناس
 - قال هلال الهلالي :
 - نحن بيوت كثيرة ، كل بيت يشيل همّه .. عار الشـرقاوية يخصهم ،
 وعليهم غسله .
 - أصبحنا موالا . الكل شعر وغنى ، في كل مكان الغراب .. الغراب .
 أخذوا الكلمة من بنت النجار . الأولاد في المدرسة .. في الدروب ، في الكتاب
 يغنون:
 - في عز النهار نفش ريشه الغراب .
 - نزهة في الكروم ولا في الغاب .

- يا ليتَه كما ذهب آب .
- على راسه كوم تراب .
- على وشَّه مقطف هباب .
- قرفت منه الكلاب .
- عافه الذباب .
- ياريت كلته الدياب
- جاب لناسه اللعن والسباب
- شيخ لا نافع قربة ولا أجراب .

[4]

مل الشراوية تغامز الرجال ، تلقيح النسوان .
 شامة تناسب غطرستهم وتكبرهم ، وقلة أدبهم . لم يسطع كبارهم كبج
 جماح صغارهم .. ضغط الضاغطون ...
 من بيت بعيد. فرع فقير. تسلل عبد الله المحمودى ، كمش .. لَبَد في
 منعطف مظلم ، قبل أن يطل الشاهين ، طل كرشه الكبير غاص نصل . سالت
 دماء بُعْثرت أمعاء . زلزلت جدران . فُتَّحت ببيان - صرخت نسوان .. هرولت
 ركبان .. تداعي الثقلان .

- قتل السيد .

- مات الكبير

سالت دماء لا تحف إلى يوم الدين ... صكَّت وجهها . هتفت !
 قسما بهذه اللحمية التى لم تتخلق بعد ، لن يَضِيع دم السبع هدراً .
 أغلقت النجارية فاهها ..

[5]

قال الشيخ مهران العباسي :

- أول مصيبة تبدأ بها مشيختك .. أنحزن على مشيختك ، أم تشمت في الكلاب الزرق « فحَار يكسّر- بعضه بعضا .. قد تموت الثعابين من لدغ العقارب » .

- يد واحدة على كل البلد .

- عصابة واحدة . سلب نهب تكبر قلة أدب، عمم مقلوطة نفوح منها رائحة العرق والقرف . جلاليب لا لون لها ، كأنها نسجت من قَطِرَان ، تعافها كلاب السكك ، لم يسمعوا عن مخلوق عجيب اسمه مركوب : أى أحد يختلف معهم يهددونه بضرب المركوب .

- يشحتون مركوبا يضربون به .

- يسرقونه من الجامع .

- سلفني مركوبك أضربك به . وأعيده .

- أحفاد الأجلاف الذين لا يزالون يبولون على أعقابهم .. نساؤهم لا تزال تبول واقفة .

[6]

- أوصيكم بأبناء عمومكم الشهبانة خيرا لا تفرطوا في أرحامكم كونوا يدا واحدة على من عاداكم . ومن لا يعاديكم .

قال ابن الشرقاوي :

- صحيح يا جدى إن جدنا شرقاوي وجدهم شاهين أولاد عم

- إخوة من أب واحد ، وأم واحدة .

تمتم الشيخ حسين العوضي المحفظ .

- لو كان هناك خالق - استغفر الله .. غير الله . لقلت إن لكل منكما ربا ..
- ماذا تقول يا عوضى ؟
- كلنا أولاد آدم ، وحواء .
- الأساء تشابه . فيه مائة حواء ، وألف آدم ، دون أن يحرك الشيخ لسانا حتى لا يعجل بكلام . أو يلحن في قول .
- جدد بيض ، وغرابيب سود ، عروق تنضج بياضا وحمارًا ، وطولا وعرضا . كل شيء يضرخ مملوك ابن مملوك ، العبيد يتشدقون :
- نحن أبناء الرسول وأحباؤه اصطفانا الله ، فضلنا على العالمين . آل بيت كل الأنبياء والمرسلين الصادقين والمدعين . مسيلمة وسجاح ، وزنقاح ، والوسواس الخناس .
- ورّد يتلوه الشارقة ، آناء الليل ، وأطراف النهار ثلج . وفحم .. طين وعجين ، ديك روماني . حلّوف سوداني .

الفصل الثاني

مَهْرَانُ وَبَنُوهُ

- (1) وهل غير الفؤاد لها قَبْرٌ ؟
- (2) الفارس المثلّم .
- (3) الكيلانية وبنوها (1) .
- (4) سور الرّئس العظيم .
- (5) هَتِيّة الكيلانية (2) .
- (6) حلّلت صَفائري .
- (7) حُمْسٌ ولدي .
- (8) محمد مَهْرَان .
- (9) الخالق الناطق .
- (10) نَحْت قديمها .
- (11) حسان البرغوتي .
- (12) آخِتامكم .
- (13) النَّجْمِي .
- (14) تليفون العمدة .
- (15) عبد الجبار الجّبار .
- (16) مَوْتُ هِرْقُل .

وهل غير الفؤاد لها قَبْر !!

[1]

كل شيء تبدّل ، الأكل . الشرب .. النوم . اليقظة . الزرع جفّ الطين
شاب . الورق تساقط ، البلبل نَعق .. الغراب غَرَد . الضفادع رَتَلَت ، العِشار
عُطِّلَت ، السماوات تشققتْ ، الشمس كُوِرَّت . الكواكب انتشرت .. جَزَّت
شعرها ، شَقَّت ثوبها .

اختفى البهاء . انزوى الرّواء ، تاهت البسمة .. ماتت الفرحة .

في عز الليل تسلل . احتضن القبر . تشمم الرمل ، لحس الصخر . انحَرط في
البكاء .

- أبو الهول يبكي . الهرم يهتز .

ترنّح . شَرَد . تاه .

قرب مكينة الري . اضطجع ... نام حتى الصباح .

- لا قبر لها إلا هذا القلب . جمالها ملأ السماوات والأرضين . فكيف تضمه

حفرة !!

نعم المّعين كانت ... دنيا الحزن ، لا عام الحزن . زمّليني ، زمّليني في قبرك .

دسّريني في حضنك .

كيف هانت عليهم !!

كيف طاوعتهم أكفهم ؟

كيف قويت أيديهم على دفن الجود والكرم . والجمال والدلال !!

جَرى الدمع مدرّارًا . عيونا . أنهارا . سيولا . أمطارا ..

- ما غاب الجسد . ما زوى الجمال . ما بهت الضياء ، ما كذب الفؤاد . لن
تموت أبداً . في قلبي النار والنور ، الجحيم والنعيم . كل العبرات المَهْرَاقَة لا
تطفئ لظى النار . لولا الحياء ، لسكنت قبرك حيا ، وهل غير الفؤاد لك قبر .
ضمها . احتضنها .. قبلته
حركة ... جلبة . أصوات . استيقظ مدعورا .

[2]

تطلع مهران العباسي إلى استكمال وجاهته ، وقد اتسع الطريق .
- شعبان آخر أولاد على مات .
الهديري الله يرحمه .
الشهائية في النازل .
الشرقاوية . أعود بالله ، كل الناس تكرههم .. بالمال سأشتري الجاه
والسلطان .. العيال والرجال ، الذمم والمِلل ، الفلوس تحيي النفوس .. تذلل
النفوس . على كل الرقاب تدوس . في البحر طريق . ألف صاحب . ألف
صديق .
ورث أبيك ، وورث عيالك . وشطارتك ، وتجارتك ، تسد كل العيون ،
تُلَيِّس كل الخُشوم . تطرش كل الآذان .

[3]

خدم المرحومة يملئون البيت : رجالا ونساءً ، يرفُلن في ثياب شديدة
السواد ، وطرح سابغات .. لا أعرف واحدة منهن . أشباح من السواد تتحرك ،
لا يُبدِن شيئا من زينتهن ، ولا شيتتهن .

[4]

غُرْفَة نوم . على يمينها استراحة . في أقصى اليسار حمام . لا يصعد أحد .
معبدها . محرابها .

في مرضها الأخير قالت الست صفية الهديري :

- هنية فقط هي التي تَصْعَد .

ظلت تتصعد بعد وفاة الست ... فرشت الفرش ، سوّت الملابس .. أعدت
الحمام . داومت . كانت تعرف عنه كل شيء . حاولت تنسيه ذكراها ..

[5]

خيّم الحزن . سكت السكوت .. كانت تطل فيغرد كل شيء .. آوته بهاها .
نصرته بسلطانها ، بهرته بجماها .. لم يصدق أنه تملكها .. لم تصدّق أنها تزوجت
الفتى العباسي . كان أبوها شديد الإعجاب بجراة الفتى وطموحه .. تمتته قبل
أن تراه .

[6]

لم تتخلف (هنية) يوما عن إعداد الحمام . كل شيء في مكانه . (الطشت)
والحلل والكوز ، الماء الساخن . الماء البارد . الجرة . البلاص . المشجب .
عرجون قديم ، علّق من طرفيه ، فردت عليه الملابس بعناية .
عدة أيام . الماء كما هو . لم يُمسّ ، تُغيّره ... تبدّله ، تتسمّع همسه . خَطّوه .
تناومت .. تناعست .. كمشت . سواد في سواد ، من تحته سواد ، من فوقه
سواد : لحوم كُبْكَب بعضها على بعض .. تداخلت سيقان . تفاخذت أفخاذ ،
تناطحت أرداف . انحشرت الجلاليب . تكشفت أهله أقمرت أقمار . صدور
تعلو ... تهبط .

بأطراف أصابعه لامس الأرض . لا يشعرون به أحد . عاينَ . تأمل . عاد ...

أغفَى قليلا . احتضن . انحشر بين السيقان . كاد يختنق ضرب بيديه . رَفَس برجليه .

لم يكن يعود قبل صلاة العشاء ، اختلفت مواعيده .. تسلل إلى حجرته ساعة القيلولة ، فتح الباب المفتوح .. في العتمة اصطدم . يكومة لحم منكفئة على السرير تلملم فرشته .. سقط عليها . أمسك بها استدارت في حضنه عارية الصدر الممتلئ . بلعَطَتْ في العباءة . تاهت . تراجع . هزولت . هربت .. ظل تائها غائبا . بات في الدَّوار أياما .

يقتحم طيفها . خيالها .. عليه وحدته . يقظته . نومته . أفسدت عليه صلاته .
- لم تفعلها وأنت في عز صباك . أتسقط وقد شارفت الأربعين ؟ راودتك جميلات ، ثياب وأبكارى . حور عين . وعُمش عور .

عاد بعد أيام . مطأطى الرأس . كاسف البال .
- حين ماتت الغالية ، كان في القضاء والقدر تسلية . ماضيك ، وحاضرك ، ومستقبلك بين يدي هذه الفتاة . لن أستسلم لنزوة .

- جهّزوا الحمام :
لم يلتفت .. بعد ساعة وجده جاهزا .. تشمّم رائحة البخور ، لأول مرة منذ ماتت الست .

لم يعد يواظب على الصلاة في المسجد .
- أريد ماء للوضوء :

شمر عن ساعديه .. مد يديه . صبّت الماء صبا خفيفا . دلك يديه، بسط
كفيه . استقبل دفقات الماء الدافئ . أطال التدليك . تمهل بعد غسل كل عضو ..
فرد رجله . صبّت الماء .. خلل أصابعه بتأن بطيء .

- ناوليني الفوطة :

مدت يدها .. سقطت طرحتها . اندلق صدرها . تلكأت .. لأول مرة يرى
وجهها .

سُمره كأنها النحاس المجلّو . صدر كأنه صفاة ملساء .. ممتلىء ، بديع
التكوين والتكوين .

للمت طرحتها بدلال .

[7]

- كانت المرحومة جميلة الجميلات سيدة نساء الدنيا والآخرة . كأنها
اصطفأها الله على نساء العالمين .

جاءت البنت معها . تخدمها . أبوها كَلّاف .. وأمها . انتقلوا مع صفية
لخدمتها .

أجنت يا رجل !!

ماذا يقول الناس ؟

ابنة كلافين !! الحرامية لهم (عوزة) كما يقول ابني أحمد : هو وأخوه
يفتخرون بأخواهم المشايخ .. أولادها !! بمن يفتخرون .. بهؤلاء البغال !!

- ممن تزوج الشيخ مهران ؟

- سؤال سيطرحه كل الناس .. لا يقبل أحد أن يكون حفيد الكلاف شيخا .

أيكون مستقبل هذه العائلة تحت أقدام هذه الفتاة ؟ لن يكون ذلك أبدا .

أوى إلى فراشه . ثقلب .. أغمض قليلا .. ناقة حمراء قصواء - ناءت
بكلكلها . افترشته . افترعته .. فضت بكارته .. أسرع .. في البلايص تكعبل .
تزحلق .. مدت يديها . فتحت ذراعيها . ضمته نفخ فيها . صرخة .. جنين .
استيقظ انطفأ اللهب ، تلاشى الشعاع . بزغ القمر .

[8]

من تحت النخلة التقط الشيخ زيدان العباسي (بلحة) لم تنضج بعد . مسحها
في قميصه .. ابتسم .

- من ينظف من !! ومن يوسخ من !!

البلحة والا القميص ؟

نظر إلى ابن أخيه وقال :

- شوف يا ولدي . بيتكم من غير ست ناقص كثير . لا بد أن تتزوج .

- الوالد لا يزال شابا . زوجه يا عمي :

- يخشى زعلك .. ولن يتزوج إلا إذا زوجته أنت

- ابن يزوج أباه !!

- كلنا إخوة .. لمح له . واطرك الباقي ..

- بعد عدة أسابيع قال أحمد مهران :

- كان فرح العدوى الكبير . فرح شاب . رقص كل أولاده حتى الصّباح .
- العدوى لا يزال شابا يا ولدي . أكبر منى بعشر سنوات فقط .
- صحته ليست جيدة . لم أره يُحطّب .
- هو صياد ماهر . وأحسن خيال في الزمام دائما يقول :
- لا أحد يخلّفني إلا أحمد مهران : انطلقت معه إلى ليلة بني حميل .
- ابنك استحى أن يسبقني .
- ابنه (علي) خيال ، رقص يوم فرح أبيه ، على ظهر الحصان ، ولما يمض على وفاة أمه عام .
- بيتهم كبير يا ولدي . يحتاج لست كبيرة . بصوت خفيض همس الشيخ :
- بيتنا أكبر .

قال الشيخ زيدان العباسي : الناس لا حديث لهم إلا فرح العدوي ، الكبير لا يصح أن يعيش بلا زوجة . نساء البلد يشتكين له .. بعضهن طامعات . كلام الناس كثير .. الزواج يقل هذا الباب . أولاد العدوى وإخوته ألحوا عليه .. سمع كلامهم .

كف زيدان عن هذا الحديث أياما .

همس مهران :

- أسابيع لم يشر - أحد منهما إلى شيء ، لا الولد ، ولا عمه . ينتظرون أن يتزوج العدوى مرة أخرى !!

- الأسبوع القادم سنحضر أنا وأنت وعمك أفراح الشهاينة . كل سنة يزوجون عددا من أولادهم في ليلة واحدة . اثنان منهم أصغر منك . شد حيلك يا بطل .
- لن أتزوج وحدي .
- تاجر ابن تاجر ، أخذت على المشاركة .. الشراكة لا تنفع في الزواج يا ولدي .
- أريد فرحا جماعيا كفرح الشهاينة .
- تزوج أنت وعمك .
- عمي متزوج الدور على ..
- البيت محتاج لامرأة . ولا بد أن تتزوج يا ولدي . لن يتزوج الصغير قبل الكبير .

- عقل الولد يا زيدان بلاش كلام المجانين .
- عين العقل يا ولد أبوي .
- ماذا تقصد ؟
- لا بد أن تتزوج . لا ينبغي أن تتأخر أكثر من ذلك . سأبلغ أحمد بموافقتك .

مكشوف عنهما الحجاب . أم ظهر عليك ؟ لم أشعر بحبهما كما أشعر الآن .

تمنى الشيخ أن يختار ابنه كما اختار هو من قبل :
شباب ومال وجمال .

- المصاهرة عزوة وسند ، وتقوية أوامر .. فخر الأبناء والأحفاد . أنا أخذت نصيبي .. هل هو اختيار ، أم أقدار .. ابنك وأخوك لن يعارضاك . لكنهما لن يتشرقا بهذا النسب . من بنت شيخ الشيوخ ، إلى بنت كلاف الجحوش !!

بعد صلاة الفجر قال الشيخ مهران :

- تفضل نفطر معا يا سيدنا :

" زبدية " بيض مطقش ، عيون تسبح في السمن العباسي ، تشكشك . تطشطش . تدور على الحواشي كأنها بنت النجاشي . سلطانية قشدة جاموس ، تشرئب لها النفوس استنشاق . الشيخ تتمم :

- كل هذا من أجل بنت خصماء التيوس .

لأول مرة يجلس معه أحد على طعام واحد . في منتصف الأكل انسحب مهران .

- أكمل أكلك يا مولانا :

على أنغام شفطات الشاي قال سيدنا : وهو يعلم لماذا أتى به مهران : سأفأفأفك في أمر لن يفأفأفك فيه أحد غيري . لا يجوز ، شرعا ، أن يبقى الرجل عزبا ما دام قادرا ، البيت بلا زوجة خرابة ، وأنت تستطيع أن تتزوج من تشاء من أغنياء البلد ، أو فقرائها .

- فقراء يا مولانا؟

- خذوهم فقراء يغنكم الله . اظفر بذات الدين والخلق . خذ بنت من يربط لك الجحش ، لا من تربطه له . من يمشي خلفك ، لا من يمشي أمامك ، الجماعة إياهم متكبرون ، استدرك .

- كل الناس تمشي خلفك . كثير من الغلابة . كانوا أعيانا ، وكثير من الأعيان كانوا غلابة ، إلا أنتم ، أول ناس أسستم هذا البلد ، وبعدكم على طول ، كيلاني الكبير ، يقال إنكم أولاد عم . حين جاءوا كان معهما ولد أبيض خدام ، وعبد أسود ، الخدام كان اسمه ، شاهين ، والعبد كان اسمه شرقاوي ، وربك على عبيده ستّار .

2- الفارس المثلّم

[1]

في الطريق الضيق الذي يخترق غيطان سماعنة بحري ، انطلق فارس مثلّم
يعدو كالشهاب ، يتطاير الحصى من وقع سنابك فرسه كالرصاص . يسد الغبارُ
الطرقَ .. يملأ الأفق . سحابة تجلّل الفضاء .. لم يعد الفتى العباسي يرى شيئاً .
صمم على اللحاق . كاد حصانه يسقط . واصل العدو . والآخر ينهب الأرض
نهباً .

أمام دوّار الحصابة ترّجل الفارس المثلّم . سد العباسي عليه الطريق :
لن أدعك حتى أعرف من أنت . كل الخيالة في المديرتين أعرفهم ، وأعرف
خيلهم ، هذه فرس عبد الشافي . ولكن من أنت ؟
مد يده .. جذب القناع . تطاير الشعر . بُهِت . طأطأ .. أسرعت .
قبل أن يدير وجهه قافلاً :

- قف يا عباسي .
- شاي للضيف .
- من هذا الضيف ؟
- أحمد مهران العباسي .
- سمعتُ عنه ولم أره .
- أيقن كل منهما أنه قدره .

[2]

بعد أسابيع قال العم زيدان العباسي :

- همتك يا بطل .
- أنا جاهز يا والدي .

- وأبوك جاهز .. من اخترت؟
- بنت من الحصابة .
- وقعتك طين . أبوك بنت الكيلاني ، وأنت بنت الحصابة . نصفهم حرامية ، نسب يشرف .
- والنصف الثاني أعيان .
- من أي نصف منهما اخترت ؟
- أبوها صاحبكم .
- النسب حاجة والصداقة حاجة ثانية . حرامية يا ولد أخوي .
- العائلة التي لا يوجد بها حرامية ، يتخطّفها الناس اللي ما عنده صايغ .
- حقّه ضايغ ، كل القبيلة عايشة على حسّ الحرامية . تتمم الشيخ زيدان
- ملئ البيت حرامية وبغالا ، وجمالا .

[2]

بيت الغالية لا يسكنه أحد بعدها ، يظل محرابها ملكاً لها سادفن فيه . جهازها لم يشهد الزمام قبله ، ولا بعده ، بنت كبير الأكابر ، وحيدة أبي هدير ، بعضهم يقول : أبو غدير لفيض كرمه ، وكثرة عطائه ، وجوده وإحسانه ، كغدير الماء ، كثرة وتدفقا ، وفيضا وعموما وإغداقا ، وتواصلا مع الأقارب والأباعد .

لن تطأ محرابك المقدس يا بنت الأكابر قدم .

في ركن قصي ، شاد لعروسه داراً صغيرة .
 - لن تكون في روعة كعبتك ، في قداسة قبلتي محراب حبي . لكنها تليق بمن أحببت ، لن تطمئن في مضاجعها جنوبك، ولن تقرّ عيونك في مآفيها ،

وفؤادي متعب ، من أجل سعادتك في مثواك ، اصطنع السعادة .. لن تكون
بعذك أبدا .

قالت العرّمانة زوجة زيدان :

- بنى لها زربية تليق بأهلها ، شبكها بكيلة غلّة ، ومقطف تبّن . وبلاص
مش . كسا أباهها بردة .

ليلة الدخلة سُتلفّ في شوال . راحت المهرّة وجاءت البغلة . راحت
العروسة وجاءت الجاموسة . والله لن أساكنها دارًا واحدة:

[3]

عُسمس الليل تنفس الصبح ، بان الخيط ، تحرك الركب .. يتقدمه الشيخ
زيدان العباسي على حصان أبلق ، خلفه ابن أخيه (أحمد مهران) على جواده
الكُميت .

كان لدى العباسيين خيل أصيلة ، يعرفون آباءها ، وأجدادها ، وأمهاها ،
وجداتها ، يحفظون سلاسل أنسابها أكثر من حفظهم النسب العباسي .
يقال إن أبا هدير القديم احتفظ بها من أيام الفتح الفاطمي . ويقول
العباسيون :

- هي سلالة خيلنا منذ أول عباسي نزل على الأرض . وهي من خيل
الفراعنة . حمل نوح آخر زوجين منها . فلما استوت سفينته على الجودي ، كان
أول من نزل منها جد هذه الخيل ، لذا سُمّي جوادًا . ركه أول نبي بعد نوح ، هو
جدنا إدريس المصري . المعروف بأزوريس . المعلم الأول .

خمسة جمال غلاظ شداد . خلفهم خمسة جحوش .. أمام معرض
الفرشوطي، بركت الجمال ، ترّجل الرجال ، رُبطت الخيول ، قُيدت الحمير .
طافت النسوان بمحال الذهب ، والعطارة ، والأقمشة والأواني .
تُملت الجمال بالأسرة ، والبُسط والفرش ، وأقمشة التنجيد ، وأواني النحاس
والفضة ، والحرير والأقطان والأصواف ، للرجال وللنساء . تولّت الحريم حمل
الحليّ ، وما لا يطلع الرجال عليه .

على دفّ الدفوف ، وطبل الطبول ، وزمر المزامير وزغردة النساوين ، ودويّ
الخراطيش ، وصيحات الرجاجيل ، ورقص الخيول ، وحنين النوق ، تنسمت
نسائم مياه رَيّاح الحليمي ، وعلى شاطئيه رقص الصّفّصاف ، والكافور .. تنثت
جدوع النخيل .. وتميلت أعواد القصب ، تدلت ثربات العنب ، تبسّمت
حبات الرمان ؟ الركب العباسي يتهادى وسط الجماهير التي خرجت من قرى
القليعات، والوشيشات . طاف بمقام الشيخ أؤبس القرني ، والشيخ خلف الله ،
والعجمي .. أمام الدوار الكبير . أفرغت جمال وحمير حولتها .
واصل الركب ، يرافقه رجال ونساء ، شيبا وشباناً ، رجالاً وركباناً ،
والدوي يَصُكّ بلاد الساعنة صكا ، والهتاف يعلو .
- عباسي يا بيه .

بساعنة بحري طفحت الطرق الضيقة المتعرجة بين حقول الذرة ، وكروم
سوق النخيل ، تهتف مع الهاتفين ، ودوي نيران أولاد العم ترح السماء رجا .
امتدت الصواني ، رُصت الطبالي في كل دروب الحصابلة ، بعد صلاة العشاء ،
قفّل الركب العباسي راجعاً .

[4]

حلقان ، حجول ، أساور . كرادين ، جلاليب فساتين ، طرح ومناديل ،
شباشب ومراكيب ، سُرر ، ودواليب ، لبنت الكلاب ، لم تنله بنات الأسياد .
يوم أن تكرم عليك ، أنتِ بنت العُزْمان ، بدكة وحصيرة ، وبردة رجالي ،
وشال نسواني ، وعباءة نصف عُمر لجوزك ، (بُسْنا) يديه ورجليه ، عايش في
نعيم . عمره ما زرع ، لكن كل الحصاد في كرشه ، جوزك خدام ، وغدا ستكوني
خدامة لبنت الخدامين . هكذا وسُوست حليلة العرمانية في صدر ابنتها : زوجة
زيدان العباسي .

[5]

قال عبد المجيد أبو حسب الله لزوجته :
- الحمد لله : لقد كفانا العباسي كثيرا من تكاليف التجهيز ، تجهيز بنت
ستعيش في بلد آخر ، شبكة ومهر وهدايا ، لم تدفع لبنات أغنى الناس .
قالت الزوجة :
- ما فعله العباسي تحد وإهانة .
- كيف ؟
- يظن أننا لا نستطيع أن نفعل مثله .
- ليس من عاداتنا تجهيز البنات .
- إذا تزوجت ابن عمها . أما الغريب فلا بد أن نرفع رأسها بين
سلايفها .
- على أية حال يشكر . حفيدة السمعوني الكبير التي ستعيش بين أغراب
، تُزف بهذه الاهلاهيل والدلاذيل ، والحلقان القديمة .
- هل نطالبهم بالمزيد ؟

- سأجهزها بجهاز لم تسمع عنه مديرية قنا ، ولا سوهاج . ولا جد ،
جد العباسي ،
- وهذه الأشياء .
- سأتصدق بها على الفقراء والمساكين
- خراب بيوت .
- لن أكلفك شيئا ، أبيع أرضا ، أرهن أرضا . فلتخرب كل البيوت .
ويظل رأسك عاليا فوق كل الرءوس .

تحرك الحصابة إلى عروس الصعيد ، إلى (جرجا) مدينة العلم والمال
والتجارة ، مركز تجارة الصعيد ، فيها مالا يوجد في غيرها . كيست الأكياس ،
شولت الشوايل صُرت الصرائر . برق الذهب ، لمع اللجين ، تلاًل اللؤلؤ
والمرجان ، مشت الجمال تحمل أثقالا فوق أثقال .

أشرقت الشمس ، ارتفع ضحاها ، علا سناها ، في عز الظهيرة ، قصد
ركبهم ديار العباسي : وقف الخلق على جوانب الطرقات من كل القرى ينظرون
جميعا . كيف تُجهز البنات !!

- لا علم لنا بما تحملون ، عودوا من حيث أتيتم .
- همس الشيخ مهران في أذن ولده .
- كله لك ولأولادك .
- خراب بيوت يا والدي .
- لو استطعت أن نحرب بيوت كل الناس . حتى بيوت العبادة لا تردد ،
دعه يكُعب
- رهن أرضا ، ولن يستطيع فكّ الرهن .
- لن يشتريها أحد غيرك .

في دوار شاهين ، قال شرقاوي :

- سمعتم ما فعله الحصابة ردوا القلم قلمين ، التكبر على الناس ، وإظهار الغنى والافتراء ، ظلم بين .
- ربك يسلط أبدانا على أبدان .

قال الشيخ (علي) صديق الشيخ مهران :

- لدي سر لا يعرفه أحد ، حتى لا تظلموا الرجل أرجو ألا يشيع بين الناس ، ولا تنسوا أن الحصابة أحوال الشهانة ، ما فعله الشيخ مهران وكنت معه ، كان شبكة ، أما الجهاز الحقيقي فهو ما شاهده الناس اليوم ، تسللت أنا والشيخ مهران إلى جرجا ، والتفينا وفداً من الحصابة ، واشترينا ما رأيتم .

سمع الشيخ مهران حكاية الشيخ (علي) . لم يعلق . لم يكذب .

زحف ركب الجمال والخيول والحمير ، يسد طريق الحاجر ، والطبول تصك الأسماع ، وتغشى الأبصار ، نابيت تعلو وتهبط ، كأنها نجوم تتساقط ، تصطك كالرعد .

أمام بيت الحصابة ، برك الجمل الكبير عليه هودج مُطَهَّم بكل أنواع الزينة . شق حصانها الصفوف ، سهل سهيلاً كأنه ضرب الدفوف ، شددت لجامه ، وقف على رجليه ، رفع يديه ، أرخت الزمام ، على أنغام المزامير انسأب كالثعبان . انطلق الزحف المقدس .

[1]

هنية حمدان الكيلاني . ورثت الخدمة في البيوت . هكذا وجدت أمها وأباها وإخوتها .. لم تفكر لحظة لماذا ؟

أبوها جذع نخلة ، أخوتها خيول ، بغال ترمح في الحقول . لم تر عباسيا مُتَرِّيا .. مُطِينًا . جلاليب نظيفة ، عيش قمح خالص ..

- «كُتِب علينا المش والمُقَّة ، والدُقَّة» ، بقايا لُقْم . عمري ما أكلت رغيفا كاملا . في ليلة القدر 47 رمضان جاءتني الملائكة . لابسين أسود في أسود . خفت قال لي : لا تخافي يا بنت الكيلاني . تتصورى عارف اسمي قال : أنا سيدنا عزرائيل . قلت : أحسن ناس يا أخويا .

قال تمنى يا فاطمة :

- ماذا طلبت يا أمي ؟

- بلاص مش كامل :

- مش يا أمي .

- قديم يا بنتي .

.. نكنس ونغسل ، ونعلف ونتبن ، لن نذوق طعاما قبل البهايم والحمير ،

نأكل واقفين .. ماشيين كالبهائم ،

أحْيها .. أدلْكها ، أنشّفها ، لا تمدّ يدها لتنشيف ما بين رجليها . نفيسة

تقبص شعراية ، شعراية ، حتى فوط المسح ، أسويها وأضعها تحت المخدة . لا حياة لها خارج هذا السرير .

لقم ، بقايا طيخ ، عضم .

- عشاك يا هنية . أنا تعبانة الليلة ، خذي بالك من الحاج .. البركة فيك .
- تمنيت . اختشي يا معصصة يا بوصة . أنت فين من البياض والحمار ، المبطرخ المظلظ ، بقرة معلوفة .. معزة جربانة .
- اجري يا عبد وأنا أعينك . طول عمرنا نجري !! الظاهر : الجري له ناسه . في العيد لبس أبي مركوبا قديما . نظر الحاج إليه . لم يطق أبي سيرة المراكيب بعد ذلك . جلابية نصف نظيفة . مرمطها في التراب ، ثم لبسها . على ظهر الفرن ، تكورت ، كوعت ، خدرها الدفء ، راحت في سبات عميق . من التنور أطل برأسه . جردها ، استل سترتها ، احتضنها ، لحم ناشف ، بكر . لباني ، خط هلال بزغ . سم خياط ، عصفور فتح فاه .
- تعبتُ من «اللغوصة واللظظة ، والبطرخة . من روائح العطور والصابون . امسح الخيارة واقضمها .. من غير مسح . رائحة العرق مثيرة جدا . علت هبطت ، ارتعشت .. انتفضت صرخت . ألقت ما فيها وتخلت ، ذعرت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . تحسست .
- الأمانة كما هي شديد السخونة . لكنه ليس دما . تمنيت . انتظرت . طال انتظارها . تحسست بطنها اطمأنت .

[2]

ظلت واقفة خلف الباب . وطرحتها على وجهها ، لا تبدي لبعليها زيتتها ، برفق مديده ، أزاح طرحتها ، لم تقاوم ، خلع عباءته ، احتضنتها ، قبلتها . ظلت واقفة .

- علقي العباية :

بضع خطوات ، علقتها ، تراجع .

على كرسي جلس ، مد رجله يخلع حذاءه ، هَمَّتْ ، من تحت السرير شدت
شِبْشِبًا . فك قفطانها ، أدارت وجهها ، بعناية استلت جلبابا .
فرغ من طعامه ، مد يديه ، من إبريق فضي انساب الماء الدافئ على يديه ،
نفض يديه دون أن ينظر .. خرج .
كان عليها أن تبدل ثيابها ، وتكمل عشاءها وتُتمم زيتنها ، تنتظر رجلها . بين
الاحتشام . والتبرج . وتهتف :
- هَيْتُ لك .
لكنها لم تفعل .

طالت غيبته ، جلست ، على حافة السرير أسندت رأسها ، غفت .
زوجة كبير الرجال ، كبيرة النسوان . كلهم خدامين زي ما كانت بنت (أبو
هدير) . جهزوا حمام الست الكبيرة ، أعدوا لها الطعام . من ضُلْفَة (الدولاب)
امتدت يد زوجة زيدان سحبتها من قفاها . لا تنس نفسك يا بنت الكلب ..
أنت جارية خادمة ، ولن تكوني زوجة أبدا . من الفجر تبَنَّى للبهائم . قَرَّصي
الجلة . آلتها يد العرمانية . وقفت مذعورة .

[3]

مد يديه ينزع عنها ثيابها ، لم تقاوم . استسلمت . اقترب . جفلت .
حملها . مددها .
- عضمايات . أين الشحم واللحم ، كانت فرشا وغطاء . كل البنات هكذا .
بقرة لم تعلف عما قريب يمتلئ هذا العود الطويل العريض ، جميع أهلها كذلك
لو رزقني الله منها ولدا . المرأة تلد أباهها وأخاها ، أولادي الخالق الناطق جدهم
وخالهم .

نَسبَ يَعْرِ. ما الذي رماك الرمية السوداء !! ماذا تقول لهم ؟ من خالي يا أبي ؟
ومن جدي ؟ لن يجدوا ما يفتخرون به ... المكتوب على الجبين !!

بدأت تلين ... تستجيب .
- كانت المرحومة بطيئة الحركة . كأنَّ الأمر لا يعينها . بنت الكلاف ،
حاسب ، هي اسمها إيه ؟ لم أعود عليه ، طعم مختلف بنت الكلب - أرض بِكْر
عَفِيَّة . هُلُوبَة . اكتمى الله يا خرب بيتك
غصب عني يا سيدي .
تغشاها . لم تر الطُّمُس بعد ذلك . حملت حملا ثقيلا . ارتفع بطنها امتد .
منذرا بالخطر .
- لا تدعوها تعمل شيئا .

[4]

- عشنا وشفنا ، خدامين لبنت الخدامين . بنت الأكابر كانت يدها بيدي .
ثلاثة شهور لم تنزل من بيتها ، بقي لها بيت . بنت السماك . انتشلناه من البرك .
يسبح في الطين كما ولدته أمه . يصطاد عدة سمكات ، آخر النهار يبيعهم
بالعيش . ما اتقولي حاجة يا مرات أحمد .
والنبي ومن نَبَّ النبي لأدوسنَّ على مناخير اللي خلفوها في روث البهايم .
رجالتنا يخدمون في الزرع . ونحن نخدم في البيت . نعيش بلقمتنا . «ما اتقولي
حاجة يا أختي» .
أنا خلفت بعد ستين ، وأنت ، لا تزعلي منى ، لك سبعة شهور . وبنت
الكلب عكشت من أول ليلة .

انطلق غلمان كالفراش المبثوث ، كأنهم يركبون الجراد .. تعالت صيحاتهم :

- مبروك .. مبروك . ولدان يابا الحاج . خر الشيخ مهران ساجداً . وأناب ،

أطال السجود ، تقاطرت الدموع .. رفع رأسه ، والحلق شَرِق

« حلاوة أخواتك يا أحمد »

- كل عيلٍ جنيه يا والدي .

قال الشيخ زيدان : عددهم كثير يا ابن أخي .

- حتى لو كانوا مية يا عمي

قال الشيخ مهران : اذبح عجلا ، ووزعه يا حمدان :

- عجلان يا والدي .

قال الشيخ زيدان ساخرا ، وقد نظر إلى ابن أخيه عبوسا قمطيريرا : خليهم

ثلاثة . وهمس : هو أنتم غرمانين حاجة !! عجلان ومائة جنيه . لما رزقت بعد

سنوات بحتة العيل ، ذبح معزة عجوزة ، قال : عكيكة ؟ هو ذا العك بجد ،

عجول وفلوس .

قالت العرمانة : ولدان ، وأحمد وعلي ، والحبل على الجرار . أمها خلفت

ثمانية تيران . بعد العيال البيت بيتها .

[6]

بعد عدة شهور عُين الشيخ مهران العباسي شيخا للشيوخ . سلطات مطلقة في جمع الضرائب ، والقهر والظلم ، حتى الدجاج والبط والبيض لا يسلم من أذاهم .

[7]

كان مهران رجلا قاسيا ، لكنه كان يعرف حدوده مع العائلات الكبرى ، والحكومة ، واللصوص . عليه مهابة ، لا تراه مبتسما قط . لا يلاعب ولد من أولاده ، لكنه الآن لا يستطيع أن يخفى فرحته بالغلامين تخيلهما كجدهما . ضخامة وفخامة .. كان ينجل من مصاهرة الكلاف . بدأ يقربه . أصبح الكلاف عمي حمدان .. الحاج حمدان . قبل موته حظي بلقب الشيخ حمدان .

بعد ثلاث سنوات أنجبت هنية توأما آخر ..
أربعة ذكور في عائلة قليلة العدد ، نصفها أولادك يا هنية :
توالي الإنجاب . وأم البنين تزداد نفوذا ، وسيطرة .

4 - سور البرنس العظيم

[1]

عَرس كَوعة في الوسادة الناعمة ، واضطَجَعَ مرتفقاً . ثم قال كبير الهواشم :
- كل ما فعلناه فعله غيرنا . لم يفكر أحد أن يقترب من المجد ، من السور
العظيم ، من الحديد والنار ، من الغلاظ الشداد ، من غابات النخيل ، طوفان
القصب ، من اقترب هلك ، فاز .. نجا . لو فعلناها ؟ مَجَّد ما بعده مجد ، عَزَّ ما
بعده عز . فخر الأبناء ، والأحفاد إلى يوم الدين .
- نعرض على الشايب والضَّبَع .
- لو سمع أحد هلكنا قبل أن نتحرك .

لا طريق إلا الحفر تحت السور الغربي ، تربة طينية يسهل حفرها بالأيدي
والمعاول الخفيفة، عشت في هذه المنطقة عدة شهور ، أعرف كل دَرَب فيها ، لا
يمر بها أحد . زراعة القصب لا تُروى هذه الأيام - الأرض ناشفة . نتحرك
عليها بسهولة ، السور لا يمكن تَسَلُّقه ، عالي جدا ، مزروع قطعاً من زجاج ،
وسكاكين بحدين ، وأسلاكٍ شائكة ، مُؤمِّن تماماً ، حنى الطَّير لا تستطيع أن
تقف عليه . الأبواب مكهربة ، هذا الجانب مُؤمِّن تماماً ، لا يمكن نَقْب السور
الضخم . لا يخطر على بال أحد الاقتراب منه ، حتى البرنس نفسه .

تنتهي مزارع القصب عند الجبانة حين نصل إليها عائدين نتخذ من شواهد
القبور سواتر ، الغفراء بأيديهم خرطوش ، لا يصمد أمام سلاحنا ، في المقابر
زخائر قد نحتاجها عند عودتنا ، البيوت الملاصقة للجبانة ، زملاء وأصدقاء ،
لو حوصرنا ، سنترك المواشي ، ونختفي عندهم ، وحين يسمعون خرطوش
الغفر سيردون بكثافة .

سنتسلل إلى القصب من مزارع أصدقائنا ، ونتعرف على كل شيء نهارًا ،
سيأتيكم طعامكم بوصفكم مطايرد ، لن نبدأ العمل إلا بعد أيام ، بعيدًا عن
السور ، قد يستغرق الحفر عدة أيام . نُغطي التراب بعُش القصب ، سيتم الحفر
بالأيادي أولاً :
بدأت الأيدي تعمل ، كما تحفر الثعالب جحورها ، والأرانب قطرتها التي
تلد فيها ..

[2]

في الليلة الموعودة تسلل الرجال داخل النفق زحفوا كالثعابين .
- اتركوا الجواميس . ثقيلة بطيئة . البقر خفيف ، من الممكن أن يجري معنا .
على باب الحفرة ، ضُغْطُ شديد على ظهر البقرة .. تمددت كأنها جبل مبروم ..
كادت تلتصق بالأرض .. سُحِبَتْ من صَريمتها ، دُفِعَتْ دَفْعَةً قوَّة ، خرجت من
الجانب الآخر ، عشر بقرات .

هز الحادث الصعيد هذا عنيفا ، أمر الباشا بوقف جميع العمَد والمشايخ إن لم
تتم معرفة الجناة .

بعد أيام وُجدت المواشي ، مربوطة حول السور الشرقي المطل على النيل
مباشرة .
استدعى البرنس العمَد والمشايخ ، للمرة الثانية ، أنكروا صلتهم بالحادث .
اقترب مدير الأمن من (البرنس) عليك يا سمو البرنس بالعباسي
- ومن العباسي !!

-3-

بعد عدة شهور ذهب العباسي إلى قصر البرنس ، مهنتا بالعيد ، ومعه وفد من أعيان قبيلته ، أعدهم لهذه الزيارة : زي أزهرى أنيق : جَبب وقفاطين وعمائم ، وشيلان كشمير ، وعصى ومسابح ، كانوا قد تركوا لحاهم منذ فترة . حين علم البرنس بوجود العباسي ومن معه ، وهو قلما يقابل أحدا ، طلب مقابلة وفد السعانة ، رَحَّب البرنس بالعباسي ومن معه من الأعيان ، أنتم رجالنا في بحري .

شباب وفتوة وأناقة ووجاهة ، بسطة في الجسم ، وجمال في الشكل ، وأناقة في اللبس .

قال البرنس :

- لم نر ، هؤلاء العلماء الأفاضل قبل ذلك .
- هم شيوخنا في الأزهر الشريف ، كانوا في بلاد (برة) منذ سنوات ، جاءوا يقضون العيد مع قبيلتهم ، والقبائل الأخرى ، من كبار الشيوخ .
- قال أحد الجالسين

- سياهم في وجوههم :

قدمهم العباسي دون ذكر ألقابهم .

- الشيخ أحمد السمعوني . الشيخ يونس السمعوني - الشيخ زكي السمعوني الشيخ يوسف . الشيخ عباس لم يكذب ، ولم يكشف .

حين هموا بالانصراف ، أبدى الأمير إعجابه بحصان العباسي ، وكان الرجل يعلم عشق البرنس للخيول ، وحب تملكها ، فأعد جواده إعدادًا خاصا .
- قص عليه قصة نسب خيلهم ، وأصالتها وعراقتها ، وتربيتها وأدبها . في الأمير رغبة ، لكنه لن يُبديها .

بعد عدة أيام عاد العباسي وحده وقد جمل حصانه ، فخرج على الأمير في تمام
زنته وبهائه وروائه وشبابه ، يرتد منه ، وإليه البصر .

- قال الأمير هذا حصان آخر :

قال العباسي :

- هذا أمير الخيل ، لا يخرج إلا للأمير البشر- ، قربانا من خادمتكم ، وابن
خادمتكم العباسي . سارا طويلا ، الأمير على الحصان الجديد ، والشيخ على
حصان أميري ، جريا .. تسابقا ، قفزا . نطا . اطمأنا إلى ما يركبان . شرح
العباسي للأمير ومربي خيوله عادات خيلهم وطعامها ، وشرابها ..

- تبادل الهدايا لا يكون إلا بين الأصدقاء ، فهل تصدقني القول إن سألتك؟

- من هؤلاء الذين تجرؤوا على اقتحام سور البرنس ، وقد كانت الجن
والأنس والطير والوحش تتحاشاه ؟ لك ولهم كل الأمان .

- أما وقد أمتي قبل أن أطلب ، ونحن لا نطلب أمانا من أحد ، لا تغضب ،

فهذه عاداتنا .

- أعرف اعتزاز قبائلكم بكرامتها .. وأعرف أنه لا يقدم أحد غريب على

فعل شيء كبير ، كما حدث ، دون علمكم .

- سأصدقك القول . هم أهلي وبنو عمومتي ، ولأول مرة يفعلون شيئا دون

علمي . وحين علمت أثمرتهم برد المواشي ، عبروا بها النهر ، وقيدها خلف

السور الشرقي المطل على حافة النهر ، ولو كنت أعلم أنني متهم ما فعلت .

استودعكم الله يا صاحب السمو :

ترجل الأمير . احتضن العباسي . قبله .

- لي طلب أظنه مستحيلا

- في عرف الصداقة لا شيء مستحيل
- هل من الممكن أن أرى أحدا منهم ، ولو من بعيد ؟
- سموكم تعرفهم ، وقد رأيتهم جميعا .
- متى ؟ وأين ؟ وكيف ؟
- في قصرك يا مولانا .
- كاد الرجل يُجَنّ .
- هُمُ المشايخ الخمسة الذين تغدوا مع جنابكم هذا الأسبوع .
- كاد يُصعق .
- إذا كان لصو صمكم علماء ، فما بال أعيانكم !!
- هم دون غيرهم يا صاحب السمو .
- لولا أنني أعرفك ما صدقت .
- ليس هناك ما يضطر العباسي للكذب يا سمو الأمير .
- ماذا يفعلون بالمواشي التي يسرقونها ؟
- يطلبون من أصحابها نصف ثمنها .
- وهل دفعت لهم .
- العباسي يأخذ ولا يدفع .
- هذا هو الثمن كاملا هدية مني لهؤلاء الرجال ، قصوري مفتوحة لك
- ولهم ، يأخذون ما يشاءون دن حفر أنفاق . ولكن متى أراهم مرة أخرى ؟
- قريبا يا مولاي :

في الاحتفال السنوي الذي يقيمه البرنس ، هُواة التَّحْطِيب ، توافد الرجال من كل البلاد ، أشهر الطباليين والزمارين : صفقة نبابيت ، اشتراها البرنس من الخارج ، فحسبها العباسي ، نبوتا .. نبوتا . جوائز كبيرة ستُقدم هذا العام لأحسن اللاعبين .

بعد انتهاء الموسم قال البرنس :

- كان موسماً رائعاً . لم نشهده من قبل ، رجال لم نرهم قبل ذلك ، وبخاصة في اليوم الأول .

- لم تَفِ بوعدك يا عباسي .

- لقد شهدتَ سموكم اليوم الأول، وسلّمتَ الجوائز ، الرجال الخمسة الذين تبحث عنهم سلموا عليك في هذا اليوم ، اثنان منهم تسلموا جوائز من يدكم الكريمة .

بعد شهور أقام البرنس حفلاً راقصاً، مسابقة اشتركت فيها وداد الغازية ، وناعسة المزانة ، وبهجة البهجورية ، وزوبا الفرشوطية. وراقصات من كل البلاد .

همس الأمير في أذن العباسي .

- أخشى أن تقول إن أصحابك بينهن .

[5]

كانت صداقة العباسي للبرنس فاتحة خير ، فالبرنس هو المتحكم في كل زراعات وتجارات القصب والعسل والسكر في الصعيد ، أسند معظم أعمال القصب للعباسي ، كسر ونقل ، وعصر ، في عصارات نجع حمادي ، والشيخ فضل بالمنيا .

[6]

سنة أولاد . الجميع ينهون تعبك .. شقاك . أنت مالك . ولا أجير ؟ . ليته يعطيك أجرة شغال . حتى أرض (أبوك) كتبها باسمه ، ليكون شيخا . ماذا كسبنا من المشيخة !! كل مصاريقها من شقاك . الكبير انت رببته . الصغار يهربون منك يظنونك خادما ، لن أنام .. لن أنام الليلة . ولن أدعه ينام . حتى نجد حلا ، هو وأولاده ، وبنت الخدام يملكون كل شيء . ولدي سيعيش خادما . عمره زيدان ما دخل علينا بصابونة .

زيدان طول 0 عرض شنبات على طفل ، يشخط فيه يبل هدومه . حتى الكيلاني بدأ يقعد معاه . ركب الجحش حمارَ أسياهه . ودلدل رجليه . لن أقاسم بنت الكلب لقمة بعد اليوم . لن أخبز ، لن أطبخ إلا لزوجي . سأبني فرنا وكانونا . سأقتحم غرف التخزين .

- خراب بيوت يا بنت الناس .

- ما هي خرابانة ، خرابانة ، يا خوفي يا ولدي تطلع زي أبوك . لا تهش ، ولا تنش .

هكذا قالت زوجة زيدان العباسي .

[1]

يكبرها بخمسة وعشرين عاما ، شاب رأسه ، جفت عروقه ، لم يعد له من وُدّها نصيب .

لا تزال شابة ، زادها العز شبابا ، حتى لو أنها تغير ، الجاموسة السوداء . حين تُعَلَف بِحَمَرٍ جِلْدُهَا .. أولادها ، إخوتها . شغلته الأموال والأولاد ، ألهها التكاثر عن رجلها . لم تُقدِّم طعاما ولا شرابا ، حتى ثيابه التي كانت تتبرّك بشمّها .. بلمسها . تضعها على رأسها .. ، تُقبِّلها كما يقبل أيّ الله تاليها ، أغفلتها .. أهملتها تماما . لم تعد تنتظر خُرْجته .. أُوبَتْه .

[2]

تُخَبِّطُ فِي الظلام .. لم يعثر على نعليه ، ولا جلبابه .. لم تحرك ساكنا ، تظاهرت بالنّعاس . همس . لم تردّ . نام ليلته . لياليه في الدوار . لم تعلّق ، لم تسأل . لأول مرة يرسل في طلب شيء ، كانت تُقْعِي خلف الباب ، تبسط ذراعيها .. تناسته تماما .

- غبت عنكم .

- لم نشعر بغيبتك يا با الحاح .

- الفاتحة على روحي . (أنا) : المرحوم مَهْران العباسي .

[3]

في ركن مَرَكُون ، أَقْصَى يسار الداخل تربعت ، كأنها بلقيس على عرشها . يطوف بها كل داخل ، يودّعها كل خارج ، تحس نحوها مهابة ورزانة .. حبا وشكرًا وامتنانًا . تفتح ذراعيها ، تحتضن عددا من الكوانين .

على ظهرها ، عن يمينها ، وعن شِمالها تحلّق غلمان . تشعبط صبيان .. أم
رءوم توزّع ابتسامات الدفء والحنان .. محبّها مبتسم دوما . عيونها المكحولة
ترمقنا ، نتناوب وهج (شاروقتها) .

في بقايا جمرها دُسّت قَدَر الفول ، لُزّت مناويل العدس . في بلاطها قُمّر
عيش . سيدة الجميع ، أم لكل الناس .

على يمين بيت الفرن ، غرفة واسعة ، بيت مال العباسيين ، خزائن عيشهم ،
رُصّت فيها صوامع الدقيق ، زلّع السمن ، بلاليص الجبن والمشّ ، والعسل .
اعتادت فاطمة البرعي أن تدخل متى تشاء ، فهي سيدة البيت بعد صفية أبو
هدير .

- بنت الكيلاني ، نصف زوجة ، خارج غرفتها خادمة عندي ، لا تمد يدها
إلا بإذن منّي :

مدت سيدة البيت يدها ، لم يطاوعها مفتاح ، استعصى - باب . عاودت ..
كررت .

- ستي قفلت بالمفتاح .

- من ؟

- الست الكبيرة .

- أجننت يا امرأة أي كبيرة !!

- الست هنية .

لطمتها لكمة أطاحت بها .

قال الشيخ مهران : الست فاطمة البرعي العباسي ، وجدت الحجرة مقفلة ،
نحن لا نقفل غرف المعيشة ، نظام تعودنا عليه ، وأنت تعرفينه منذ جئت هذا
البيت .

- بلعت ريقها بأمتعاض .
 - الناس كثيرة داخله . طالعة .
 - كلهم خدمنا لا يسرقون ، يعيشون من خير هذا البيت .
 غمغمت : مُصِرٌّ على الإهانة .

ساعة نومه همست :
 تعبك وشقاك يا سيد الناس ، مال أولادك الصغار . الشريرة وبعيد ، الأعمار
 بيد الله ، طولة العمر لك . العدوي صاحبك مات فجأة ، والشيخ سيد مات في
 عز شبابه ، وأنا خائفة على عيالي من بعدي .
 هز رأسه ولم يعلّق .

أرسلت إلى بيت زيدان مئونة شهر دقيق ، وسمن ، وجبن وعسل .
 - كل واحد يطبخ في بيته ، لن أطعم أولادي مما يطعم منه أولادها ، ولن
 ينكشف أحد على طعامنا .
 غضب الحاج مهران غضبا خفيفاً .
 - ماذا فعلت ؟
 - هذه رغبتك يا سيدي . أنت تريد ذلك لكنك تستحي ، أنا لا أفعل شيئاً
 إلا بأمرك . ناس طماعين يقولون :
 - الحاج كبر لا نترك الخير للأطفال . لو حصلت حاجة . أمهم ستكوّش
 على كل شيء .

اقتحمت فاطمة البرعي الدار بعنف .
 - أين الخدامة بنت الخدامين !!

- الست الكبيرة في قصرها يا أم عطا

- قصرها !!

أبوها خلفها في الزريبة ، وأمها ولدتها على التربة .

تحركت الكيلانية ببطء بطيء .

- ما هذه الكلاب التي تنبح ؟

- الست أم عطا .

- هذا البيت ليس فيه إلا ست واحدة ، حرم الكبير ، أم البنين . الكل يعمل

بأكله ، وأكل عياله .

- اخرسي يا بنت الكلب .

أشارت هنية إلى الخدم : أخرجوا هذه الولية .

خلعت بنت البرعي شبيبها ، هجمت عليها ، حال الخدم بينهما ، حذفتها

بالشبيب .. شتمت ، لعنت ، بصقت . حاولت أن تتفكّ من أيدي الخدم . لم

تستطع . صرخت : المال مال أبونا والخدامين يطردونا . من الغد ستنامين في

الزريبة التي تربيت فيها . نسيت أصلك !!

قالت هنية :

- المال مال جدودي يا حرامية يا نصابين . جدكم (المعفن) كان خادما عند

الكيلاني الكبير .. مهران لم يتزوجني إلا بعد أن تأكد أني بنت أصول ، وأن نسبنا

يشرف جدود إلي خلفوكم .

مات الكيلاني الكبير ترك ذرية صغاراً ، أوصى بهم خادمه العباسي الذي

كوّش على كل شيء ، سأعيد المال لأصحابه الحقيقيين .

كلما أطفأ العباسي ناراً أوقدتها ، هذه نيران لا تنطفئ (كلما كبر عيالها اشتد جبروتها .. همست هنية : يوم الفصل آت ، لكن لن أبادر به ، سأضيق الخناق . ولكن لن أشد الخيط الأخير .

اجتز مهران كبرياءه ..

- تجاوزت المرأة كل الحدود . نسيت نفسها .. أهانت كل العباسيين . نشت القبور . فجرت ما في الصدور : صدور أهلها الحاسدين ، الحاقدين ، تتهم أسيادها بالسرقة والنصب ، لن أسمح لها بالتدخل في حياة مهران . لقد عصرت على نفسي مقطف ليمون . ولولا تدفق الصبيان ما أبقيت عليها .. لم تقل لي بنت الأصول " أفا " يوما .

أنا مهران العباسي الذي تُعنى له الجبّاه ، وتخضع لمشيئته رقاب الحكومة والأعيان ، وأئمة المساجد ، وقطاع المنافذ . لا يتصرّف أحد في ملكه دون أذني ، لا يضاجع رجل ولا امرأة دون علمي .

بنت الكلاف تفعل فعلتها أمام عيني ، هذا آخر عمرها ، وعمر أهلها ، لأشردن بهم من خلفهم . ومن أمامهم ، ومن على أيانهم .. وشائهم . سأعيدهم جواليس طين كما كانوا .. كرامة بنت عمي ، كرامة البلد كلها . فليأكل بعضنا بعضا . لكن لن أسمح لغريب يمس . الويل لكل الكلاب .

الليلة أم المِعارِك . فتح الفتوح ، أو قفل القفول . فتح مُبين . أو ترباس
متين . هزيمة الأبد . أو نصر الأمد ، نصر الدنيا والآخرة ، كلما ضعفتُ اشتد
وقوي . سلاح السُّهوكَة ، والبُكْبُكَة والنَّحوطَة ، والمسكنة والمذلة ، والكذب
والبهتان . لن يجدي نفعاً . مع هذا الجبار العنيد .

قوة المرأة بين فخذيهما ، وضعف الرجل كذلك . الخرطوم يتخرطم . والمسمار
يصدأ . لكن الرغبة لا تموت أبداً . صراع أبدي ، بين الرغبة والعجز ، فوق كل
ضعيف امرأة ، أمام كل ضعيف امرأة . لن أكون وراءه قط . سأجرّجُرّ تيسي- .
سأركب جحشي .

6 - حَلَّتْ ضَفَائِرِي

[1]

منذ أكثر من عام وعكائفي معكوفة ، وضفائري مضفورة ، فما حللت
ضفائري ، ولا فردت جدائلي ، ولا لبست غلائي ، فما شم الرجل عطرا ، ولا
استنشق بخورًا ، ولا وقع نظره إلا على سواد في سواد .. كلما همّ وجهت وجهي
شطر الحائط . نسيت أي امرأة ، وأنسيته أنه رجل .. صدى الحديد ، رُتق الفتيق
، خِيط المَخِيط .. خَصِيته قبل الأوان ، وبعد الأوان .
يزحف نحو السبعين . لا تزال به آثاره من شبق .

- سأنتزع من عمره أربعين عاما ، سأعيده قوالا فعّالا ضرابا . هذه ليلتي
وليلته ، وليلة أبنائي ، وأحفادي ، سيفُرق فيها كل أمر " النصر التام ، أو الموت
(الزكام) كما يقولون ، فيها حياتي ، فيها مماته ، فيها دنياي . فيها أخراه .. كل
شيء : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل . سأنتزع عن ابنة البرعي وزيداتها كل
شيء .. مستقبل أولادك وأحفادك على سريرك الليلة . ليلة خير من ألف شهر ،
أو شر من كل شهر .

[2]

الكبير لا يرفع صوته فوق صوت النساء . لا يجادلها أمام أحد إلا بالتي هي
أحسن ، في الخلوة مُتَسَع للعتاب .. للعقاب .

بعد أن نام الخدم تسلل إلى مخدعه .. هجرته في المضاجع منذ زمن .. ضوء
خافت . بخور زاعق . شد . استنشق . مديده . ارتفع الفتيل ، تراقصت
الأضواء .. تقطعت الظلماء . نظر نظرة في السرير ، عبس وبصر .. جحظت
عيناه . تمققت مقلته . تشدق شذقه . دبّت روح ، تدفقت دماء .. بعث المرحوم
من مرقدته . نظر في المرأة . اشتعل الرأس سواداً في سواد . فتى الفتيان يملأ المرايا
جمالاً وشباباً .

على الأريكة حور عين . كواعب أتراب لؤلؤ مشور . لحم طري يفور .
انتفخ المنفاخ . اعتلى عرشه .. افترش فرشته . تلطخت أرجل . ابتلت سيقان .

في الليلة التالية . ظلام في ظلام . جحر ضب خرب ، تسلل إلى غرفتها ..
تكوّمت . تكوّرت . سواد في سواد . حاول أن يتسلق رجل السرير .. أمسك
بالعمود النحاس . رفعت رجلها . سقطت على رأسه ترحلق . سقط .. لم تحرك
ساكناً .

في الصباح دلّلت رجلها . تألم .. للمته . نظر في المرأة .. مرايا .. عصفور
عجوز يرتعش . طفل يحتضن . جمل برك . عبد الجبار .. عبد الودود .. عبد ...
بنت الكلاف .

انكسرت النفس ، كأن الجبار حمل سفايحاً . كلما همت به تهرب . كأنه يخشى
على عذريته . تاه في حجرها . تلاشى في عينها ، ذاب فيها

7 - خُمُسٌ وَلَدِي

[1]

نُواصل البيل بالليل ، لا ندرى متى طلعت ومتى غربت ، لا نعرف أسَاءَ الأيام إلا يوم السوق ، يتكرمون علينا بعودين من قصب الزَّمر « حفتين بلح » تطلع الشمس في ظهورنا ، وتغيب في ظهورنا ، كأن لا مشرق لها ولا مغرب إلا قفا زيدان وعياله . نعيش بلقمتنا كأَي أجير ، نُساق للحقول كما تساق الأنعام .

- عمك لم يقصر معنا .

- يتصدَّق علينا !! يعطينا زكاة أموالنا .. كل الطعام .. والشراب ، والجلاليب والشيلان ، والمراكيب والعبايات ، حلال لأولاد مهران .. حرام على أولاد زيدان ، لا نأكل إلا مما يأكل منه الخدم : البتَّاء الناشف " عيش القضي " الذي تعافه كلابهم . كسوة الشتاء والصيف ، أمتار من الدَّمور ، وللنساء القَطْمان .. جلبابان لكل منا . نَقْلَب ونَعْدَل فيهما صيفا وشتاء . والله لن أصبر بعد اليوم على طعام واحد ، وجلباب واحد .

قالت الأم :

حذرتكم منذ سنوات فلم تسمعوا نُصحي . أخشى أن يكون مصيركم ، مصير جدكم البرعي فكلكم برابيع .

[2]

مهران لا ينام قبل أن يطمئن على غلامه ، ابن الكيلانية البكر ، . يتأمله كأن لم ير غلبانا قبل ذلك ، قُرّة عينه ، فَلِدّة كبده ، مُهْجَة قلبه ، كأنها رُزقه بعد عُقم ، وقد بَلَغ من الكبر عتيا ، كأنها استشعر أنه هو الذي سيرثه ، ويرث آل مهران . وزيدان . وكل العباسيين . احتضنه بالود والقرب ، آثره بالدلال والمال .

ظن الفتى أن المال ماله ، وحده لا شريك له . الجاه والسلطان . غره الغرور ،
كبره التكبر .

رأى عمه وأولاده يؤمرون ، فيسمعون ويطيعون .. يخضعون بالقول ، لا
يرفعون أصواتهم فوق صوت مهران . فأمر ونهى ، وعلا علوا كبيرا .

أشار بسبابته إلى عطا زيدان الواقف هناك .

- حضر الركوبة يا ...

لم ينطق باسم ابن عمه .. وكأنه صان لسانه عن ذكره .. كان بعطا زيدان
شمم واعتزاز ، وإيمان بدور أبيه في تأسيس هذا البيت ، ووعي بمصير البرعية ،
فلم يعره عينا ، ولا أذنا .

- حين أُشير إليك لا بد أن تسرع ، لا بد أن تُلبّي ، إن لم تفعل ما أمرك به ،
فسيكون لي معك ، ومع أبيك شأن آخر .

هبّ عطا واقفا اندفع نحوه ، شوح بقبضة كأنها جلمود صخر .

- إن لم تكف عن قلة الأدب فسأعلمك الأدب .

عاد عطا كاسف البال ، يشكو همه وحزنه لأبيه .

- يا أبت ألسنا أصحاب حق ، إن كنا أجراء ، فسأعمل عند أي أحد في
البلد بعيدا عن هذا الولد المتكبر . لم أعد أطيق ، لن أصبر بعد اليوم ، لن أنتظر
إحسانا من أحد وأنا صاحب أملاك ، لن أهذا إلا إذا ظهر الحق ، وبان
نصيبتنا . إذا كنا على حق فلماذا هذا الذل والهوان !!

بعد صلاة العشاء ، همس الشيخ أبو طالب صديق الشيخ مهران :

- لا يدوم إلا الحب والمعروف . كنا نحن وبني أبينا يدا واحدة ، فلما كثر الأولاد وكبروا ، بدأت الخلافات ، فتفرقنا عدة بيوت ، ولكن - والحمد لله - نحن الآن أشد حبا . حين وزّعنا الأرض تعازمنا ، كل يؤثر أخاه ، لم أحضر - القسمة ، كل من أراد شيئا يأخذه . لم يأخذ أحد إلا نصيبه . رفض البنات أن يأخذوا شيئا ، وصلتهم أنصبتهم إلى بيوتهن ، حتى المتزوجة في فرشوط .

قال مهران :

- أنتم متساوون في العمل ، وفي المكانة ، كما أن الأرض التي وزّعناها ، هي التي ورثوها عن والدكم . لم تتوسعوا كما توسعت أنا وولدي .

- عيالكم كبرت .

- من تقصد؟

- محمد وعطا .

- عطا حقوق وحاسد ، يرفض أن يكون كأبيه ، يريد أن يكون هو الكبير

، هو الشيخ . يكرهني ، ويكره أولادي .

- الشيخ زيدان قال :

- كل حي أولي بحقه .

باستغراب قال مهران :

- زيدان !!

واصل :

- ورثنا عن أبينا عشرة فدادين . من الغد سأتنازل له عن خمسة .

قال الشيخ أبو طالب :

خمسة فقط :

- بيت وبقرتين وجاموسة وجمل وحمارة .

- والباقي ؟

- تعبى وشقا ولدي كنا نتاجر .

همس أبو طالب :

- في مال البيت .

كان مهران من الشخصيات التي لا تراجع .

اشتات أولاد زيدان غضبا احتجز: عطا وعيسى عددا من المواشي ، وهددوا
بإشعال النيران في الجرون ، والشّون ، والزرع ، إن لم يأخذوا حقهم كاملا .

قال محمد مهران :

- لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا . نحن أكثر مالا ، وأقوى رجالا . سنطردهم

من البيت .. من البلد كلها .

همس أحمد مهران في أذن أبي طالب .

- أنت خالي ، وتعلم أنني لا أستطيع أن أعادي والدي ، ولا أرضى بظلم

عمي ، أنا لا أريد شيئا ، لا بد من رضا عمي .

قال الشيخ مهران :

- أنا لا أظلم أحدا ، كل الأوراق تشهد لي ، وكذلك أهل البلد ، اسألوا

أهالي البلاد المجاورة لا أحد يعرف من زيدان ، ولا من أولاده ، لو سألت عنهم

لقال الناس .

- هم الذين يعملون عند الشيخ مهران .

قال محمد مهران :

- لا قيمة لهم بدوننا يعيشون على حسننا . في حمايتنا .

قال مهران :

- أحمد أخي وليس ابني فقط ، هو شريك في كل شيء ، وقد ورث كثيرا عن أمه ، وبكده وعرقه ، وتجارتنا . اتسعت أراضينا . ليس لهذا إلا ما ورثناه عن أبينا . وأهل البلد شهود عما أقول .

لا يجب أهل بلدنا الجهر بالحق من القول .

قال عطا زيدان :

- الموت أحب إلينا مما نسمع ، لن نترك شيئا إلا برغبتنا ..
وجد المتفاوضون في الجملة الأخيرة حلا .

قال أبو طالب :

- لن يتم شيء إلا برضاكم ، ورغبتكم في الصلح مع بني عمكم ،
والطمع في كرمكم وشهامتكم وكرهكم الظلم . ظلم ابن عمكم الكبير الذي
رَبَّاكم .

- قال عطا : إن كان له دون غيره ويكتب باسمه لا ينال منه المتكبرون شيئا .

فسننظر في الأمر .

بعد جدال وتحاور استمر شهوْرًا أعلن الشيخ أبو طالب :

- اتفق الطرفان على أن يكون للشيخ مهران الخمسان في كل شيء ،
وكذلك الخمسان للشيخ زيدان ، والخمس يسجل باسم أحمد مهران الابن
الأكبر لأنه شارهما في كل شيء ، فهو أخ لهما بما قدم . وبهذا جرى العرف ..

صرخ عطا :

- لا تقبل يا والدي . هذا ظلم تكتب فداننا ، فدانين لأحمد . لكن الخمس كثير جدًا .
- ليس لدي حل آخر يا ولدي ، حصّن نفسه بالعقود ، وشهادة الشهود ، حتي الورث كتبه باسمه .
- تتمم عطا زيدان :
- البرعي لم يمت ، سيظل يُطل برأسه من جيل لآخر .

ظل الكره والحقد والشحناء والبغضاء ، في نفوس الأبناء ، جراحا لا تندمل .

بعد صلاة العصر ، وسط الدّوار الكبير ، جلس الشيخ مهران ، توافد أصحاب المظالم .

- اذهبوا إلى الشيخ أحمد

- لا يعود من الغيط إلا مساء . وقد حوّلنا للشيخ محمد .

حل الشيخ محمد محل والده ، ازداد المرض ، لم يعد الشيخ مهران يخرج إلا نادراً ، أحس بدنو الأجل جمع أولاده .

- لا تدعوا المشيخة تُسرق منكم ، هناك من يترّص بكم ، يتطلّع إليها .

لقد كبرت ، واشتد بي المرض ، ولم أعد قادراً على تحمّل الأعباء ، لقد تركت فيكم ما يجعل الناس يتمسكون بكم . سمعة طيبة ، ذكر حسن ، شرف لأولاكم ، عز لأخراكم .

فالسمعة الطيبة كنز لا يفنى ، لقد كنت مسموعاً في كل البلاد ، لا يتم صلح إلا على يدي . هناك معارك مشهورة بين القبائل لم تستطع الحكومة فضّها ، بعون الله كان حلها على يد والدكم .

في أي مكان قل إنك ابن مهران العباسي . لا يسألك أحد بعدها عن شيء .
لقد تركت لكم من المال ما يقوّى قلوبكم ، ويشد ظهوركم ، ويفتح عقولكم ، ويحفظ كرامتكم ، إن الفقير لا كلمة له ولا كرامة . ولا حسب ولا نسب ولا شرف . احرصوا عليه ، وأكثروا منه ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، كل الأبواب موجودة . المفتوح منها ادخلوه ، والمغلق افتحوه ، كل الطرق مشروعة ، السهل منها اسلكوه ، والصعب سهّلوه . لا سند للرجل إلا ماله وذراعه . .

اعطوا المحرومين من أهلكم بقدر ، لا تحرموهم فيحقدوا عليكم ، ولا تشبعوهم فيستغنوا عنكم . لا تتركوهم يزحفون على بطونهم ، ولا تجعلوهم يقفون على أرجلهم .

عليكم باحترام كبيركم ، وتوقيره وتعظيمه أمام الناس . ربّوا أولادكم على ذلك ، فإن أظهرتم احترامه ، تبعكم الناس ، إنكم إن عصيتم كبيركم لن يكون لكم كبير ولا صغير ، إن الكبير إذا عصاه أهله ، شلّت يده ، فلا يهابه أحد ، وإذا ضاع ضعتم ، عاملوا أقرباءكم بحذر لا ترى أحدا يكرهك كما يكرهك الأهل والأقارب . يتظاهرون بالود والقرب والنصح . وفي أقوالهم تسرى الوقعة بينكم كما يسري السم . إن الحقد يغلي في القلوب .. لا يطفئه إلا المزيد من الحقد والحسد .

احذروا بني فلان ، وبني فلان ، فقد توارثوا كرهكم ، وأرضعوه أطفالهم ، فشبوا عليه ... فلا تأمنوا لهم أبداً . إنهم يقتاتون كرهكم ، ويشربون بغضكم . إن كثيرا ممن يعيشون في خيركم ، لا يشفي صدورهم إلا موتكم . لقد تركت لكم مالا وفيرا ، وجاها عظيما ، وتاريخا حافلا بالمواقف المشرفة ، لقد كنت حَكَمًا في كل مشاكل الزمام ، لمدة خمسين عاما . ما استعصى- عليّ مشكل قط .

اختاروا من بينكم أشجعكم ، وأكثركم قدرة على حل المشاكل ، وأجراًكم على الحق والباطل . يحق الحق متى شاء ، ويعطّله متى شاء ... تظاهروا بالبر والتقوى والإحسان ، ولا تنسوا الظلم والبغي والبطش . لاتسعوا إلى محبة الناس ، بل إلى طمعهم في عطاياكم ، وخوفهم من جبروتكم ... «فالناس يدعون ربهم خوف وطمعا والخوف» مقدم على ما عداه .

[2]

- استولى الرجل على كل شيء .
- لديه أموال يخفيها لا يعرفها أحد .
- عشرة فدادين شراهم من الحصابة ، يدعى أنهم إيجار .
- له شراكة على عدة بهائم .. وها هو يُعد ابنه للمشيخة ، ظنها فداناً ورثه لابنه ، سأقلب على رؤوسهم كل الدنيا ، أحمد لا مطمع له فيها ، محمود بغل ، والباقون أطفال . لم يبق إلا هذا المغرور ، إن لم أكن شيخاً ، فلن أتركها له حتى لو راحت لشرقاوي أو شاهين ، أو العوضي نفسه .
- أنا عطا زيدان .

لم تعد الحياة العباسية تتسع لهما معا ، تقارع السبعان ، تناطح الفحلان ..

مات الشيخ مهران ، لحق به الشيخ زيدان ، ثم عيسى ابن زيدان .

قال عطا:

- كان أبي يمنعي منه ، أما اليوم ، فلا راد لحكمي .. سأزوج على أختهم .

[3]

- فعلها الكلب ، بنات الشيخ مهران ، لا يُطلقن . يظن أنه يستقوي علينا بنسايه الجدد الشرقاوية . لأضربه ضربة تطيح به .. من الغد سأقضم ظهره .
- في منتصف الليل ، رَزَع محمود مهران بيده ، بخف الحمل ، بوابة الزيدانية ، جفلت الحيوانات .

كان عبسى زيدان شقيق عطا متزوجا من ابنة عمه الصغرى.

- مات أخوك عيسى : ولن تبیت أختنا في بیتكم ليلة واحدة . هي وأولادها، وكل ما لهم

- نصف التركة سُحب من تحت أقدام عطا زيدان .

بعد سنتين عين محمد مهران شيخا للبلد

استمرت الجراح تنزف .

9- الخالق الناطق

[1]

أعطاه الله بسطة في الطول والعرض ، ووسامة في الوجه ، وجمالا في العينين :
حواجب غزيرة ، رموش طويلة ، إذا قامت أو قعدت قام لها القلب وقعد .
يمشي طاووسا ، شاخصا بصره ، كأنه يرعى النجوم ، يسير كتلة واحدة ، لا
يحرك ذراعا ، لا يطوح كُما .. ينقل رجله نقلا . يفرشهما على الأرض فرشا . فلا
تحس لهما وقعا .

[2]

قبل أن يدخلها العيش ، دخلها الطيش .. بشرة صافية في لون حبات القمح
البلدي ، في وجه محكم الاستدارة ، أنف قصير ممتلى ، تحتها شفتان يسيل لهما
لعاب مولانا ، وأسنان يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار ، كلماتها محكمة الإيقاع ،
عذبة الوقع . قال الشيخ القناوي :

- صوت هذه الفتاة يوجب العسل .

كل عضو فيها يرقص .. يتراقص ، يهتف ، يصرخ ، ينادي ، يستغيث .
أدرك أهلها إغراءها ، زوجها ابن عمها ، لم تكن لها إرادة ، كان قصيرا
دميا ، يعمل أجيرا عند أولاد مهران . من شقاء الشقاء ضربه النعاس ، نام تحت
أرجل البقر حتى الصباح .
بخفة خفيفة أغلق محمد مهران باب الحوش . في ظلمة الليل ، تشمم طريقه
كالنمر .

تسلَّق الجدار القصير . ارتمت زينب المحمودية في حضنه ، غسلت دموعها خديه وشفتيه . بللت نحره ، ضغطت ضغطة أَنْتَ لها ضلوعه ، كادت تلتهم كل شيء ، التفت حوله كأنها طوقته كُبْرَى ، شفته شفتا ، قبضت قبضا ... ظن ألا فكاك .

[3]

- كل ليلة تنامها في الحوش يا سيد تأخذ عليها أجرة أخرى .
واظب السيد .. داوم . استغرق في النوم

تحسّست صدره ، دلكتُ جسده . وحشتني يا (سيد) . لا تتركني وحدي .
لا أستطيع النوم بدونك ، احتضنته .. ضمته قبلته . جذبته . هتفت : أحبك يا
سيد . أنت أحسن من كل أولاد مهران ، أنت رجُلِي . سبعي . أنا همارتك . أنت
جحشي يا سيد .

جذبتَه من ياقته . خر ساجداً . ارتطمت جبهته بسرّتها . رافعة رفعته من
قفاه . علقتَه في الهواء . رَفَسَ برجليه رفرف بجناحيه . انتزع من جلبابه . انسلخ
من إهابه . طار فوق السور . اندفس في كومة رمال .. حُفَّ بعير حطم أنفه .
- قلت لك لا تغادر الحوش .

استيقظ مذعورا . جذب الباب لم ينجذب ، على يديه ورجليه حبا . شارف
الجانب الغربي . أدلى رجليه .. اندلق على أكوام السباخ نفّض جلبابه ، حدّق ،
ابتسم وهو يعدو ، عدو قطة تفلّنت من شباكها .. طائر فَلََّت من الفخ ..
طرق الباب عدة مرات حاول أن يتسلق السور القصير . سقط ، زحزح
ججراً يصعد عليه فلم يتزحزح ، دار حول السور ، شبح هناك ، غاب في
الفضاء .

[4]

تكاد تتقايأ كلما اقترب منها ... تعذّرت الأعذار ، نحن في أول الشهر يا ابن عمي . أسبوع واحد فقط .

- أحسستُ أن لصا يطوف حول البيت .

- لا نملك إلا الجلاية التي نلبسها . فهل ينزع عنا لباسنا !!

- لن أبيت خارج البيت بعد اليوم .

في ظلمة ليل شتاء بهيم ، انطوى كل شيء ، أنّت الكلاب من الصّقيع ، زامت زؤما ، انكمشت الحيات ، خلت الحياة من الحياة ، تسللت زينب المحمودية .

كان باب الحوش مواربا . مرقت ، تلقّفها بين يديه ، على أكوام التبن سبحا ، تقلّبا . تزحلقا . قُبيل الفجر أسقطها من فوق حائطها .

[5]

- الولد شبهك يا سيد (الخالق الناطق) عيونه مناخيره ، شعره .

شبّ محمد بن المحمودية ، لم يكن أحد يفرق بينهما إلا بما يلبسون .

مات سيد المحمودي وهو يقول :

- يخلق من الشبه أربعين . الخالق الناطق .

قال أحد الخنثاء .

طول عمره سيد المحمودي يعمل عندهم . يقولون إن سيد توخّم على

(محمد مهران) فجاء الولد كأنه هو

- والولد الثاني !!!

10 - تحت قدميها

[1]

قال الشيخ مسعود البرغوثي لولده حسان العمدة :
- عليك بالمثل القائل . حراميتها حاميها . استعن بعبد الجبار السومالي .
استدعى حسان عبد الجبار .
- كثرت الحوادث . ونشطت الحكومة . وستستعين بالهجانة . يقتحمون
البيوت . يهينون النسوان ، كما حدث لزوجة محمد الكومي .
قال عبد الجبار :

سبع ابن سبع ، رد عليهم ردا قاسيا . لا يستطيع أحد أن يفعله .
قال العمدة حسان :
لن تسمح الحكومة بتكرار ما حدث .

[2]

كان الكومي قد هاجم دورية واستولى على سلاحها واختفى في مزارع
القصب . لكنه لم ينقطع عن زيارة أهله ..

[3]

حاصرت الشرطة الكوم . داهموا البيوت . خلطوا السمن بالمش ، والدقيق
بالتراب . أشعلوا النيران ، لكثرة اللهب في الكوم . سمّاه الناس ، " الكوم
الأحمر " .
انتزع أهل الكوم النساء من أيدي الشرطة . لن تنسى الحكومة هذا اليوم ،
ولا يستطيع أحد أن يفعله إلا رجال الكوم :

مع أول رَزْعة على الباب ذاب الكومي في غَيابة الحب . سُحب الغطاء
المطّين . رَصّت الباليليص . زحف على بطنه ... تنفّس على مشارف المزارع .

[4]

لا بد أن يسلم نفسه :
قال الشيخ عبد الله عمدة الكوم : اتفقت معه على ذلك ، لكن الأمر اختلف
بعد الاعتداء على النسوان . غدا سأقابل المأمور .

[5]

انخرطت في بكاء شديد .
- ليست هذه أول مرة يا بنت عمي ، ولن تكون الأخيرة .
- لم يحدث كما حدث هذه المرة .
- هل ضربك أحد ؟
- يا ليته كان ضربا !!
شدها .
- قولي بالتفصيل .
أشارت إلى أسفل بطنها . وقالت :
- غرّز الضابط أصابعه هنا وقال :
- إذا كان زوجك لا يأتي . فمن أبو هذا ؟ ماذا فعلت في غيبة الرجل !!

كان الصاغ كمال الجهري فظا غليظاً تَلَقَّى به الداخلية في البؤر المشتعلة
أقسم :
- لألبسن الجميع طرحا ، لن يبقى في (قنا) خارج عن القانون ، ولا داخل .

حدّره المأمور :

- هذه المنطقة ليست كغيرها . منطقة قبائل ، إياك والتعرض لحريمهم . كل الرجال هنا مسئولون عن كل النساء ، كرامة أي امرأة كرامة القبائل كلها ، اللصوصية هنا فتونة ، ليس في المنطقة حرامي فقير .. وجاهة اجتماعية . الفقير لا يستطيع أن يسرق دجاجة .

[6]

خرج محمد الكومي وهو يتمتم يعرك نابيه ، كأنه جمل هائج .
- إهانة حقيرة ، لو انطبقت لها الجبال السبع ، والبحار السبع ، والسموات السبع ، والأرضين السبع ، والقبائل السّبع . ما شفيت نفسي .

تربّص به ما تربّص ، قعد له كل مقعد ، كل مرّصد ... استشعر الضابط الخطر .

قال المأمور :

لا تغادر المركز قبل أن تهدأ الأحوال : لن يسكت الكومي .
- ماذا يفعل رجل واحد أمام قوة الشرطة ؟
- كل القبائل : سماعنة ، وشيشات ، قليعات . هواره ، كلهم كومي .
نحسبهم شتى ، لكنهم في الملمات رجل واحد ، قلب واحد . قد تثار منك امرأة ... عمدة . خفير .. عسكري منهم .
علينا أن نحذر غَضْبة القبائل . لولا جهود العمدة لاخترق كل شيء .
أقسم الكومي :
ليستردن شرفه بيده أو يموت .

لا يمكن نقلك إلا بعد تسوية الموضوع .

قال الجهري :

- قُتِّشُوا كل داخل ، كل خارج ، أوقفوا العمل ، غلِّقُوا أبواب المركز .
خذوا حِذْرَكُمْ ، راقبوا ، انفروا جميعا ؛ خفافا وثقالا .

[7]

اجتمع وفد من عمد القبائل عند مدير المديرية .

قال السمعوني :

- سعادة الباشا تعيش بينا منذ سنوات ، وتعرف عادات القبائل التي لا
يستطيع أحد أن يتجاهلها ، هي القانون الذي يحكمنا .

- الحكومة هي التي تحكم يا عمدة

قال علي أبو سليم الوشيبي :

- هذا ما فعلته حكومتكم بالنساء .

- فعلنا ما فعلنا لحفظ الأمن . ولولا الحكومة ما عشتُم آمنين .

- قال الشيخ القليعي :

- نحن آمنون برجالنا وقبائلنا .

- قال السمعوني :

- نحن حفظة الأمن . أمن الناس ، وأمن الحكومة ، وإن لم تقرّوا بذلك

فهذه استقالتنا جميعا .

قاموا قومة رجل واحد .

بلغ الأمر منتهاه . إذا لم يتصّرف المدير ، فلن يبيت العمد إلا في مصر- ، هب

المدير واقفا وبكل جدية وغضب لوح يديه :

- أتهددني يا رجل يا عجوز؟ والله لأصدرن عليك حكماً . يجعلك تتوب عن الكلام .
- افعل ما تشاء
- حكمت المحكمة بتغريم الشيخ السمعوني غداء لكل الموجودين ومن يدعون . يوم الجمعة القادم . وكل من يتكلم يلقي نفس المصير .
- قال الشيخ درويش أبو اليزيد .
- على الطلاق ما أنا فاتح خشمي ولا ناطق حتى بالشهادتين

[8]

- في المركز قال المأمور للضابط الجهري :
- لا تغادر المركز الموقف صعب .. لا أحد يعرف من العدو المتربّص؟
 - كل الناس يعادون الجهري .
 - هروبه لا يفيد . الناس يعادون الحكومة نفسها.
 - قال المأمور :
 - المدير سيحل المشكلة بعد أيام .

لم يقبض على الكومي . لا أحد من الحكومة يعرف شكله ، يتنقل بين الناس ، في كل الواجبات . أبو عبد الله البحراوي ، يعرف كل الحكومة دخل المركز عدة مرات .

[9]

على حافة النيل بناء من طابقين يحيط به سور . كان ملكا للبطارسة .. ترامت الحدائق ، والكروم حدائق غُلْبا ، أشجار سامقات ، نخيل باسقات ،

كَرَعَتْ جذورها في مياه النيل ، رَضَعَتْ زَبَدَهُ . رَشَفَتْ حَلْبَهُ ، غَطَتْ ظِلَالَهَا
الأَرْضَ ، حَجَبَتْ أَغْصَانَهَا الْقَمَرُ وَالنَّجُومَ بِالْعَشِيِّ- ، وَالشَّمْسَ وَالضُّوءَ
بِالْأَبْكَارِ .

عَبْرَ الْكُومِيِّ تَرَعَةَ الْفُؤَادِيَةِ سَبَحَا ، زَحَفَ عَلَى بَطْنِهِ ، طَرَقَ بَابَا صَغِيرَا
مَهْجُورَا ، غَطَّتْهُ الْأَشْجَارُ ، سَدَّتْهُ الْأَغْصَانُ ، لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ أَنَّهُ بَابٌ .
- تَنْصَتِ الْخَفِيرُ أَلْصَقَ أُذُنَهُ . أَطَالَ التَّنَصُّتَ .

من ؟

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ .

من طُولِ الْهَجَرِ ، وَالتَّرْكِ ، تُتْرَبَسُ التَّرْبَاسُ ، ظَلَّ السَّيِّدُ يَعَالِجُهُ فِتْرَةً .
جِئْتُكَ .

لَا تَقُلْ شَيْئًا . سَمِعْتَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَوْلَا غَضَبُكَ ، لَانْتَقَمْتَ لَكَ .

سَيِّدُ السَّمْعُودِيِّ صَدِيقٌ قَدِيمٌ ، بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا الْأَيَّامُ . يَقُومُ سَيِّدٌ وَأَسْرَتُهُ عَلَى
خِدْمَةِ هَذِهِ الْحَدَائِقِ ، لَا أَحَدٌ يَدْخُلُهَا غَيْرَهُمْ .

لِبَاسٌ طَوِيلٌ ، صَدِيرِي ، مَنْدِيلٌ مَحْلَاوِي ، مَقْطُفٌ ، فَأَسُ .

عَزَقٌ ، قَلَمٌ ، شَذَبٌ . طَلَعَ نَخِيلًا . تَسْلَقُ شَجَرًا . رَاقِبٌ كُلَّ شَقٍّ . كُلُّ سَمٍّ
خِيَاطٌ . اخْتَبَرَ كُلَّ فَرْعٍ ..

التَّصَقُّ بِهِ احْتَضَنَهُ .. آخِرُ أَمَلٍ . بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْتِ أُمْتَارٌ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ
لِحَظَاتٌ . التَّفَفَ ، زَحَفَ كَالثَّعْبَانِ ، لَامَسَتْ يَدُهُ أَطْرَافَ الْفَرْعِ الْقَرِيبِ ، مِنْ

السطح شد جزعه ، مط صُلبه طالت يده ، كأنها مَطَّنًا مطًا ، لم يعد في جسده إلا أعصاب في أعصاب . على السطح حطّ كأنه ريشة :

في عز صلاة الجمعة والمركز خال تمامًا ، مشغول بركب المدير المعزوم . ضربة واحدة سقط الجّهري . شد وثاقه ، كمم فاه . استلّ الكومي خنجرًا ، كان جزارا ماهرًا "من منكبه جزّ الذراع . كأنها فكها فكا . قبل أن تفيق الشرطة . قبل أن يمدّ المدير أصابعه إلى ذراع الخروف . كانت الأصابع التي لامست بطنها تحت قدميها .

11 - حسان البرغوتي

[1]

قال العمدة حسان : ستضاعف الحكومة عدد الخفراء والمشايخ ، سأعينكم جميعا . وأضمنكم عند الحكومة والأهالي . تزرعون ، ثم تسددون . اقترضوا . استلفوا . اشترؤا . باعوا .. لم يوفّوا بها عاهدوا عليه الرجل . تراكمت الديون ، تناقلت الهموم . دبّت الشيخوخة ، زحفت الأمراض ، لم يعد العمدة (حسان) قادراً على السداد والوفاء . وحُكّم العباد ، فترّت همّته . تراخت قبضته . قبع في بيته .

[2]

كان عبد الجبار السوامي شيخ منسّر- ، يفرض الإناءات على كل الناس . ويرى أن ذلك شرع الله .
- لماذا تأخذ الحكومة المال من الناس يا مولانا ؟
قال الشيخ برغوت : لحمايتهم ، وحفظ الأمن .
- هذا ما نفعله يا مولانا . نحمي الناس من اللصوص ، ونحمي اللصوص من الحكومة . ألا استحق أجراً يا مولانا ؟ لم يرد الشيخ . واصل عبد الجبار :
لماذا تأخذ أنت أجراً على الصلاة والدعاء والقرآن ، هو القرآن بتاع أبوك .
لتبيعه للناس ؟
- أنا أحميهم من عذاب الآخرة .
- وأنا أحميهم من عذاب الدنيا : عذاب الحرّامة ، والحكومة . أيهما لا يرحم يا مولانا ؟
- ربك غفور رحيم .

- من غير دعاك يا مولانا ، والحكومة ، لا غفور ولا رحوم . أنا لا أسرق شيئاً من الغلبة . أسترّد شيئاً مما يسرقه منهم مشايخ البلد ، والأعيان .
- رفع الظلم عن الناس ، جهاد في سبيل الله يا شيخ عبد الجبار . تستحق عنه ثواب الآخرة .
- فقط ؟
- والدنيا .

- المشايخ ، والأعيان ، لديهم أموال وأطيان ، لا يحتاجون إلا لأنفار يعملون في زراعتهم . ونحن نوّقر لهم ما يحتاجون بأجر ، أو بالمجان .
- لقد ضيق العمدة عليكم . وهو الآن عاجز .. والمشايخ لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً إلا بكم .. لا ترسلوا إليهم شكوى واحدة . سارعوا إلى أرزاقكم قبل أن يُعيّن العمدة الجديد . أولاد حسان لا يصلحون لها . العين على شيخ النجع القبلي ، وسيعين أهله . قال عبد العاطي أبو عفاريت : لا غنى لأحد عنا . ولا يمكن أن يحكم بدوننا .
- سيعين عبد الودود أبو البط شيخا . وهو رجل قوي .
- إن كان هو عبد الودود . فأنا عبد الجبار . ويل له .
- والشيخ خليل مهران ؟
- بتاع موالد وغوازي :
- من الآن ، قبل أن يُعيّن العمدة الجديد ، أنتم العمد ، والمشايخ ، والحكومة . إذا لم تستغلوا هذه الأيام . فلن تنالوا شيئاً بعد ذلك . إما أن تُصبحوا من الأعيان ، أو تظلوا خدما : (غفراً وحرامية) . العسكري الذي يدخل البلد لا يعرف أحداً غري . يوم السوق أرسلوا تسويقة كل الموظفين . الشيخ عبد الجبار يسلم عليك . إذا لم تقلها ، فلن يقبل منك شيئاً .

- عدددهم كثير يا عمدة .

لأول مرة يسمعها . سرح قليلا . غاب .. حصان مُطَهَّم ، .. عليه سرجه
ولجامه ، كتيبة ترْكُض عز الحر . حفاة .. عراة . حسان وأولاده وزوجاته ، محمد
مهران ، خليل مهران . شاهين ، الشرقاوي .. عمد ، أعيان ، أمام باب المركز
اصطف الحرس . دَوَّى النداء .. تنبه . واصل :

لا تظلموا أحدا خذوا أقل القليل . عن كل بهيمة عشرة قروش . من كل
عشر بيضات بيضة . كل قفص فرخة . ولا تنسوا الفواكه ، والخضراوات ،
وعلف الماشية .. ولا يظلم ربك أحدا كما يقول الشيخ برغوت .. نحن نأخذ
الزكاة فقط .

12 - اختتامكم

-1-

تطلّع إليها الشهيانة ، والعدوي ، وبقايا أولاد علي ، والبرغوتي .
- لا نقبل (علي شاهين) ، لتكبرّه وتطاوله ، فما بالكم لو صار عمدة .
والعدوي شرقاوي من بعيد . وبينهم وبين الشهيانة دماء لا تجف . ولن يَرْضَى
الناس بأحد من أولاد شعبان أبو علي الذين ساموا الناس سوء العذاب ،
وأنواعا من الذل ، وألوانا من الهوان . والبراغيت قد حكمونا سنوات طويلة
تركوا البلاد . في أواخر أيامهم للأقارب واللصوص ، كما أنهم من نجع صغير ،
لا يصح أن يحكم هذا البلد الكبير . فلن تخرج العمدية هذه المرة من بلدكم
هذا .

هكذا تحدث الشيخ أبو طالب الذي تجاوز الثمانين ، قضى عمره شيخا من
مشايخ البلد ، عمل مع شعبان وحسان ، يجتمع إليه الناس يسمعون
ويتدارسون .

-2-

رُضّت الدكك ، توافد الناس ، قال الشيخ أبو طالب :
- خلت العمدية ، وهناك أكثر من واحد منكم يصلح لها ، نريد أن نتفق ،
إن أمكن :
لم يرد أحد .

قال شاهين الشاهين :

- العدوي رجل مُحْتَصِر- ، لا يعرفه أحد ، وأبو علي كلكم ترفضونه ،
والبراغيت شبعوا عمدية . ومحمد مهران لا يملك النصاب .
قال الشيخ أبو طالب :

- الحكومة تفضل أن يكون شيخا له خبرة ، شابا يتحمل المشاكل التي تركها حسان .

قال شاهين :

- وأن يكون وراءه رجال يساندونه .

- قال أبو طالب : كلنا رجال العمدة .

- قال الشيخ أحمد مهران .

- العمدة تسانده الحكومة .

قال شاهين :

- فلتكلم بصراحة ولا تغضب يا شيخ أحمد ، على قد لحافك مد رجلك .

- ماذا تقصد يا شيخ شاهين ؟

- كفاية عليكم المشيخة .

- والدي كان شيخ الشيوخ

قال الشيخ أبو طالب :

- وجدك أبو هدير حكم الزمام كله .

قال الشيخ شاهين :

- أخوك لا يملك النصاب . لا أحد في البلد كلها يملك ما نملك ، مالا

ورجالا ، ولن تذهب إلى بيت آخر بعد ذلك ، استأذن من استأذن . غمز أبو طالب لأحمد مهران .

- اذهب الآن ومر على غدا ، صباحا :

- هذا الأحق المطاع ، أهاننا جميعا ، لم نرد مراعاة حرمة البيت ، وحرمة خالي

الشيخ أبو طالب .

- وأنا لا أستطيع أن أرد وهو في بيتي ، وحسنا فعل الجميع ، فلم يرد عليه أحد . أنا أعرف رغبة الناس في النجعين ، حتى العمدة حسان قال لي : لا يصلح لها إلا محمد مهران ، لا آمن على أولادي إلا معه . ولكن كيف ؟ أريد أن آخذ رأيك في أمر فكرت فيه طويلا . هل من الممكن أن نتنازل له عن أرضنا ؟

- فكرت في ذلك ولم أفتحك فيه . استشر إخوتك . وتوكل على الله . في سرية تامة . جمع إخوته ، قص عليهم الأمر . صنع لهم أختاناً ، في بضع شهور نقلت ملكية أرض أولاد مهران كلها باسم محمد مهران العباسي .

[3]

المال والعيال زينة الحياة الدنيا والآخرة . عليكم بالتّملك . أموالا ورجالا . اصطنعوا قرابات تزوجوا من كل العائلات . النسب سنّد .. المصاهرة مدد . أولادنا ، أهلنا ، أولاد بناتنا أولادنا ، في كل بيت .. بنت .. ولد .. حفيد .. القرش رسولكم إلى الناس أجمعين .. النّبوت عزرائيلكم إلى كل الناس . تعلموا متى يكون المد . ومتى يكون التوقف . لا تعرف أرجلكم أو نبايتكم ولا أقوالكم ولا أفعالكم التراجع أبداً .

ميلوا ميلة رجل واحد . اجعلوا وقائعكم مشهورة . أوقعوا الرعب في القلوب والنفوس . اجعلوا ضربتكم ضربة واحدة . إياكم وسفك الدماء . افعلوا كل شيء . ولا يشعرنّ بكم أحد ، كل الناس حبايب وأصدقاء . كل

الناس خصوم وأعداء .. المال هو الشرف والأصل والحسب والنسب ، استلوه
من جيوب الناس . استَحْلَبُوا من أفواههم الزادَ والماء .
الطين : هو العز والسلطان . انتزعوه من تحت الأقدام : اطعموا الجائع ..
جوعوا القانع ، اغنوا الفقير . افقروا الغني .. إياكم وشر نفوسكم وفتنة
أموالكم وأولادكم ونسائكم . هذا ما خَرَّبَ ديار أولاد حسان ، وسلطان ..
حين بغى بعض الإخوة على بعض فكان من أمرهم ما كان .
هكذا أوصى مهران العباسي بنيه قبل أن يموت .

[1]

-القبائل تتوافد على النجمي . لإعلان تأييدها للوفد في أول انتخابات بعد الثورة . وقد ذهبت وفود لمقابلة مكرم باشا " في قنا " ، وفخري باشا . عبد النور في جرجا .

- طول عمرهم بأتون إلينا حتى الإنجليز .

- الوضع تغير . لم يبق إلا وفد السماعنة .

- ظروفنا كما ترى . والمشوار طويل ، شكل وفدا ، واذهب به نيابة عني ،

ومعك ولدي علام . هكذا قال الشيخ حسان مسعود .

[2]

-حصانان فقط أنا وابن مهران . برّدعوا الحمير . نظفوا المراكيب ، اغسلوا

العمائم ، لا يضع أحد منكم جلابية على كتفه . تأكدوا أن الجلابيب والمراكيب مقاسكم . هكذا أمر عبد المجيد السمعوني .

[3]

- أعوام من حكم البلاد كلها ، جدي ووالدي ، وأنا ، وقد يستمر حتى

أحفاد الأحفاد . لم يبق أحد غيره ، لا يقضي- السماعنة أمراً دونه ، حتى بقية القبائل تبدأ من حسان وتنتهي عنده .

شاب رأسه ، وهنّ عظمه .. قلّ ماله ، وفيه بقية ، لا أحد يتخطاه . انتزعنا

بلدنا منه انتزاعا .

هكذا حدث عبد المجيد السمعوني نفسه . ثم همس في أذن الشيخ محمد

مهران .

- بدأ الشيخ حامد النجمي نائب المركز جولته، وسيزور البلاد، وسينزل على الشيخ حسان، وهو لا يطيقه. لكنه لا يجد غيره علينا بزيارته قبل أن يأتي إليه.

قال محمد مهران :

- لا بد من عرض الأمر عليه. فهو لا يزال عمدة البلاد.

امتعض السمعوني ولم يعلق.

سال طريق الحاجر بأمواج الرجال، والحمير والجحوش والجمال. يتقدمه عبد المجيد السمعوني، ومحمد مهران. والنخيل تتقّصع، وأوراق الأشجار تصفق، وعيدان القصب تتمايل، ومياه الترع تنساب شمالاً مع أنغام الناي المنبعثة من فوق ظهور الجمال. وعزف الربابة، وزمر المزمار، تشق عنان قبائل: الوشيشات، والقليعات، وهوارة. والهاثفات ترج القرى رجاً.

- منين يا ولد؟

- سمعوني يا بيه.

في وسط ساحات النّجمي توقف الراكب الكبير. تفرس الوجوه، تأمل الرجال، تأكد أن حساناً ليس موجوداً.

- هلّل. رحب، هشّ، بشّ.

وجوه جديدة إليه ناظرة، لا يعرف منها إلا عبد المجيد الذي قدم إليه الشيخ الجديد محمد مهران، هز رأسه وقال: عَيَّنْتَهُ ولم أَرَهُ.

في بضع ساعات كانت الصواني والطبالي قد غطت الساحة الكبيرة . حين هم القوم قال محمد مهران .

- يشرفنا أن تشرّفوا بيتنا المتواضع يا باشا

وجد النجمي فيها فرصته لإغاظه الشيخ حسان أبو مسعود .

- الأسبوع القادم إن شاء الله . سلم لنا على الشيخ حسان .

- كل الناس تقول حامد بيه ، لأول مرة أسمعها . حامد باشا النجمي فال حسن يا ابن مهران .

[3]

قبل أن يدخل قريته حكى له كل شيء

- وأنا عزمته نيابة عنك .

ابتسم الشيخ حسان تتم .

- الظاهر أنه سيقوم بكل شيء نيابة عني ، يا خوفي أن يخلف لي ولدا نيابة

عني . قال الشيخ :

- موكب النجمي لا يصل قبل صلاة الظهر . وهو موكب كبير ، وعليك

بدعوة أعيان القبائل ، وكل أهل البلد . وأنت رجل كريم ، أعانك الله .

[4]

قبل الموعد بيومين أرسل ابنه ومعه أربعة خراف ، وعشرون ديكا روميا ، كما أرسل عبد المجيد السمعوني بطشاً ومائة زوج من الحمام ، وكميات من السكر والسمن . وطقم طبّاخين وسفرجية ، ومعهم كل الأواني والأدوات . وأرسل

المقدس جورج شيخ بلاد المال بحري عجلا . . أشرف السمعوني بنفسه على كل شيء .

أوقدت النيران ، اشتعلت الكوانين ، فارت التناير ، امتد السباط ، تدفق الطعام . يوم الفرح الأكبر ، العيد الأكبر : الحج الأكبر . وابن مهران يتنقل ، كالتاووس .

طار ذكره علا اسمه ، وضع النجمي عليه عينه ، في أول حركة بعد الانتخابات ، عين محمد مهران العباسي عمدة لبلاد المال .

14 - تليفون العمدة .

قَبْل يد الشيخ حسان . احتضنه الشيخ وقال :

- لم أشعر أنها خرجت من بيتنا ، حين سُئِلت ، لم يخطر على بالي أحد سواك .
حتى ولدي .

- كلنا أولادك لن تخرج من بيتك أبدا . لا بيت لأحد إلا هذا البيت .

- كنت أصغر منك حين توليتها بعد والدي ، الذي حل محل أبيه . لأول مرة
تخرج من بيتنا منذ أن أنشئت .

- آخر مرة :

أخذته العبرة . أدار وجهه .. قَبْل ابن مهران رأسه عدة مرات .

- أقسم لك لن يخرج التليفون من بيتك أبدا . ولن أفعل إلا ما كنت تفعل
رجالك هم رجالي .

كان والدي ، وجدي ، من قبلهما ..

لاك ابن مهران لسانه ، بلع ريقه . همس

" هيلني ابن ... " واصل حسان : جاه ، وسلطان ، رجال ومال ، أمرهم

نافذ حتى على الحكومة . أملاكهم من الحاجز إلى البحر . كل الأعيان كانوا
مستأجرين ، والدك أنا عينته شيخا . جدى عين جدك شيخ غفر .

لم يخطر على بالي أن هذا الثراء من الممكن أن يتآكل . ما كنا نعرف عدد مواشيننا ، كان الشيخ مهران خيالاً ماهراً ، أشرف على خيلنا ، أهدها والذي فرسا ، هي أم خيلكم .

همس ابن مهران :

" ليلتك قَطِران "

قال المدير :

- تركت بلدكم من غير عمدة عدة سنوات إلى أن يكبر ابنك قلت له :

محمد ابني سيحافظ على الأمانة ، وسيؤديها إلى أهلها . لقد ورّثوني مالا وجاها ، وسلطانا ونقوذاً لم يرثه أحد في الزمام كله :

همس ابن مهران :

- وظلما وكرها ، وغطرسة وتكبيرا " تموت الحدادي وعيونها في الصبر "

- لا تعرف قيمة الشيء إلا بعد أن يُشترع منك .

- لكنك تنازلت عن المنصب باختيارك .

- لم يكن أمامي خيار . إما العزل ، أو الاعتزال ، فاعتزلت . وفقك الله يا

ولدي .

- رجع ابن مهران ، يطحن أنيابه طحْناً .

[1]

- أنتم رجال الأمن في هذه البلاد كلها لا يمكن حفظ الأمن بدونكم ،
ستبقون كما كنتم وأكثر . أنا قوي بكم ، لا أخجل من طلب مساعدتكم .
افعلوا كل ما ترونه لازماً لحفظ الأمن . وفقكم الله :

ظن الرجال أن العهد عهدهم . وأن ابن مهران لن يكون أقوى من حسان
الغني القوي الجبار .

- قال عبد الجبار :

ليس لدى ابن مهران الآن رجال غيرنا . لكنه سيحاول . لا تنخدعوا بتقربه
، وتودده ، إنه رجل داهية ، إن الشاب الذي انتزع العمودية من كبار رجال بلاد
المال ، لا يُستهان به ..

السمعوني الكبير ، ملبس الناس كلها طرح ، معجب بابن مهران، يريد أن
يجعله خليفته على السعانة . وابن مهران يظن أنه كبيرهم القادم ، يقلد
السمعوني في كل شيء . خليل مهران ، شاب قوي متهور . سيضرب ضربته في
أي وقت .

[2]

عبد الجبار ، لقب لكل من يتولّى مشيخة الغفر ، منذ عبد الجبار الأول ، أول
من شغل هذه الوظيفة . تدعى سلالته أنه ذكر في القرآن عشر - مرات . وهو
القوي الشجاع العظيم ، القادر على حكم البلاد ، وضبط العباد .

اجتمع عبد الجبار السومالي برجاله سرًا وقال :
- فرح الناس بالعمدة الجديد . وقد وعدهم باسترداد ما سباه حقوقهم ،
عليكم أن تهدأوا قليلا . أذيعوا بين الناس أن العمدة الجديد لا يحب المشاكل
اليومية البسيطة ، وقد ترك حلها لشيخ الغفر . من يذهب إلى دوار العمدة لا
يلومن إلا نفسه .

[3]

استدعى العمدة إمام الجامع ، الشيخ برغوت . فهم الناس حقوقهم
وواجباتهم . وقل لهم لا تدفعوا شيئا لأي حد . دون أن تصرح يا مولانا
بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال مولانا :

- لقد حرم العمدة الرشوة ، والإتاوات ، ولعن الراشي والمرتشي . وأجاز
الهدايا والعطايا . وما حرمه ولي الأمر فهو حرام ، وما أحله وجب . فقد أمر
النبي بالهدايا " تهادوا تحابوا " فالهدايا تواصل ، وتعاطف وتراحم ، وهي
للصالحين الذين يقومون على خدمة عباد الله ، وأمن الناس وسلامتهم ،
وحمايتهم من اللصوص ، وحل مشاكلهم ، واسترداد حقوقهم ، ينفقون من
أموالهم وأموال رعاياهم ، لصد ضغيان الحكام ، وسد أفواههم التي لا تشبع .
فلا تضعوا هداياكم في غير مصارفها الشرعية . في بيت مال المسلمين ، ولا
بيت إلا بيت ولي الأمر . واطيعوا الله والرسول وألي الأمر منكم . وهم العمدة
في هذا الزمان . ، ثم استدرك ، ورجاله .
والهدية بعشر أمثالها ، وهي من أفضل الأعمال ، وأجل القربات . إن الله لا
يضيع أجر من قدم هدية :

"اعلموا أنها غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى " وبعد وفاة النبي ، آل ميراثه لوريثه الوحيد ، وهو عمه العباس بن عبد المطلب . جد العباسيين . الذين هم الآن حكام هذه البلاد . ورثة النبي صلى الله عليه وسلم .

[4]

قال العمدة :

- بلغني يا شيخ برعوت حديثك عن الهدايا . أريد أن أسمعه منك حتى يطمئن قلبي .

- ماذا أخذت من الوظيفة ؟ ألم تُنفق عليها ؟ لمصلحة من العزومات ، والهدايا للضباط والعساكر ؟ . أليس كل هذا لمصلحة البلد ؟ . لم تطلب شيئاً من أحد . هم يدفعون طواعية يوفون بالنذر ، بحقوقهم الشرعية ، يخدمون في أرضكم التي تنفقون منها على مصالحهم . يبيتون آمنين في سربهم بفضل سهركم وتعبكم ورعايتكم ، ولولاكم لتخطفهم الناس من كل مكان . لقد اضطفاكم الله لخدمة عباده . ومن الناس من اختاره الله لذلك . منزلة يحسده عليها الأنبياء والصديقون . فسر على بركة الله . ومعك كتابه وسنة نبيه . ثم استدرك ورجالك .

همس هامس :

وبرغوتك .

[5]

اجتمع عبد الجبار برجاله .. قصص عليهم ما حدث بينه وبين العمدة .
- هناك أمور لا نستطيع الدفاع عنها . ليس في أيدينا ورقة واحدة . كل الذين يكرهون حسان ورجاله سيشهدون . والعمدة ترك لكم حل المشاكل .

تظاهروا بالعدل . وسنعوّض ما يفوتنا بعد أن يرتخي الغريبال الجديد . حسوا الناس . ادفعوا لهم ، خوفوهم ليشكرونا أمام العمدة .

بعد أسابيع ذهب وفد من الناس إلى العمدة أَلَفَ شَكَرِيا حضرة العمدة . لقد رد إلينا رجالك حقوقنا كاملة . اختفَى الظلم ، عادت رقابنا إلينا ، بعد أن أكلها الصّفع والبصق .

- استغفر الله ، الفضل ، بعد الله ، لأهل الفضل .. لهذا الرجل الشهم . وأشار إلى عبد الجبار .

- هتف الناس لعبد الجبار .

- بفضل ثقتك في رجالك يا حضرة العمدة . استتب الأمن . وساد العدل . وارتفع الظلم وأمن الناس على الأوز والبط . وعاش الفأر مع القط .
- الفضل لشيخ مشايخ غفر المديرية كلها . أوأ عبد الجبار ممتنا .

[6]

أسر خليل مهران إلى أخيه .

- كل من يأتون إليك يا عمدة من رجال عبد الجبار المتفيعين . أعرفهم واحدا واحدا . بعضهم من رجالنا أيضا . يراقبون كل شيء .

ظل أولاد مهران ينفخون في عبد الجبار ، حتى كاد " يطرشق " من جنبه .
قال عبد الجبار لصديقه الشيخ خليل مهران :

- لم يكن لي يد فيما كان يحدث ، كنت العبد المأمور ، أولاد حسان وأهله ، حتى حريمهم ، يأمرن ، ونحن ننفذ . لا نستطيع أن نعصى لهم أمرا .

قال الشيخ خليل :

- علينا أن ننسى الماضي . أتم رجالنا الآن . ولا حكم إلا بك يا صديقي .
افعل ما تراه في مصلحة الجميع .

- تتمم الشيخ خليل " وأُملي لهم إن كيدي مَتين "
اطمأن استسلم .. نام عبد الجبار في النهش والهيش . وعين الرقيب
بالمِرصاد ..

[7]

في خلوة برجاله .. كل الرجال الأعوان .
قال عبد الجبار :
- أرايتم كيف وضعتم الرجل وأهله في جيوبكم حتى خليل (الفلحوص) .
لا يستطيع أن يتنفس إلا بإذنكم . نحرسه . نراقبه . اطمأن نام في العسل . لا
يعرف أحدا غيرنا ، نحن رجاله .
قال أبو الطيّط :
- أخشى أن نصبح حريمه .
قال القطيط :
- الرجل انصطل شد الغاب شد .. :
- تحت العمة قرد .

[8]

فجأة داهم الهواشم خلوة الرجال .. قَيّدوهم . كَتَفوهم .. كَمَموهم .
جرّدوهم .
تناقل . تباطأ . تعتمد ألا يتحرك قبل وصول الحكومة . فر الهواشم . اختفوا
تماما .
حاصرت الشرطة المكان تركوا سلاحا ومخدرات كثيرة ، اقتادوا عبد الجبار
ورجاله . كميات من الذخائر . والمسروقات والمساخيط . والبنادق المسروقة من
الحكومة تركها الهواشم .

في زفة كبيرة شُيع عبد الجبار ... والهواشم يغطون في نومهم في بيت العمدة .

قال الشيخ خليل :

- لن نترك رجالنا . سأوكل لهم أكبر المحامين .. لم تطل المحاكمات . سجن طويل .. غرامات كبيرة تقصم الظهر . سيق الذين نهبوا إلى السجن زُمرًا .

[9]

استهل الشيخ برغوت ، إمام أهل الحكم والسلطان خطبته بقوله :

- الحمد لله الذي حفز الهمة ، وأزال الغمة . ورفع البلية ، ونصر - العمودية على كل الحرامية ، وجعل وجههم للحائط ، وقفاهم للرعية . فباتت آمنة كل ولية . وصار الأمن قولوا معي :

" ميه .. ميه "

وحرم الوساطة والمحسوية . وأوجب الهدية والعطية .

القائل وقوله الحق :

" جاء الحق ، وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا "

لقد رفع الله عنكم الظلم والفسق والفجور ، وهذاكم طريق الحق والخير والنور ، من بعد ما فضح المغرور ، وكشف المستور ، وسد عليهم الطرق والجسور . من بعد ما جاء بكم من النجوع والكفور .

رَضِيَ الله عن محمد بن مهران العباسي ، سليل العباسيين ، خلفاء المؤمنين الهادين المهديين : الهادي والمهدي والرشيد والأمين والمأمون " . لقد عاد الحق إلى أهله الشرعيين .

إن محمد بن مهران الذي أجلسه الله على كرسي حكم هذه البلدان وبوَاهُ المكاينة والسلطان ، وأتاه الحكمة والبيان . ليس كغيره من حكام هذا الزمان .

لقد اصطفاه الله على العالمين . واستخلفه على عباده الصالحين . هو وذريته إلى يوم الدين . إن طاعتهم ركن ركين وعصيانهم ضلال مبین . لقد ثبت الله الحق تثبيتاً ، وزعط الباطل زعطاً . دولة الظلم ساعة ، أما دولة الحق فهي إلى قيام الساعة .

اللهم انصر ابن مهران ، وآله وأصحابه ومن والاهم وأيدهم . ومكنهم من أداء واجهم نحو عبادك المخلصين ، ويسر لهم جمع الزكاوات والصدقات والعطيات والهديات . إنك سمیع قریب مجیب الدعوات ..

[10]

قال ابن العوضي :

- أسمعت الشيخ برغوت يا جدي ؟
- برغوت مات من زمان يا ولدي .
- برغوت صلى بنا الجمعة اليوم . وقال إن العمدة الجديد من عيال النبي .
والعمدة القديم من عيال سيدنا أبو جهل .
نفس الكلام الذي قاله جدهم برغوت الكبير . كلما يأتي واحد جديد ،
البراغيت يلعنون سنسفيل القديم . ويسبحون بحمد الجديد ، وفي الآخر يطلع
هو نفسه ، لم يتغير إلا الأسماء يا ولدي . ذل وإهانة وسرقة ونهب . والبرغوت
يحلل ، ولا يحرم أبداً .
ذل وهوان ، وكذب ونفاق ، وخوف وجبن اختلط بالدم ، جرى في
العروق . صار فطرة . جبلة خلقنا عليها ؛ إذا لم أكذب فأنا كذاب .
إذا صدق الواحد مرة . استغفر الله مائة مرة . نحبه ولا خافين منه ؟ لكل
زمان برغوته ، وكل برغوت على قد علمه .. جهله .

16 - مَوْتِ هِرْقَل

-1-

قام من نومه مذعورًا ، جمع كل الخفراء والعبيد ، إلى بمحمود أبو شنب ،
والعربي أبو هب ، وخليفة الجحش ، وأبو زيد البغل ، ونسائهم ، وأطفالهم ،
وجيرانهم . ومواشيهم ، وكلابهم ، وقططهم ، وفيرانهم .

قال ابن عمه شيخ البلد :

- ماذا فعلوا ؟

- وهل ننتظر حتى يفعلوا ؟ . سلمت عليهم فلم يردوا .

- حضرتك لا تراهم قط .

- حلمت في المنام أنهم حلموا أنني سلّمت عليهم .

- بلغت بهم ألوفاحة أن يحملوا .

- تساهلنا معهم ناموا آمنين يحملون . لو سمعتُ أن أحدًا حلم ، لحرمت
عليهم النوم ، دنيا وآخرة .

دون أن يراهم :

- قصوا شواربهم .. جزوا رؤوسهم .. جرّدوهم . أطلقوا عليهم الخفر ..

غطّسوهم في الخَرارة .. أجلسوا الحريم والأطفال حول البركة حتى الصباح .

نادوا في البلد لا يخرج أحد من بيته ، إلا حين يسمع قرع الطبول . في عز الظهيرة
، أخرجهم من الحرارة .

قُرعت الطبول ، اصطفّ الناس ، طافوا بهم كل الدروب .

- جزوا شعر الحريم أطلقوا الأطفال .

اجتمع الغفر والعبيد . حكموا بما يأتي :

- يتنازل كل واحد من المتهمين عن فدانين . فقط .

- يرحل كل من لا أرض له .

- يُحرم عليهم الزواج والطلاق والإنجاب ، ولبس السراويل والعائم والمراكيب . لمدة خمس سنوات .

- يُمنع على الجميع ، الحلم أو التفكير في الحلم ، أو الحلم بالحلم .

-2-

- قاتل الله الإنجليز الكفرة ، مكّنوا هؤلاء اللصوص من رقاب العباد ، ملكوهم أرضاً ، أطلقوا أيديهم في السلب والنهب .. هموا ملكهم بالحرامية ، جعلوا العبد سيّدًا . انتقم لأبائه . وأجداده . بيده مصائر العباد : الري والفيضان ، يطلقون المياه متى يشاؤون .

الضرائب الخراج ، أسعار المحاصيل سيّدوه على كل القبائل . كل شيء بيد عبد المجيد السمعوني ، وجد الساعة لهم كبيراً ، التفوا حوله ، اصطفوا خلفه .
- لا مقام لنا ما دام هذا الرجل حيًا . نكس رؤوسنا ، قصم ظهورنا .. بشجاعته وجراته وإقدامه ، وهداياه ، وولائمه . اقتحم عقول وقلوب الحاكمين والمحكومين ، سلّمت القبائل بزعامته ، والحكومة بقدرته وقوته .

استعبد النفوس ببطشه وجبروته ، استمال القلوب بكرمه وعطائه . استقدم طبّاخين ، اشتهرت موائده بأنواع من الأطباق ، والمأكولات والمشويات لم تعرفها القبائل من قبل . لا تذوق عنده طعاماً مرتين ، في كل مرة ترى ما يُعجب ويُبهر . نالت طواجن سمكهم شهرة واسعة .

-3-

في مكان متوسط على النيل مباشرة بني دوارًا بعيدًا عن قريته حوالي خمسة عشر- كيلو ، في يوم معلوم يمتنع الناس ، على جانبي الطريق ، عن ريّ أراضيهم ... يَمْتَطِي صهوة جواده قاصدًا مقرّه ، وراءه غفير يلهث ، تتوافد

وفود القبائل من كل بلاد المركز الكبير الذي يضم النصف الشمالي من قنا ..
بيت كل القبائل .. كل الخصومات تُفصّ هنا.

هذا القلب الذي قُدد الصخر منه . يبلّط مع القراميط ، يتنطط مع القراقر ،
يجلس على حافة النهر ساعات ، يرقب السمك .. يستنشق عطره ، قد يقفز
بملاسه خلف قرموط .

قريب من دّواره سمح للسماكين - دون غيرهم - بالمرور ، والبيع والشراء .
قد يشتري كل الأسماك . نال ألقابا عدة .

- قرموط .

- قرقار .

- تعبان .

غلب عليه الحوت .

- خذ كل هذا السمك . أعدوا لنا منه غداءنا . وزعوا الباقي .

-4-

في سرية تامة همس - العتامة :

- لم نعد نطيق صبرا على الظلم والذل والهوان ، عبيدهم يبصقون علينا في

الطرق ، أمام بيوتنا ، نحن أموات منذ سنوات ، وصلت الإهانة إلى نساءنا .

- العمدة لا يعرف شيئا مما حدث .

- لكنهم يعرفون أن ذلك يعجبه . لولا جبروته ما استطاع أحد منهم أن

يمر أمام بيوتنا .

- ولا أمام مقابرنا .

- العمدة الذي لا يعرف دبة النملة ، وقرصة القملة ، لا يصلح أن يكون

خفيرا . علينا أن نترصده

- ابن مهران يتبعه كظله

-5-

في منتصف الكبرى الممتد فوق التربة تحرك شبح أشعث أغبر ، عليه هلاهيل وأثمال ، ظنه العمدة شحاذًا ، درویشا ، أوقف حصانه ، تعلّق العبيط به ، رفع الشيخ يده . حين أخرجها لم يكدرها .

من تحت الكبرى ، تسللت جردان ، تنططت فئران ، تساقطت نباييت كأنها المطر ، ترجّل محمد مهران ، أمسك بتلابيب رجل ، رفعه عاليًا ، ألقي به في الماء ، تفلتوا هربوا ، حاول أن ينقذ صاحبه ، لكنه فارق الحياة .

سقط البطل . مات الزعيم .. صفّن الحصان ، سالت دموعه ، لم يستطع أحد أن يبعده ، على قبره وقف أيامًا ... خرّ ميتًا .

عاد ابن مهران ودماء شيخه تلطخ ثيابه ، تملؤه قلقًا ورعبًا ، وخوفًا ، وحذرًا .

- كان السمعوني رجلاً قويا عادلاً أنصف الغلابة ، كسر شوكة المفتريين رد حقوقًا .

- كان ظالماً متجبراً حاقداً ، أذل كبار البلد ، نهب أموالهم .

- خافت الذئاب من الكلاب ..

- جرت القطط أمام الفئران .

- كنا نحبه

- كنا نخافه .

- وأنت يا عم حسنين ؟

- والله يا ولدي لا أدري إن كنت صَفَّقْتَ له حبا ، أو خوفا .

عمدة العمدة ، كبير كل القبائل صادق (مكرم عبيد) ، وفخري عبد النور ،
وسعد زغلول ، والنحاس ، والمالك فؤاد نفسه ، عين العمد والمشايخ . طهر
البلاد من اللصوص . أو جدلنا أعمالا .

-6-

صوته يرن في أذني :

- تعلمون أني مسئول عن الأمن في كل هذه البلاد . وأعرفكم جميعا ،
وأعرف كل حادث حدث . وقبل أن يحدث ، ومن فعل ، ومن لم يفعل ، وأن
الحكومة الجديدة ، حكومة اسماعين صدقي ، فتحت المعتقلات والسجون ، ولا
تحتاج إلى تهم ولا شهود ، وقد ألقى القبض على كثير من أبناء سوهاج ، وقد
تفعل ذلك في أي وقت ، وقد يطلبون الأساء . وأنتم أهلي ولن أفرط فيكم .
عدد كبير من أبناء الملاك يسرقون منكم .

فتونة ، سأجعلكم فتوات الفتوات ، سيعينون جميعا مشايخ بلاد ، ومشايخ
خفر .

أما الذين ليس لديهم أملاك ، فسيملك الفلاحون منهم أرضا مستصلحة ،
وقد أنفقت مع أعيان القبيلة على تسليم كل واحد من هؤلاء بقرة وحمارة ،
وسأقوم بالإنفاق على هذه الأرض إلى أن تؤتي أكلها
- يا باشا

- أنا لست باشا . أنا ابن عمك العمدة . ماذا تريد ؟

- أريد حمارة اذهب بها إلى السوق لأبيع وأشتري

- لك ما نريد كل يأخذ ما يناسبه .

لقد أنفقت مع مكرم باشا على بناء مدرسة ، ومسجد ، وكنيسة . ومصنع
للطماطم ، ومصنع لجريد النخل والزعف ، والليف حبال ومقاطف ، وقُفَف

وغلقان ، وسراير ، وورشة نجاره وحدادة ، سواقي ومحاريت ونوارج وأبواب ،
وفئوس وعزاقات ، ستكون قبيلتكم ، الفقيرة ، من أغنى القبائل ، لن تكون
قبيلة حرامية بعد اليوم .

- هو شيخ أزهر ولا شيخ منسر ، يغني الفقراء ، ويزل الأغنياء .

- أبعد عن الكرسي وغنيله .

- أي كرسي يا رجل ؟

- كرسي العمودية

- كرسي دخان أحسن منه .

هو نبي . ولا شيطان ؟

عادل .. ظالم . غفار . جبار . نعيم . جحيم .

- نترحم على السمعوني . نلعن السمعوني .

-7-

- لأول مرة يذهب العمدة للعزاء .

- اجننت يا رجل محمد مهران يعترف بالموت .

- شاهدته بعيني . الجبار تحت أقدام الحمار .

- تتصور أنه عزى في محمد العوضي !!

- أنت تحرف ، لو حدث لقتل العوضية كل يوم واحدا منهم؛ لينالوا شرف

العزاء .

- الأغرب من هذا أنه لم يعد يركب حصانه ويرمح بين العباد ، يعميهم

بالغبار والعفار ، وأمامه غفر يبعدون كل الناس ، وخلفه غفر يركضون حفاة ،

من أبناء العائلات الكبيرة ، ليزل أهلهم

ركب جحشا ، حين اقترب من الناس ، نزل وسلّم على الجميع . رأي الناس

أيدي كأيديهم ووجها كوجوههم .

- مقتل السَّمْعوني أدب كل العمد .
- هي " بلدنا فيها رجالة تخوف ؟ ؟
- سيظهرون ، وتعود الرذالة ، والنطاعة ، والسكاعة ، والتهاذي في الباطل والضلّال .
- تراخي الرجل ، فترت همته ، عجم الشراوية عوده الجديد ، استشعروا خوفه منهم رموه وراء ظهورهم .
- ظل مشهد القتل ماثلا في وجدان محمد مهران يتراءى له ، كلما شرّق أو غرّب ، أحس دبيب الشراوية يترصّده . نصف عمدة ، نصف مزارع . تتقرب . تودد ، فرط ، صهين . عين أخاه نائباً له .

الفصل الثالث

سوق الأحد:

- (1) أبو الطّواقي .
- (2) علّام الزّفير .
- (3) ديل الكلب .
- (4) ملّاليم فرّحانة .
- (5) لبّسنّا طُرّحا .
- (6) إنّ كنتَ رجلا !!
- (7) وراودّته التي

كالبنيان المرصوص ، كالطوب المرصوف ، الخشب المسنود ، الألواح المدكوكة ، العمد المغروزة ، اصطففت طواير الغفر .

قال الشيخ خليل نائب العمدة :

- الأمن مسئوليتي ، لم يدخل البلد حرامي واحد منذ تولينا أمر الناس ، دعوا الأبواب مفتحة ، كل الأبواب ، اتركوا المواشي ، تلعب وتمرح ، تتسابق ، تتناطح ، تتناطط ، تُبرطع ، تتمرغ ، الخيول تصهل ، الحمير تنهق ، الجمال تجتر ، الديوك تتناقر ، البط يبطبط .. الأوز يوزوز ، الأمن مسئوليتي .

عليكم أن تأتوني بأخبار النمل ، والقمل ، والنحل . الذباب ، والهباب ، العقارب والحيات . الجرزان والفئران .. القطط والكلاب .

لوفروجة باضت في النجع البحري آتوني بنبئها قبل أن تقوم من مبيضها .
لو أن ديكا اعتدى على فروجة لأقمت عليه الحد كما يقول الشيخ عبد العال .

كيف يحدث ما حدث للعوضية منذ ربع ساعة ولم تخبروني قبل أن يحدث ... آتوني بهم أجمعين ، الآن قبل أن يجف عرقهم ، قبل أن تنقطع دماؤهم ، بشياهم الممرقة ، عمائمهم المطينة .

- حملوهم كما هم

- ألقوا بهم تحت قدميه .

- لم نقل شيئا ، ولم يعتد علينا أحد .

- أنتم في حمايتي .

- هددونا بالطرد من البلد إن شكوناهم .

- أنتم في حمايتي قصوا علينا كل ما لم يحدث .

- كنا في طريقنا إلى السوق ، ومعنا ربع أردب غلة ، وشوال تبين .
وَمُقْطَف بصل . وأمام بيوت الشرّقاوية خرجوا علينا ، بعثروا الغلة والتبن
والبصل ، مزقوا ثيابنا ، طَيَّنُوا عِثْمَانَا ، أَشْبَعُونَا ضَرْبًا وَرَفْسًا وَبَصَقًا .
- هذه الطرق محرمة على الكلاب . عليكم بالطريق الغربي ، لا نَرَى أَحَدًا
منكم يمر وسط البلد . وإن بكيتم أو شكوتم فلن تبيتوا ليلتكم في هذا البلد .
- أفي البلد حكام غيرنا !!

على بكل الشرّقاوية : الرجال والنساء والأطفال :

[2]

حوصرت بيوتهم من عاليها وسافلها ، شَدَّوْهُم كَمَا تَشُدُّ الطيور من
أعشاشها . الأرانب من جحورها ، الفئران من شقوقها . كُبِّكِبُوا .. كَوِّمُوا ،
سيقوا قطعانا وأفرادا ، يتقدمهم الشيخ عبد العال أبو الطواقي .

رجل نحيف قصير ، عليه بقايا كل شيء جبة ، قفطان ، شبشب ، شيلان .
على رأسه عمامة لالون لها ، كل الألوان ، كُوِّرَتْ عليها ، كُفِّنَتْ بلفائف طويت
عليها كطيّ السَّجَل ، طبقات بعضها فوق بعض ، كل لَفَّة ترتفع قليلا عن
سابقتها ، زيقا خفيفا كأنه حافة طاقة أخرى ، تراكمت الحواف فبدت وكأنها
عدة طوابق ركب بعضها على بعض ، من هنا كانت التسمية « أبو الطَّوَّاقِي »

طارَت الرأس مستطيلة كأنها شاهد قبر . ارتكزت العمامة على قاعدتين
عريضتين طويلتين كأنهما أذنا فيل . تدلت رجلاه عودا ثقاب ، تهدل عليهما
جَوْرَب غَطَّى بقايا مركوب قديم .

تقدم الشيخ على حمار يظلع . تحيط به ثلة من الرجال . كاد جحشه يجوس
خلال الديار ، تَحْطُفُه خاطف ، برفق رزعه على خافة المسطبة بعيدا عن طرف
الحصير ، دلدل رجليه ، بينهما وبين الأرض مشوار .

دون أن يلتفت :

أريجوا الشيخ في جلسته ، ضعوا له مسندا .

ظل هو وقومه ، شاخصة أبصارهم ، ينظرون كالمغشي عليه ، ينتظرون حكم الجبار العنيد، العتل الزنيم (كما يسميه الشيخ عبد العال).

أدار وجهه الأبيض الممتلئ ، عقد حاجبيه الكثيفين . فبدأ عبوساً فمطريراً ، إربدّ خداه ، تفتّحت مناخيره ، قال بحسم :

- تقدم إلينا بعض الناس ببلاغ يتهمونكم بالسلب والنهب ، وقطع الطرق العامة ، والاعتداء على النساء والأطفال ، وهتك الأعراس ، واقتحام البيوت مسلحين بالنبايت ، والخراطيش ، ومعهم شهود علي كل شيء . وما علينا إلا التنفيذ وسنحتجزكم لترحيلكم غدا .

نط أبو الطواقي : اندلق على الأرض .. لملمه الخفر .. بنفّس ينّهر قال :

- تحتجز نساء الشرقاوية من أجل هؤلاء الأوباش الكذابين .

ما كاد الرجل يتم جملة إلا وتختطفه أيدي رجال غلاظ شداد . ساد سكون سكين . جحظت كل العيون . حملقت ، بحلقت : بصوت هادئ خفيض . رفع سبابته ، صوبها نحو عمامة كبيرهم عبد العال .

- ألا فليسمع القاضي والقاضي ، والمؤمن والعاصي ، الفاكِر والناسي ، الظاهر والباطن ، الوسواس والخناس ، أن دوار آل مهران حرّم من دخله فهو آمن على نفسه ، وماله ، وولده ، وعزّته وكرامته ، وأن كرامته من كرامة أصحاب الدّوار . وأنت أبو الأصول يا شيخ عبد العال :

انجمعص ، رفع رجلا ، حاول أن يضعها فوق الأخرى فلم يستطع . ساعده ابن أخيه ، عاظل بين ساقيه كأنهما أرجل جراد .

- إذا كنتم ، وأشار إليه أنتم الشراقة ، لا تسمحون بأن يهان أحد في مسطبتكم ، لأن أحد أقاربكم كان غفيرا عند العمدة السابق ، فما بال دوار العمدة نفسه ، الذي له ملك ما في الزمام كله . لا يجلس فيه أحد ، وإذا سُمح له بالجلوس ، وذاك أمر نادر ، لا يكون إلا لكبار القوم ، أزداد عبد العال انشكاحا ، نظر إلى الجموع الخفيرة من أهل البلد ، أن اسمعوا وعُوا .

سكت النائب برهة ، سكن الناس ، تطلعوا قال النائب :

- كما أنكم لا تسمحون لأحد بتجاوز الأدب . هم عبد العال بإنزال رجله ، تعثر ، تكعبل في أثماله سقط .. تعثر . لم يجروا أحد على الملمته هم النائب . سلامتك يا عم الشيخ .

للمه برفق ، رفعه ، وضعه بجواره على دكة العمدة نفسه ، والناس في ذهول .

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا شراء ، ولا زرع ولا حصاد عن خدمة آل مهران . يعرفون ماذا يريد النائب ، هو لا يريد أن يبعث بشكوى واحدة إلى المركز ؛ لأنه يرى ذلك ضعفا .

- الصلح خير يا حضرة جناب العمدة .

- الأمر لصاحب الأمر لا دخل لنا .

- ومن صاحب الأمر غيرك ؟

- استغفر الله ، الأمر للواحد القهار وحده

- وما العمل ؟
- الأمر الآن في يد الحاج سيد العوضي ، شيخ العوضية .
- اهمس عبد العال .
- بقى حاج وشيخ الزبطة ابن الكلب . كبرتم علينا الكلاب .
- ماذا تقول يا والد الجميع ؟
- ما تراه يا حضرة العمدة .
- لا صلح مع ضياع الحقوق .. لعن الله قوما ضاع الحق بينهم . كما يقول شيخنا عبد العال :
- انتفخت أوداجه ، تعلو وتهبط ، بالونة يعبث بها طفل ..
- لا بد من التنفيذ . قد يكون الأمر وصل الحكومة ، الأعداء كثيرون . لنا ولكم يا شيخ عبد العال . يتهموننا بالتستر عليكم ، كما حدث الشهر الماضي .
- يحاول إذلالنا المفترى .
- ماذا تقول يا مولانا ؟
- الأمر لك يا صاحب الأمر .
- قلت الأمر للسيد العوضي .
- العوضي ؟ هزّلت : في كل كلمة بصفة على وجوهنا .
- قال النائب :
- الشيخ عبد العال أكبر مصلح في الزمام ، سنحكم بما يحكم به بين الناس .
- نعوضهم .
- التعويض بعد الصلح ، والصلح بعد التسامح ، والتسامح بعد الاعتذار .

هب الشرقاوية :

- نحن لم نعتذر لأحد قط ، فكيف نعتذر لهؤلاء الـ ..
- قلت إنهم صاروا من آل مهران ، شرفهم من شرف صاحب الدوار . لكم كبير احتراموه ، هو الذي يتحدث فقط ، أما إذا نسيتم احترام كبيركم فلا لوم عليكم ، الشيخ عبد العال كبير البلد كلها ، وعدم احترامه إهانة للبلد كلها . وأنا لا أقبل التناول على شيخنا .

قال الشيخ عبد العال :

- شكرا يا كبير يا ابن الكبير . لا كبير غيركم . والتفت إلى قومه : الصلح قوة ، والعفو عن الضعيف فضيلة .

قال النائب :

- ليسوا ضعفاء ، كل البلد معهم ، وليس ما نريده عفو ، بل هو اعتذار عن خطأ ، وإذا لم تفعلوا فقد أسأتم للناس جميعا . وهاهم رؤساء العائلات يشهدون على ظلمكم . إما الاعتذار والتعويض والصلح ، أو ترحيل النساء والأطفال والرجال ، وكل المتهمين فورا .

قال كبيرهم :

- سأذهب إلى بيوت العوضية الآن واعتذر .
- نظر النائب إلى سيد العوضي ، فقال العوضي .
- دوار العمدة بيت الجميع . لن نكلفك مشقة الذهاب ، قبلنا عذرنا في دوار البلد كلها .

قال النائب :

- 1- أصيل ابن أصيل يا حاج سيد يا عوضي .

همس الشيخ :

- كل خمس دقائق يلبسنا طرحة ابن المفترى .

- ماذا يفعل المتصالحون يا مولانا؟
- دون أن يفكر أخذه جلال الإعجاب .
- يقبل المخطئ رأس أخيه ..
- قال النائب :
- الشيخ سيد يعفيك من هذا . أما التعويض فهو ملك للعرضية كلهم ..
- ليس من حق أحد أن يتنازل عنه ، كما أنه حق الشرع والقانون ، الغلة بالغلة ،
- والتبن بالتبن ، والبصل بالبصل ، والثياب بالثياب . والعمم بالعمم . والحمير
- بالحمير . والضرب بالضرب ، والتف بالتف والتطين بالتطين . هكذا علمنا
- مولانا الشيخ عبد العال القصاص . هو الشرع كما تقول يا مولانا
- صاح صائحهم :
- العرضية يضربونها ، يتفون علينا ، يمزقون ثيابنا ، يمزقون عمائمنا .
- كما فعلنا بهم !!
- سجل هذا الاعتراف وعليه شهود .
- قال عبد العال :
- قلت لا أحد يفتح فمه : " وديتونا في داهية يا بهائم " .
- لا تأخذنا يا سيدي العمدة بما يقوله السفهاء منا . احكم بما تشاء .
- لن يظلم أحد في دوار آل مهران . وسنأخذ حق الضعيف ، وإن كان لم يعد
- في البلد ضعيف ولاقوي ، كلكم أحبابنا وأهلنا ، ورعايانا ، العمدة حاكم وولي
- أمر الجميع ، وطاعة ولي الأمر واجبة كما يقول مولانا الشيخ . وكذلك
- القصاص ، واجب كما علمنا .
- قال أبو الطواقي :
- احكم بما تراه .
- لست قاضيا . كبار البلد هم الذين يحكمون بما تقول به في الخطبة .

همس عبد العال :
- يا ابن اللئيمة .

بعد أن تدبرنا الأمر حكم المشايخ بما يأتي :
- أردب غلة . حمل تبن . شوال بصل . كسوة لخمسة من العوضية . أما
الضرب والتف فمتروك لأصحاب الحق ، إن شاءوا عفوا ، وإن شاءوا تفوا .
قال النائب : إكراما لعننا الشيخ عبد العال سيعفون عن كثير منكم .
انتفش الشيخ : مد عنقه كأنه ديك يستعد للصباح .
- الكبير يعرف مقام الكبير .
قال النائب :
- البلد ملك الجميع . ولن يُقطع طريق بعد اليوم .

[2]

بعد صلاة العشاء ، كان الشيخ خليل نائب العمدة يشرب الشاي في دوار
الشرقاوية .
- لقد أهنتنا كثيرا اليوم يا حضرة العمدة .
- اعتذار القوى يزيده قوة ، واعتذار القادر قدرة ، تواضعكم كان مشار
إعجاب الجميع ، لأول مرة يعتذر شرقاوي . كان الناس يقولون الشرقاوي
عمره ما يقول استغفر الله . تكبرا . الصلح أنقذنا نحن وأنتم من مصيبة ، أنتم
الجنة ونحن أولات الأمر .
علمت أن أحد خصومكم ذهب إليهم سرا ، وحرّضهم على الذهاب
للمركز ، ومعهم شهود . لو تم ذلك لوقع علينا بلاء عظيم ، تداركت الأمر
وحبستهم .

أرأيتم ما فعلته من أجلكم حتى لا تحبس نساؤكم وتعتدى عليها العساكر ،
وشرفكم غالي علينا .

- همس الخفير المرافق .

- المفترى لم يترك واحدة منهن وخايف على شرفهن ، هو أنت سبت لحد
شرف ، نصف أولاد البلد أولادك .

- لولا تدخل لي لباتت النساء في السجون

قبل أن ينام ليلته نال حب ناس . كره ناس ، احترام ناس . خوف الناس
جميعا ! لم يعد أحد لمثلها بعد ذلك .

2 - علام الزّفر

[1]

داخل شباكها تعلو .. تهبط . تفت . تنط .. خياشيم .. تتخيشم -
زعانيف .. تنزعف .. زقزقة .. نقنقة . نطنطة . فلفصة . بلعطة . تبرق برقاً .
تلمع لمعاً . أهلة تتساقط .. أنصال تنهاوى . نجوم تبدو وتتوارى . عيون كأنها
البنّور .. أسبلت جفون . سكن السكون . سكت السكوت .
امتلاّت ققف . طفحت غلقان .. صُبت مياه . غُسِّلَ الجَنِيّ واحدة واحدة ،
دُلك بالذقيق والملح . لم تعد للسّمك رائحة ، تشمّمته ، قضمت ، استطعمت .
أزدردت .

برفق رفيق .. وحذر ذقيق . وُسِدَ السمك في مهاده . طبقات بعضها فوق
بعض ، تجاوزت ، تلاصقت ، تلاحمت ، لا يأتيها هواء من بين رؤوسها ولا من
أذيالها . كأنها لحمت لحماً . صُفّحت صفائح . لُيِّست بلاليص . تُركت إلى أجل
معلوم .

طاف بها تجار يتّجرون ..
مع التيار يُبحرون .

[2]

تهادت حُمُر .. وئيدة تنوء بأنقالها ، كأنها تحمل جنديلاً أو حديدا تراخت
أذانها . هَبَطَتْ حوافرها .
اصطفت الطواير .. نشطت على نقر الناقور ، دقات أنامل الغلمان : الإناث
والذكور . ترن على ظهور الصّحون . كأنها صاجات ناعسة المزاتية . يرددون مع
علام الزّفر :
الريح مسك وعنبر .

اللون ذهب أصفر .
الطعم عسل وسكر .
حُسنهُ . مع البصل الحُضْر .
والبتاو المِكْعَبْز .
والكمون والزعر .
تخلى الذَّكر ذكر
شد حيلك يا أزعز
والطواير واقفه كالعسكر
الله عليك يا أحمر يا أصفر
يا أشقر .

وغاب الجوزة يكرز
والشاي ملِّ براد . يطرطر
شفطة والثانيه .. تسكر .
الله أكبر .. الله أكبر .

[3]

طعام العمدة والتايب .. خمر المذنب والتايب .. أصحاب الهمم والعزائم .
ومولانا أبو العمام . ثلاث علب من طيب الأطايب لأعز الحبايب .
همس هامس :

- الجبار .
- المفتري .
- جلاب المصايب .

- المولد مولدهم .
- وصاحبه غايب .

[4]

قال الشيخ مصايب :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

موضوع خطبتنا اليوم : اللحم الطّري .

الحمد لله الذي أخرج لكم من البحر لحما طريا ، تأكلون منه أكلا شهيا ، لا مقليا ولا مشويا ، إنه يؤكل نيا . إنها الملوحة ، الإنسان بها أبدا حَفِيا . نعمة الذات العليا ، يجتمع الخلق لها سويا ، رضعُها مذ كنت صبيا ، دوامت عليها وقد بلغت من الكبر عتيا .

أنواع أشكال لم نعرف لها من قبل سَمِيا ، داوموا عليها بكرة وعشيا ، يرفعكم الله مكانا عليّا ، أسرع إليها أينما كنت قريبا أو قصيا ، غربيا أو شرقيا . من دوام عليها كان بوالديه برا تقيا . ولم يكن جبارا شقيا . ولا نسيا منسيا .

عليكم بما تجدونه في يومكم هذا في سوقكم هذا ، في بلدكم هذا ، إنه من سلالة حيتان موسى ، شفاء لما في الصدور والنحور ، قوة لما في الظهور . داوموا عليها ما استطعتم إلى ذلك سبيلا . استفتحوا يومكم هذا بما هو خير لكم في الدنيا والآخرة .

أوصيكم ونفسي بها وبتقوى الله اللهم أطعنا مذاقها ، وشمنا فواحها
وهيئها لنا في ديانا وآخرنا .

ادع الله وأنتم موقنون بالإجابة . إنه سميع قريب مجيب الدعوات .
مع كثرة ثناء الشيخ وامتداحه للملوحة الزّفر . ظن العامة أنها طعام أهل
الجنة .

تقاطر الناس إلى الوادي السحيق الذي تحف به بقايا صخور ، تبلغ ذروتها في
الجانب الجنوبي المؤدى إلى شقّ الضباعة . تأكل مع الزمن من حتّ الحفاة ،
وحوافز الحمير ، صخورًا . دقّت مدقات ، تأكلت ارتفاعات ، تقاطرت طوابير
كالنمل ، تفيض إليه من سبعة فجاج تصب في أسواق الطيور والبيض . والتبن
والغلال والخضراوات والفواكه . والملوحة والنابت ، والمراكيب القديمة .

انكفأت جذوع رجال ، أعجاز نساء . انحسرت الطرح من على
ظهورهن ، .. لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغنيه .

من بين أقدام النساء ، وأرجل الرجال ، وعلى ظهورهم . من فوق
رؤوسهم ، وتحت آباطهم . وعن أيانهم وعن شائلمهم ، امتدت صحون الصاج
المقشرة ، كأنها أنصال سيوف صدئة ، وأصابع الزّفر تزغزغ الكلاب ، وتناغي
الصيّر ، التي ارتوت من مياه النيل وشبعت من طمّيه ، فبطّخت ، ونزّ الدهن
منها كأنه سمن الجاموس ، كبست وعتّقت في يلاليصها ، وصفائحها ، كما تعتّق
خمر بلاد الشام .

انطلقت الصحون تشق الدروب ، تُعبّق الطرقات بعطرها الفواح . بيوتات
معدودات تذوق لحم الأحد ، كل البيوت تمتد إليها يد الزفر .

في الحوش الواسع وبين النخيل حُسرَت رؤوس حليقة عمائمها ، فبدت
وكأنها رؤوس عجول سلخت . قُصَّت الذيول ، قُطفت الرؤوس ، بُقرت
البطون رَشَّت الشطة والكمون ، دُش البصل . عُصر الليمون . امتدت أيدي
الرجال كأنها قَدَّت من خشب مجدول . شفطت اللقم والخوابير مياه الملوحة
كأنها قطع من الإسفنج ، ملئت أفواه الرجال خُبْزاً وبصلاً وملوحة .

مسحوا شواربهم . أشعلت نيران ملئ سخان كبير ، غلت المياه ، أُلْقِيَ
الشاي ، والسكر .. غلا عدت غلوات ، علت الرّغاوي ، شفط الشافطون ،
كركر الغاب ، طقطقن الجمر هتف كحول :

- الجوزة في ايده والشاي على النار ولدى يا ولدى .
- كوع الشيخ خليل ، تسلل الرجال ، عادة جمع بها نفوس أناس ،
ألف بين قلوب لو أنفقت ما في الأرض ، ما ألفت بينها .

3 - ديل الكلب

[1]

رذالات . استنطاعات . إتاوات على كل داخل .. كل خارج ، قائم ، قاعد ،
طيور ، غلال ، بيض ، عيش ، في كل مدخل ، في كل مخرج نابيت ، شماريخ ،
جريد نخل .

- طواير . بالدور يا غجر - نفر .. نفر .

هز عصاته قال الشيخ خليل :

- تساهل العمدة معهم .. يُلوحون بمقتل السمعوني ، لست هو .. ولا
هُم .. هُم . لم يستخدم السمعوني إلا القوة . سيكون لي معهم شئون أخرى .
دعوهم الآن .

بعد أسابيع قال الشيخ لخفرائه :

مارسوا أعمالكم ، لا تتدخلوا بينهم وبين أي غريب .

قال شيخ الخفر :

- زحمة لم يشهدها السوق من قبل . زباين جديدة من بلاد بعيدة .

قال أحمد الجن :

- موسم . العيد آخر الأسبوع . يكثر البيع والشراء .

رجال أقوياء ونساء ، أطنان من الغلال ، وزرافات من الماعز والضان ،

خضراوات ، فواكه . حتى الملوحة كثرت .

- كل سنة وأنت طيّب :

تسلل رجال مع المتسللين احتجزتهم نيابيت الشرقاوية ، تظاهروا بالعصيان . انهالت عليهم أكف ، بصقت أفواه . ركلت أرجل .. امتدت أيدي الشرقاوية تنتزع المحافظ ، تخطف الملافح والشيلان ، اشتدت مقاومة الغرباء . تنادى الشرقاوية ، تداعوا من كل مكان ، رجال ، أطفال ، نساء . سدوا المداخل والمخارج .

أحيط بهم من كل الفجاج .. سيقوا جميعا إلى الدوار . زُمرا . زُمرا .. كأنها يساقون إلى الموت .

غضب النائب غضبا شديداً : انفجر في وجه المأمور . يهدد . ويتوعد ..
 - كيف يقبض على أهلي وعشيرتي . أعمامي وأخوالي ، أسياد البلاد دون علمنا . نحن الحكومة . نحن ولايات الأمر ، أصحاب النهي . لو أردنا أن نأمر بالمنكر ، وننهي عن المعروف لقال الناس آمين ..
 للشرقاوية علينا الأمن والأمان . ولنا عليهم السمع والطاعة . أليس كذلك يا فضيلة الشيخ ؟

قال شيخ الشرقاوية :

- بلى : هو كذلك .
- أين الأمن يا عمدة . قُطع طرق . سلب ، نهب بالإكراه .
- هؤلاء أعيان البلاد ، ولا يمكن أن يكونوا لمصوفا .
- وإذا ثبتت عليهم الجرائم ؟
- يضاعف لهم العقاب .
- قال المأمور :
- فليبدأ بتفتيش بيوتهم أولا .
- التفتيش إهانة للنساء ، وترويع للأطفال . نساء الأشراف لا تُهان .

- كل البلاغات ضدهم ، وضد نسائهم اللائي يفتشن الحريم في الأسواق وفي الطرقات ، ينتزعن الحلقان والحجول والطرح .. لا بد من التفتيش .
- إذا أهينت نساء القوم ، فلن نبقي في الحكومة يوماً واحداً . أنا ومن معي .

- أنت تعطل الأمن يا شيخ خليل .
- لا بد أن ينال الجناة عقابهم . التحقيق في كل الشكاوى
- افعلوا ما تشاءون . ولكن لن تفتش البيوت ، ولن يطرد القوم من ديارهم ، ولن تهان نساؤنا في المركز .
وكأنه يقول للمأمور هذا هو عقابهم .

تقدم الشيخ عبد العال نحو النائب ، يتوكأ على عصاه ، يطلع ظلعا بينا ، تكاد كتفه اليمنى تلامس الأرض ، يحجل كأنه غراب ، همس في أذن النائب .

- أنت كبيرنا ، أنت سيد البلد ، ولي أمر المسلمين .. والنصارى . لا تتركهم يدخلون البيوت . لا تدعهم يأخذون الحريم .

- همس : أخيراً اعترف بأننا السادة الجدد ، لأجعلن أغراض نسائكم وقفاً على الفقراء والمساكين وابن السبيل كما تقول يا مولانا . هكذا حدث نفسه النائب .

- همس المأمور :

- ماذا ترى يا عمدة :

- كل البلاد عرفت ولو تُركوا من غير عقاب رادع سيزدادون طغياناً وافتراء . أرى أن نطلق سراح النساء ، ونجلد الرجال في قلب السوق ، موقع جرائمهم أمام كل الناس ، حتى يكونوا عبرة ، ويرتدع غيرهم في المديريتين . ويستتب الأمن بفضل سيادة مأمور مركزنا : ابتسم ، هز كتفيه ، قتل شاريه ، إعجاباً بها سمع .

خرج النائب على قومه .

- أبشروا يا أعيان البلاد . يا شرقاوية يا كرام ، الباشا المأمور . رجل صعيدي حر ، باشا ابن باشا . لا يقبل أن تُهان امرأة صعيدية ، يشهد بذلك تاريخه العظيم ، قدّم استقالته مرة لأن مدير المديرية . طلب من امرأة صعيدية كشف وجهها ، قامت الدنيا ولم تقعد حتى اعتذر المدير ، عاد الباشا إلى عمله ، ونُقل المدير إلى السودان . كل ذلك بسبب حفظ كرامة امرأة فقيرة لا يعرفها .
فما بالكم بشرف نساء الأشراف .

لذا قرر العفو عن جميع النساء . أما الرجال فقد ارتضى حكم الشرع الذي أفتى به الشيخ عبد العال الكبير ، جدكم العظيم ، وسار عليه حفيده مولانا المفتي عبد العال . وفتاوى علمائنا لا تسقط أبدا . أتذكر . بم افتيت يا مولانا ؟
عض عبد العال على ناجزيه ، بلع ريقه تتم . تلجلج . تلعثم . برطم ، هطل ، زِيل . كاد يبيل سرواله ،

- اذكرك يا مولانا ، حكمت برد المنهوبات ، والمسروقات ، والجلد ، والطرْد .

- كيف يردون ما أخذوه في سنوات .
- سجل يا كاتب كل اعتراف لعبد العال .
- قال النائب : يا سعادة الباشا الرجل في موقف صعب ، لا نحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، هو يقصد أن ما أخذ لا يمكن إحصاؤه ورده .
- لا بد من التنفيذ .
قال النائب :

- كيف يُطرد أسياد البلاد من بلادهم ؟
- هذا حكم مولانا ، حكم الشرع كما تقول ، وقد جادلناك فأكثر جادلنا ، ولم تقبل نصحنا فيما مضى وقلت : وقولك الحق :

- ومن لم يحكم . بما أنزل الله . فأولئك هم الفاسقون . الكافرون ...
الظالمون ...

هَمَسَ عبد العال في أذن النائب :

- خف شوية . كله إلا الطّرد .

- سيادة الباشا . ثلاث عقوبات لا يستطيعون ..

- هذا حكم شرعكم ومفتيكم . وهي حقوق العامة

قال عبد العال :

- من الممكن أن يتنازل الناس

قال المأمور :

- أي ناس يا رجل السوق له سنين طويلة . هل نخرج الناس من قبورهم

ليسا محوكم . حقوق العامة لا تسقط أبدا .

قال النائب :

- لو جمعنا كل ما يملك الشرقاوية من أرض وزرع وبيوت وأطفال ونساء

ورجال ، وبعناهم جميعا فلن يسدوا شيئا . أنا شذك الله ياباشا أن تعفيهم من

الغرامة .

قال المأمور : فكرة البيع جيّدة . تحل المشكلة ..

- نباع كالغنم ؟

- بقدر سداد الديون .

- ومن يجروّ على شرائنا ؟

- أصحاب الحقوق .

- العوضية يا باشا !!

- سمهم ما تشاء . إنهم أصحاب الحق . وهم قوم طيبون سيحسنون

معاملة مواليهم ، وما ملكت أيّانهم من النساء .

- لسنّا أسرى حرب
- لا بد من تنفيذ باقي العقوبات التي حكمت بها يا أبو الفتاوى .
- ملعون أبو الرّفت :
- كاد يُغشى عليه . الشرقاوية يُطردون من بيوتهم ، يباعون للعوضية . تنكح نساؤهم .. تُسبى ذرارهم .
- اقترّب من النائب :
- الشرقاوية جميعا خدم لكم إلى يوم الدين ، عبيد هم وأولادهم وأزواجهم . لكن لن نباع للعوضية . قط .
- ترجى المأمور يا شيخ خليل :
- أوما المأمور .
- خرج عبد العال على قومه .
- بعون الله . وكرم الباشا . وجهود جناب نائب العمدة . حكّمني
- فحكمت بالجلد فقط . وضرب الحكومة ليس عيبا ، طاعة أولي الأمر واجبة ، نتقرب بها إلى الله علّه يغفر لنا خطايانا .
- قال النائب :
- شكرا لك يا فضيلة الشيخ :
- ينتشي عبد العال بالشيخ وبالفضيلة ، وهو لم يتجاوز حفظ ياسين وتبارك وقصار السور . وخطبا من كتاب كيف تكون خطيبا .

في قلب السوق الكبير تحلّق أناس من كل البلاد ، قعوداً متربعين ، ثم جثاة على الركب ، ثم رُكعا ، ثم وقوفا ، حتى لا يُجيب أحد عن الرؤية . مشهد لم يحدث ، وقد لا يتكرر .

نادي بالترتيب . واحد ، واحد ، نفر ، نفر .

بدأ الضرب بتريث ونظام . لا يقل عن عشرين ، ولا يزيد عن ثمانين ، تحمّل من تحمّل ، صرخ من صرخ . لم يتوقف التنفيذ.

لم تكن السراويل من ثقافة الشر-قاوية ، نوع من الفجور ، يتجردون من ملابسهم لإعازة الآخر . الذي يُججل وينصرف حتى نساؤهم يفعلن .

- لم يتبق إلا نفر واحد .

- لن يفلت من العقاب أحد .

- الجميع سواء ، أكمل المناذاة .

- سيد محمد أحمد علي .

لم يرد أحد . كرر النداء عدة مرات .

تناول الشيخ عبد الله ، أحد شيوخ البلد الكشف :

- سيد محمد أحمد علي وشهرته الشيخ عبد العال أبو الطواقي .

هُرّع النائب ، اختطف الكشف الذي كان قد أعدّه بنفسه ، ووضع فيه من شاء من الرجال والنساء ، منهم من لم يدخل السوق قط .

- جسد الشيخ عبد العال محرم ، حرمة أجساد الأنبياء على النار ،

شريف ابن شريف ، كريم ابن أكرمين .

قال المأمور :

- لا بد من تنفيذ العقوبات على الجميع كما يقول الشيخ عبد العال

نفسه .

"إنما أهلك من كان قبلكم ، كان إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإذا سرق فيهم الشريف تركوه " .

- إذا كان لا بد من التنفيذ ، وجلد الشيخ عبد العال في السوق أمام كل الناس . فالعمدة ، ونائبه ، وعائلتنا كلها فداء لفضيلة الشيخ . وأنا أولهم لن يُمس الشيخ قط ما دمت حيا .

قال المأمور :

- أنا شديد الإعجاب بك وبشهامتك . واحترامك لأهل بلدك . لن يعاقب الشيخ عبد العال إكراما لك :

على الغداء :

- شكرا يا سعادة الباشا .
- خيرك على الحكومة يا عمدة . لولاك . لا نستطيع ضبط الأمن ، ولا القبض على أي حرامي ، أو قطعة سلاح .
- شكراً يا باشا . لا غنى لنا عنك . شايلينك للكبيرة .
- للمصيبة ؟
- إن شاء الله
- تضاحكا تصافحا ، تودّعا .

4 - مَلَالِيمَ فَرْحَانَةِ

بعد صلاة العصر تَنْفُصُ أسواق ، تَبْقَى أسواق ، تجمعات هنا ، وأخرى هناك . زحفت .. نساء .. بنات .. غلمان . كأن الزاحفين نمل يتشمم .. فراخ تنكش .. تنبش التراب .. تحصحص الحصى .. ملاليم تعاريف .. قروش ، سقطت في التراب .. غاصت في الرمال ، تاهت تحت طقاطيق الأرض . يئس صاحب النقود . نفص يديه .. قلب كفيه .. حوّل . سبّل . استعاذ . استغاث . استعاض .

فلما جَنّ الليل عاد نمل الزاحفين . فراخ النابشين الناكشين . تظل خالتي (فرحانة) تُعد الحصى ، تُرمل الرمال تنخلها بين أصابعها تقلب الأحجار في خطوط مستقيمة . تبدأها من أعلى صخرة الضبّاعة ، حتى نهاية سوق اللحم ، وكأنها تسعى بين الصفا والمروة ، بأصابع قصيرة ممتلئة ، من شدة يبسها لا تكاد تُطَبّقها . تساعدها أظافر قوية طويلة ، تقلّب بها التراب ، كأنها أنصال سكاكين ، أطراف مبارد عريضة . مسامير حدادى صلبة قوية .

تلملم الشمس أذيال فساتينها ، أهداب وشاحها ، تنكسر عينُها .. تنسحب على استحياء .. تُرْخِي حجابها .. تُسدل نقابها . تتوارى فرحانة خلف جدارها تعد ملاليمها .. تنظفها تجلوها .. تتدسر بظلمة الليل .. تستدفئ من البرد بالبرد .

تعانق شمس الشروق تودّع شمس الغروب . ظلت دهرها تزحف .. تنكش .. تنبش .. ماتت فرحانة . خلا السوق من الزاحفين .. ظل نبش تربة السوق مسجلا باسمها .

5 - لَبَّسْنَا طُرْحًا

[1]

- هذا الرجل معنا أم علينا ، مع الحكومة ، ولا مع الناس .
- وقف للمأمور كالأسد . لولاه لبات نساؤنا في المركز (تبهدهم)
- العساكر .. خاف عليهم كأنهم حريمه . همس الشيخ عبد العال .
- كل البلد حريمه !!

فضحنا في المركز كله . لن نرفع الرأس بعد اليوم ، نُجَلَد ونُضرب عرايا على بطوننا وعلى ظهورنا وسط السوق . لم يفعلها سلطان الجبار ، ولا الوالي نفسه . لا نستطيع أن نفعل ما فعله الشرقاوي الكبير . الزمن غير الزمن ، وأبو مهران غير ابن شاهين . عددهم قليل ، وهذا سر قوتهم ، لا يتراجعون ، لا يتزحزون ، لو انكسروا مرة واحدة ، فلن تقوم لهم قائمة . كنا نظن أن نهايتهم على أيدينا . لبَّسونا طرْحًا ، يضرب ويلاقي (عمي عبد العال) . أبويا عبد العال . فُجِّر ما من بعده فجر . يلعن أبوك على أبو عمك عبد العال .

[2]

بعد أحداث السوق ، انزوى الشيخ عبد العال ، كاد يموت كمدًا ، مرض مرضًا شديدًا ..

بخفة طرق الباب .

- من ؟

- خليل :

همست يا منة الشرقاوية :

- «قال الله ولا فالك» . أي مصيبة وراء هذا الرجل !!

- الشيخ مريض .

- أعرف ذلك . جئت ومعى الدكتور ، وسعوا الطريق . علمت أنك مريض فاستدعيت الدكتور من نجع حمادي .
- بعد الفحص .
- لا بد من تناول هذه الأدوية . سأرسلها لكم قريباً .
- قال الشيخ خليل :
- سأحضرها بنفسى اليوم .

[3]

- كانت وداد ، أشهر غزية فى قنا ، شديدة التعلق ببطل التحطيب الذى أحرز كأس الأمير يوسف كمال عدة مرات ، استضافته ، قضى ليلته فى ضيافتها ، قبيل شروق الشمس كان الدواء فى بيت عبد العال .
- لم تتبق فى سوق النسوان طرحة واحدة ، ألْبُسنا كل الطرح . مسح الشرقاوية مسحاً ، دون أن يرفع نبوتا واحداً . لا حل إلا الموت ، أنا أو هو ، أو كلانا معاً .

[4]

- تكررت زيارات النائب للشيخ عبد العال .
- هناك واجب :
- عند المزينين
- عند الحلبة
- عند النقاقلية
- هاتوا الشيخ عبد العال :
- تفضل يا شيخ عبد العال .
- وصلوا الشيخ .. أحرصوه من الكلاب .

- يريد أن يفرّج على خلق الله . عمره ما أخذني لواجب عليه القيمة . ولا أشركني في مشكلة محترمة . مضطر للسمع والطاعة .
- سرقة بيضة ، فروجة ، كوز درة ، عضّة كلب .
- هذه قيمتك عنده !!
- ابعثوا بهذه القضية للشيخ عبد العال
- الناس يتندّرون الشيخ :
- أبو الكلاب :
- أبو ديك
- أبو البيضان .
- نسيوا أبو الطّواقي .

[5]

فاتتنا العمدية والمشيخة ، لم نحصل إلّا على غفير واحد . يركض حافيا تحت حوافر جحش العمدة .

لن انتظر صدقاته . لن استجدي دورًا . أنا الشرقاوي ابن الشرقاوي الكبير .

تنقل من بيت لآخر خلاف بين امرأة وزوجها في أطراف البلد . من أهلك الشرقاوية من جيرانهم .. جيران جيرانهم . لم يصل خبر للنائب . مد نفوذه توسّع .

- اتركوه يتنفخ ، راقبوه .
- بين الوالد وولده ، أمه وأبيه . صاحبتة وبنيه .. هو معهم أينما كانوا في البيوت في الحقول . في الأسواق .
- يتعارك المتعاركون ، يتخاصم المتخاصمون . تزعل الرجال ، ترمق النسوان
- يُجَبّص بالنهار .. ويصلح بالليل .

"إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيئوا النهار" .. لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام .

الصلح لا بد أن يكون شرعيا . على يد شيخ من شيوخ الدين . وإلا فهو باطل .. باطل . تدخل في شرع الله ، صلح الحكومة إكراه . و صلح المكروه غير مُلزم للطرفين ، لذا وجب نقضه . ومن أجازه فهو آثم .. آثم . لذا وجب على علماء المسلمين الصلح بين الناس ، قبل أن تقع الفاس في الراس .

[6]

- بلغني أنه قد وقع بينكم وبين بني عمو متكم خلاف كبير . وقتال شديد .
- لم يحدث شيء من ذلك .
 - قلت إنه حدث . لقد رأيت فيها يرى النائم .
 - هتف الشرقاوية .
 - الله أكبر .. رؤيا الأولياء حق . وكل ما رآه الإمام تحقق . اسمعوا قبل أن يحل عليكم غضب الله والناس أجمعين .
 - قلنا لم يحدث شيء :
- قال الشيخ :
- سيحدث إن شاء الله . وسأصلح بينكم الآن ، ثم تعاركوا متى تشاءون .
- فهو واقع لا محالة .

[7]

- قال عبد العاطي وكيل شيخ الغفر .
- لم يعد لنا من الأمر شيء . بالأمس أنهى مشكلة بين الضباعة والرجالية : أهالينا . ونحن لا نعلم

- تدخّل في كل شيء .
- النائب مشغول بالموالد . كل يوم في بلد.
- لا بد من إبلاغه بكل شيء .
- ابن الضبع اصطاد حمامة من حمام الرّجالية ، تهاوش غلامان ، نهرها حمدان الرجيل . تفرقا ... ركب الشيخ عبد العال . أمام بيوت الرجالية توقف الموكب الكبير :

- موكب .. وكبير !!

- هو وقبيله .

قال الشيخ عبد العال الثالث :

- الحماة يا معاشر الرجالية كالأم . كالبنّت . كالزوجة . هي شرفكم وعفتكم وطهارتكم . من اعتدى على حمامكم فكأنها اعتدى على نسوانكم .
أتدرون لماذا سماكم الأولون رجالية ؟ السابقون من الأنصار والمهاجرين ، في كتب الأقدمين في أساطير الأولين . في مساخط الفراعين . في التّوارة . في الأناجيل . في صحف المطهرين . لقد ذُكر الرجال في القرآن أكثر من خمسين مرة . ولم يُذكر اسم الضباعة مرة واحدة .. أنتم الرجال الذين لا يلهيكم بيع ولا شراء عن حفظ الشرف وصيانة العرض ، تحبون أن تتطهروا من ظلم الظالمين ، وعدوان المعتدين .. رجّالة ورجّالة يعني رجّالية .. راجل من ظهر راجل ، رحم الله جدكم العظيم أول من قال " النار ولا العار يا رجّالية "
من حج منكم رأى في الحرم حماما .. هل يستطيع الملك نفسه . أن يهش حمامة واحدة ؟

أهل دنشواي من بلاد بحري . حاربوا الإنجليز من أجل حمامة .. وهم ليسوا صعايدة ولا رجالية ، وأنتم تخافون وتجنبون أمام عدوكم الذي اعتدى

على شرفكم وكرامتكم وحرمة بيوتكم ونسائكم . من قتل حمامكم فكأنها قتلكم جميعا .

ألم تسمعوا غناء الغلمان في الدروب .

- حمامه .. حمامه

لبسوا الطرح

خلعوا العمامه

لا حصلوا حريم

ولا رجاله .

حط الضبع مناخيرهم

في الزباله .

كل دا

وعاملين رجّاله

روحو تنيّلوا

في ستين خراّره .

جاءني جدكم الكبير غاضبا ، قال : سكان النار كلوا وشيى يا مولانا قل

لأحفادي :

يا أشباه الرجال . ولا رجال ، اعملوا بحكمة جدكم تلحقون به : " النار

ولا العار " . النار للرجال .

نادى مناديهم :

حيّ على الجهاد

- الموت في سبيل حمامنا ، أسمى أمانينا .

اندفع : حمدان والبرداويلي وبلخوس . والحطاوي ، وعلى الفلكس ، وحسن
الفَسُو . هُرْعوا إلى نبابيتهم .. اندفعوا في أرض السوق التي .. انفصل بينهم وبين
بني عمومتهن الضباعة . حاصروا البيوت :
- لن نرجع إلا بعد غسل العار . واسترجاع ذَكَر الحمام .

لم يتمكن الشيخ خليل من لبس نعاله ، قفز على صهوة جواده حاسر الرأس ،
حافي القدمين ، انطلق الأشهب كالشهاب يسبق الريح عدوا ، ينهب الأرض
نهبا ، يطوي الزمن طيا .
شق الصفوف .

- لأول مرة يقع ما وقع ، يحدث ما حدث ، أهلي وعشيرتي أبناء عمومتي ،
يسمعون كلام أعدائنا . لقد خرج الأجداد من الأجداس ، يجنون في الأكفان ،
فُتحت أبواب الجنان ، كُسرت أبواب النيران من هول ما حدث ، الشقيق يهدم
بيت شقيقه . ما سمعنا بهذا في أجدادنا الأولين . ألم تعلموا أن أباكم واحد .
اتقوا الله يا أحفاد العباسي الكبير ، الذي منع الظلم والبغي والعدوان ، وجعل
نهار الظالمين سوادًا في سواد ، وبدد ظلمهم ، كما يبدد ضياء الصبح ظلام الليل ،
فظهر الحق واضحا ، كبياض النهار ، لقد غزاهم على فرسه الأشهب جد
خيلكم هذه التي تركبون .

لم يستطع خبّاص ولا تّمام ، ولا وسواس ولا خنّاس ، أن يفرق بينكم يا أعز
الناس ، تعالوا إلى كلمة سواء .

في الدوار ، دار الشاي ، لم يقل أحد شيئا .

6- إِنْ كُنْتَ رَجُلًا !!

[1]

نشطت خلايا الخُبص واللّص والدّسّ ، الكامنة تحت جلود الشّرقاوية الذين لم يُبق لهم خليل العباسي سواها .

قال عبد العال الشّرقاوي محرّضا الشّهانة : ألا ترون ما يفعلهُ أولاد العباسي . لولانا لأكلوا الناس جميعا ، تعالوا ننسى الماضي ونقف جميعا في وجوههم .

بلغ القول كبير الشّهانة فقال :

- ليس لنا أعداء غيرهم ، ولا خلاف بيننا وبين أولاد العباسي ، وهم لا يجرؤون على فعل شيء ضدنا « فليس كل الطير يؤكل لحمه » إذا خلت البلد من شر الشّرقاوية ، سلم الجميع . وقد كفانا خليل العباسي شرهم ، فلم يتبقّ غيرنا نحن :

وما أدراك ما نحن !!

خلاهم ما خلا .. انطلقت خيل الشّهانة وركابهم في كل الدّروب تُكعبل من تكعبل .. تُغبر كل شيء .. ويل لمن يعترض .

[2]

أمام بيتها ترّبت الخالة " عسّكرية " أمامها حصيات ، تقذف من تشاء ، تسب من تريد ، ترحب بهذا ، تبصق على ذاك . تعال يا ابن زينت الحمرة . أمينة القرعة ، حليلة الشّتلة . يا منة العمشة .

لا يهم الناس أمرها ، يهمّها أمر كل الناس . خبايا الخلق أجمعين : أنساب .. أصول . فروع فضايح الأولين والآخرين ، كل الناس أولاد كلب ، كل الرجال

حرامية ، كل الحريم زواني . تاريخ البلد حاضر . لا يسلم العمدة نفسه من لسانها ..

- تكبرت على خالتك عسكرية - نسيت عيالك من المحمودية كنت آتيك بها عز الليالي . تسللت هائجا . فلما لم تجدها عندي قلت : البركة فيك يا خالة .

- كسرت ضلوعي يابن الكلب .
لم يعد العمدة يمر أمام بيت عسكرية .
وضعت صحن المش . فردت رجليها تستقبل شمس الشتاء . دشت البصلة ، كسرت الكسرة .. طار الصحن ، غطاها الغبار . كعبها الحصان .. صرخت :

تيجي على الغلاية ، يا ابن شاهين ، إن كنت رجلا خذ بتار جدك الي أكلته كلاب الشرقاوية ، بعترت مصارينه ..

لم يستطع أحد أن يهمس بها منذ عقود .. نسي الناس . تناسي الشهاينة .. لم يعد أحد يذكر شيئا .

نكشت العجوز جراح السنين ، فجرت ينابيع الحزن ، والألم والدم ، والعار والنار . نكست رؤوساً تعالت . وأعناقاً تطاولت ..

[3]

مد شاهين الكبير جبلاً من المصاهرة مع بيوتات عديدة . تزوج ابنه أحمد «جليلة المحمودية» .. فلما قتل عبد الله المحمودي . شاهين الكبير . انتقلت «جليلة» إلى بيت أهلها وهي حامل في ولدها (بدوي) الشاهين ، تربي في بيت

أخواله ، لم يكن يعرف له أهلاً غيرهم .. فلما شب رجع إلى أهله . دربه خاله على الصيد والقنص .. وركوب الخيل .

لم يُنْزله فارس من على جواده . إلا صيحة حيزبون السوالم : إن كنت رجلاً !! لأول مرة يتشكك أحد في رجولته . في بطولته .. حددت (لو كنت) مسؤوليته دون غيره . هو المعنى دون سواه . عليه أن يجيب قبل أن تموت العجوز .. عز الطالب والمطلوب .

كان عبد الله المحمودي أداة في يد الشرقاوية هددوه توعدوه تبرؤوا منه ، فر المحمودي .. ثبت الجرم .

ولكن من أقتل !!

لم يتبق من أولاد المحمودي الاحسان : خالي وأبي وأمي . تربيت في حجره .. تنططت على كتفيه . علمني الرماية . ركوب الخيل .
ولكن " إن كنت .. " تحترق أذني ليل نهار . في اليقظة . في المنام .

رفع نبونه . هم . احتضنته . صرخت .. اتقتل خالك !!

قام مذعورًا .. صك سمعه : إن كنت !!

خلف نخلة لبد . التصق بها كأنه فسيلتها .. صنوها . مدَّ خرطوشه . أغمض عينيه ، دوى طلق . سقط حسان المحمودي . هُرع إليه احتضنه .. صراخ : ساحني يا خال !! التقطه قومه .. فروا به . تفلت ، قوة هائلة . عدو لا يمس الأرض .

- أيتها العجوز : لن تبتني ليلتك .. أنت القاتلة .

سقط .. مات فارس بني شاهين .

شَقَّتْ الحشودُ المحتشدة . الجموعُ المجتمعة .. مزَّقت ثيابها إلا ما يستر .
جزت شعرها . طَيَّنَتْ نفسها . على رأسها صبت جاز اللبنة . يعود ثقاب
لوحت .

عاش دنياه في حضن خاله .. لم يفارقه طوال حياته . ولن يُفارقه بعد مماته ..
سأشعل النار ، سأحرق الدنيا إن لم يُدفن في قبر واحد :
تلاطمت الجموع كال موج يضرب بعضها بعضا .. قتال لا محالة ، من فوق
جواده صاح مدير الأمن :
- هي صاحبة الحق دون غيرها . نفذوا لها ما تريد .

القاتل والمقتول في قبر واحد !!!

تحت أرجل خيلهم جلست جليلة المحمدية :
- فقأت عيني .. عيني .
فَصَمَ ظهري .. ظهري .
شَلَّتْ يميني .. يميني .
أخي .. ولدي
ولدي .. أخي
جرح لا أتمنى شفاؤه
حزن لا أريد ذهابه .
شفَى صدورهم دُمٌ ولدي . أخي .
أعمار الناس كلها لا تكفي . دماء الناس كلها لا تشفى ، تاري عندهم
جميعا . ولدي أخي ، أخي ولدي . أنا القاتل ، أنا المقتول .

صدق من قال :

- لا يُسْوس ولا يُعْطَن
- من كان يظن أن الشهانة : البيض المظلّظين يأخذون بثأرحم ، بعد كل هذه السنوات ، لا أحد ممن شاهدوا قتل شاهين على قيد الحياة ... حكايات يحكيها عواجيز . والقاتل من ؟
- الولد الدلوعة ، يقتل خاله !!
- هو أبوه الذي رباه .
- الشهانة يتيهون فخرا وغرورا .
- ربنا يستر .
- خليل لهم بالمرصاد .
- ليس كل الطير يا ولدي !!

[4]

المحمودية يقولون :

- جدنا لم يقتل . القاتل هو الشرقاوي .. أتهم جدنا ظلما فر هاربا . مات في الغربية . لا نعلم كيف مات ، هل مات ميتة ربه ؟ هل قتل ؟
- همس خبّاص
- الشهانة استضعفوكم .
- عاد الهم والغم . والخوف والقلق . والدس والخبص . وأهالينا يُحْلُون بالغبية والنميمة .. ورد مؤرود رُفد مرفود . يُرْطَبون به ألسنتهم وأفئدتهم . قبل النوم وبعده .

- نمت يا مولانا ولم أتلّ الورْد .

- عليك بالكفارة : تغتاب ستين مسلماً .

قال المحمودية :

- قتلوا كبيرنا . لن يسد فيه إلا مصطفى شاهين نفسه :

جُزِعَ الشهاينة :

- أخذنا ثأرنا ، ومات ولدنا ، المحمودية جميعا ، ومعهم الشر-قاوية ، لا

يسدون في غلام منا . ولو مسوا ثوب الشيخ مصطفى لقتلناهم جميعا .

اشترى الشهاينة السلاح من كل مكان - زادت الإشاعات .

- قبل العيد سيتقم عباس المحمودي لعمه . اتصل بالعرب . والهواشم ..

اشترى سلاحا .

- سنملاً بيوتنا ، تكتموا . لو علم خليل لأبلغ عنكم .

- لا يستطيع .

لم يخطر على بال الشهاينة أنه المورد الوحيد لكل السلاح .. امتلأت بيوتهم .

فرغت جيوبهم .

استيقظ الشهاينة .. بيوتهم تحاصر من كل مكان . سُدَّت المداخل .

المخارج . المنافذ . اقتحم العسكر .. فَتَّشُوا كل جُحْر .. استخرجوا كل سلاح ،

كأنهم كانوا يعرفون مواضعه .. عدده .. نوعه .. أَطْلَقَتْ أعيرة مجهولة . رد "

الشهاينة بكثافة . قُبِضَ عليهم جميعا . سوقوا : رجالا ونساء . حُفَاة عراة .

- تخزين أسلحة بدون تراخيص بقصد التجارة ، وترويع الأمنين مقاومة

السلطة يقبض على كل من :

مصطفى شاهين

حسن شاهين

أحمد شاهين
علي شاهين .

من مصر استقدم لهم الشيخ خليل أكبر المحاصرين بعد عدة جلسات . حكم
عليهم جميعا .

تمتم الشيخ خليل .
- كل الطير يؤكل لحمه يا صديقي .

7- وراودته التي ..

[1]

صار الشرقاوية مضغة .. لاحتها الأفواه .. بصقتها في كل مكان اقتحمتهم
العيون . لم يستطع أحد أن يجهر بسوء ، ظلت أجيال تتهامس .
- طردوه كالكلب
- جابت مناخيره الأرض .

قال نسوة في البلد :
- رأيت البياض والحمار . جُنّ جنونها .. ارتمت في حضنه . قبل أن ينطق
هتفت :
- قبلت زواجك على كل المذاهب . أبو النعمان . وأبو القمصان . التوراه ،
والإنجيل ، والقرآن .
من غير مذاهب .. وهبتك نفسي .. ملكتك جسدي .. أناملك يمينك .
وشمالك . وكل عضو فيك .. أنا أملك . أنا حرمتك متى شئت . من قبل
الصلاة . من بعد الصلاة أثناء الصلاة .. كيف شئت : " قائما . " قاعداً ..
راكعا . ساجداً .. ساعيا .. طائفا . لن تغادر الدار إلا إذا دخلت بي .
دخل ولم يخرج .

قال الشيخ عبد العال الشرقاوي .
- الحقيقة أن جدنا ، أرسل خادمه شاهين ليخطبها . فخطبها الخائن لنفسه .
فلما علمت طلبت الطلاق . وهربت إلى بيتنا فردها . جدكم الشرقاوي الكبير لا
يقبل فضلة أحد .

قال نسوة :

- أشطّر من صاحبة يوسف التي فضحت نفسها ولم تنل شيئا .
- ماتت ونفستها في الولد الحليوة .
- لو كنت مكانها لقرقشته .
- العشق كان زمان وجبر . فيه واحدة تقدر تعمل زيبا هذه الأيام ؟
- حصل . وحاصل .
- من ؟
- المرة الحلوة الدلوعة بنت الأكابر .
- كمان مرة موش بنت !!
- ومخلّفة رجالة
- غجرية . لا أصل ولا فصل .
- بنت أصول الأصول . زوجها من قريبها العجل خلفت منه جوز
- ثيران . بعد سنين عشقت خادمها ...

- أقفلي خُشمك يا ولية . لو أي أحد سمعك سيكون آخر يوم في عمر
- الذين خلفوك ، والذين لم يخلفوك .
- الخبر مالي البلد .
- زليخة الشرقاوية .
- الولد حليوه . يتحب :
- كلهم بيض وحلوين عيال الصاوي .
- محدش عارف .. جاين من أي بلد .

- عيلة صغيرة ، يعمل عدد منهم في حفر القبور ، ومنهم السقاء ، ومن يعمل في البيوت .

- محمود كأنه اتولد في بيتها ، تربى تحت أقدام نسوانهم ، يدخل كل الغرف ، لا تحتشم النساء منه ، تبدل ثيابها أمامه ، يُعدّلها الماء الساخن ، .. يدلّكها .. يدعك لها ظهرها .. كأنه بنت .

-3-

لم يتجاوز عمره السادسة حين ضمّته لخدمتها . يجري تحت رجلها . بين رجلها ، لا يغادر البيوت إلا نادراً . أمه تعمل في البيت . آخر النهار تأخذ عشاها وتنصرف .. تُحميه الشقاوية معها . تخلّل شعره الناعم ، تقبّل وجنتيه . أنت آخر العنقود ، مع أنها لا تزال في عز شبابها .

- هل هذا ألفتى ، الشاب ، الرجل ، هو الذي كان طفلاً منذ أيام . سنوات مرت . أم ساعات . ماذا تسميه ؟ أحيانا أُناسي أقبّله . ينتفض . يقشعر بدني . أحسّت به ، أحس بها ، ضمته . التقت شفتيه . أنامته فوقها . أغمى عليه .

...

طوال النهار لا أحد بالبيت . الغلام ليس مؤهلاً لزرع أو حرث : لا يجيد إلا خدمة البيت . علّمته العجن والخبز والطبخ ، والحلب والخض ، انكسر - الحاجز .

- يا خواف . كنت هتموت . تعال جنبي . جذبتّه فانجذب . دلّته على الطريق . لم يستطع أن يرجع ظل على سفر دائم . تمنعت عدة أيام ، لم يكن ابن السابعة عشر يعرف الأعدار ، لا يرفع نظره عن عجيزتها ، يهتز قلبه ، يهفو فؤاده . يترصد كل حرّكانها ، ينتظر دعوتها في أي لحظة ، ما دام الباب الكبير مغلقاً .

انكفأت تتفقد البيض . انحسر ثوبها إلى بداية ظهرها . خُلِق كأنه يُبصره
لأول مرة . لم يطق الفتى صبرا . اندفع ، اعتلاها كأنه تيس ينزو .

حاولت أن تتفلت . لم يمكنها . استسلمت . حين استدارت لطمته دَوَى
الكف كأنها لطمت دَفًا .
بكى بكاء شديداً ، احتضنته ، صبت عليه ماءً ، سأحميك . ستظل طفلا ..
طفلي أنا . ولدي .. حبيبي .

الدروب خالية من المارة تماما . التفت في بردتها .. تسللت .. أمام بيت
الصاوي في الدرب الضيق تمشت عدة مرات . لم تلمح أحداً . دلفت .
أين محمود ؟

- مريض .

- قم معي الآن .

- لا أستطيع أن أدخل بيتكم .

ستدخله عز النهار ، عز طقاطيق القيالة . أمام حسنين وأبوه وكل البلد . إذا

لم تقم فسأتهمك بالسرقة . ويل لك من حسانين .

قالت الأم : اذهبي الآن وسأتي به بعد قليل

- لا بد أن يأتي وحده قبل العصر .

- حاضر يا ست فرحة .

اختلت الأم بابتها:

- عمتك فرحة مربياك زي أمك : لم ينطق . لم تعد الأم آمنة على ابنها ،

سأذهب معك . ونعود معا .

- يا ليت يا أمي .

بعد ساعه

- مع السلام يا ولية محمود سينام في بيته : هنا ...

انصرفت الأم . رقرقت الدموع في عينيه .

- هل قلت شيئاً لأمك ؟

- لم أتكلم .

- لن يصدّقك أحد ، وستدفع عمرك ثمناً لأي كلمة

تشممت الكلاب الضالة روائح العطر والصابون . برح الخفاء

- امرأة الكبير تراود فتاها .

ولكن منذ الذي يتنفس !!

[4]

- العلاقة بينك وبين أخوالك تزداد سوءاً يا حسنين .

- كنت ماراً في الطريق الذي يؤدي إلى زراعتنا ، فوجدتهم قد أغرقوه .

فنزلت أجر حمارى . فصفقوا . قال كمال الدين .

- لا أحد يمر أقام بيوتنا راكباً . مضيت ولم ألتفت فالتفوا حول الحمار

وأوقفوه .

- سامع يا حمار ..

ثم أمسك بالحمار وقال :

- لست أنت الحمار .

فنهرته رفع يده . قبل أن يكمل رفعها سقط على الأرض طاردت الباقيـ

حتى أدخلتهم بيوتهم .

- ابن خالك بين الحياة والموت ..

- يتعالون علينا بكثرة عددهم . فليعلموا أنني سأعلمهم الأدب .

- أمك غاضبة
- فلتلحق بأهلها متى تشاء . وقد حذرتها من تكبرها علينا . وسوء
معاملتها لك ، لا تقدم لك طعاما ، ولا تسأل حتى عن غسل ملابسك ، تترك
تنام في أي مكان . تهتم بالولد الخدام أكثر من البيت كله .
- لا يزال طفلا .

[5]

تستتر «بخيتة العوضية» وراء بيع الخناء والطّرح والمناويل ، والغوايش
والعداني ، وكل ما يلزم النساء من أدوات الحريم .
- دواك يا ولية ، لا شافع ولا نافع ، الرجل كما هو .
- احكي لي ما تفعلين .
- بس يا خاية .. سأعطيك درسا لن تنسيه أبداً ، ولي الخلاوة ..
- على قد الخلاوة .. تكون الخلاوة ..

قالت فرحة :
الولد له عدة أيام لم يأت طمّنيني عليه يا بخيته .
- سيكون عندك في أي وقت .
- لا يريد أن يدخل بيتنا
- بيتي وبيتك واحد . غداً سيكون عندي
تمخّطرت عز النهار ، وجدت الباب مفتوحا . غادرت العوضية منزلها .
عادت بعد حين .
صباحية مباركة .

ودعتها قفلت راجعة . حين عادت بخيته قبلته . طبّاخ الـ.. يدوقه...

تهامس متهامسون .. تغامز متغامزون .. تشمم من تشمم . فاحت روائح .
السرقاوية تطارد فتاها .
لكن الرياح تُغير اتجاهها بعيدا عن أنوف السرقاوية.

[6]

يمشي في الأرض مرحا ، مختالا ، فخورا ، يموج ب صدره العريض كأنه ذكر
بط . يُطنقر عمامته تكاد تُغطي عينيه . لا ينظر حوله قط ، لا يلتفت وراءه حتى
لو قامت القيامة ، رأسه إلى فوق . لا يرى ما بين رجله ولا ما بين يديه .
في زحمة السوق . رجل كأنها خف بعير هُرس رجل بائعة السمنة " زنيب
الهلالية ، دون أن تُبصر ، صرخت :

- حاسب أنت أعمى ؟

لطمها . صرخت .

- تضرب مرة يا ابن الكلب .

لطمها :

اخرسى يا بنت الكلب .

- لو كان عيلتكم فيها رجل . للمك من الأسواق ورفسها رفسة أطاحت

بها ، تكشف جسدها الأحمر ، تعرت زنوبة الحمرة . لمي نفسك يا بنت الكلب .

- روح لم أمك . الليل كله والنهار كله تجري وراء عيّل أصغر من عيالها .

برك عليها خنقها كادت تزحق روحها

- من يا بنت الكلب ؟

من حلاوة الروح

- ابن ... ابن .. انطقي يا بنت الكلب .

- الصاوي

لطمها . تف عليها وعلى كل الحاضرين وانصرف .
إشاعة أطلقها الشهاينة يريدون بها كسر نفس بنت الشرقاوي . ست البلد
كلها . تنظر إلى خادمها الويل للجميع لكل البلد .

-7-

في المساء قتل الهلالية شواربهم الطويلة الغزيرة .
- ما حدث عار ، لا يغسله إلا الدم .
قال الشيخ إبراهيم الهلالي :
- استمرت الحرب بين بكر ، وتغلب ، أربعين سنة ، لأن كليبا التغلبي
أهان خالة جساس البكري . فقتله جساس ، وكان كليب ملكا على العرب
كلهم .
- في المدينة النبي وأصحابه ، خاضوا حربا ، لأن رجلا حاول رفع ثوب
امرأة .
- المعتصم العباسي حارب الروم ، أكبر دولة ، لأن رجلا رومانيا لطم
امرأة عربية .
- وانتم : تهان نساؤكم في السوق ، وتستباح أعراضكم ، وتأكلون
وتشربون وتنامون يا أشباه الرجال ، ولا رجال لا نامت أعين الجبناء .

في هدوء هادئ طرق الباب .
- من ؟
- حسانين .
نهض الشيخ إبراهيم . أدار ظهره للقابلة .

- نؤيت أصلي أي شيء . لأي أحد . الله أكبر . خر ساجداً دون أن يركع
(عففص) على رقبته لم ينس . ظنه فارق الحياة .. قلبه على ظهره . بسط الرجل
يديه . عد على أصابعه ، كأنه يختم الصلاة ،
- اللهم إني أشهدك أني كلب ، ابن كلب ، وأجدادي كلاب وأحفاد
أحفادي إلى يوم الدين : وكل نساء اهلالية شراميط أولاد شراميط . آمين .
آمين . اللهم استجب . لم يحرك هلاي ساكنا .

-8-

طاف بالبلد .. سهر في كل الدكاكين ، تسمع كل الشفاه . رصد كل
الحركات والسكنات . لم يلحظ غمزا . ولا همزا ، ولا لمزا .
ضاقت بها الدنيا .
منذ أن تزوج . قلت لو سكن الولد في البيت الغربي لو يوافق .
عيونها مفرجة وكأنها تتلصص ، في نظرتها شك ، في لفتتها ريبة .. شكوك ،
عيلة ، لا تفهم شيئاً ، لكن الحذر ، الحذر .

انتظرته طويلاً . لم تتعش .. غلبها النوم . نامت على عتبة غرفتها . حين
أحست حساً انتفضت قال دون أن يلقي سلاماً ، ودون أن يلتفت حتى لا يبدو
قوله اعتذراً .

- اهلالية الكلاب عاملين رجالة يهددوني . أدبتهم في بيوتهم . صدقوا كلام
الشهانية . أمني أشرف واحدة في البلد . تحسست لم أسمع أحداً إلا بنت الكلب
التي نسيت أن كل كلاب البلد لقت فيها .
- اهلالية قرايبك من بعيد .

- جدهم نصراني وشبطوا فينا - بصي على أشكالهم ..

بلهجة لا تخلو من سخرية . قالت :

- تصبح على خير .

جذبها

- أنت مصدقة الإشاعة التي أطلقها الشهاينة .

خوالك :

- ربك على عبيده ستّار .

- اخرسي

- هو إلى يقول الحق يطلع من البلد .

- كسر حقك . تسمعي كلام الناس في عمّتك . الطاهرة العفيفة الشريفة .

خنقها .

- هاطلع روحك .

- شفتها راقدت في الزربية تراخت يده سقطت .

- لو شفته لقتلته .

كثبان من الرمال . تَلَع من الجبال ، ردمته ردما .. دكتته دكا . راح في ثبات عميق . جحش يعتلي . تيس ينزو . ابن الكلب يمرمطها في الروث ، يتمرغ فوق صدرها ، جعلها مراغة ، تاهت رجلاها وسط أرجل الحمير والبقر : جرى نحوه . قفز من فوق الحائط . طار بجناحيه . غاب في السماء . خنقنها صرخت دَوّت الصرخة . انهالت عليه نباييت الشرقاوية ، صرخ . استيقظت . هب واقفا يتصبب عرقا ، وضعت يدها على جبينه ، قدر يغلي . يسيل . العرق على جانبيه . عدة أيام لم يغادر الفراش .

اختفى محمود . مرت سنوات . مات حسانين . تناسى من تناس .. تذكر من تذكر .

حكاية طويلة يا عم الشيخ عبد الله . الله يرحم الجميع حسانين ومحمود .
ابتسم الشيخ عبد الله
- محمود لم يمت :
هب الشاب واقفا
- لم يمت ؟
- وستره قريبا

- 10 -

بعد أسبوع دخل الشيخ عبد الله والشاب مطعما كبيرا .
قال الشاب :

- الأكل هنا غالي يا عم الشيخ .
حين دخلا المحل قال الشيخ عبد الله
- أين الحاج محمود ؟
- تفضل في غرفة المكتب
رنا الجالس . حدّق . تأمل .
- من ؟
- عبد الله أبو هدير .
نط .. فط . قفز . تشعبط في رقبته .
- والله زمان يا آخر الحبايب .
- أتيتك بأعز الحبايب .
- من ؟

- هذا الفتى أصغر أولاد المرحوم :أحمد مهران .
- كاد الرجل يسقط ، احتضن الفتى . انخرط في البكاء بصوت عال . هرع العمال رأوا مشهدا غريبا .
- الحاج محمود يبكي كالأطفال !!
- دمعت كل العيون ..
- قال الحاج محمود :
- كل ما ترونه . سببه والدك .

- لم أصدق أن الواقف ببابنا هو الشيخ أحمد مهران نفسه . لم يرسل رسولا . قال :
- أنت تعرف ، وكل الناس أننا قادرون على حمايتك . ومن الممكن أن تنتقلوا الآن إلى بيوتنا . لكن المشاكل لا تنتهي . وسأجد لك عملا عند صديق .
- أفعل ما تراه مناسبا .
- غداً انتظرتي على قهوة المعلم سيد أمام كبرى محطة فرشوط .
- في أنصاص ليالي طوية ، والظلام دامس ، والبرد قارس ، تسللت إلى الطريق الغربي الذي لا يسلكه أحد ، سرت جنوبا حتى محطة المواصلات . ثم على شاطئ الحليمي . تحت الأشجار الضخمة على شمالك . القصب على يمينك . بعد عدة ساعات مشي متواصل ، وصلت فرشوط . القهوة لا تقفل أبوابها .
- أريد المعلم سيد .
- زبون لم نره يريد المعلم .
- انتظر فإن المعلم لا يأتي مبكرا .
- ارتفعت الشمس ، امتلأ شارع المحطة . بعد فترة طويلة جاء المعلم أشار إلى أحد العاملين .

- المعلم يريدك .
- أنا محمود من طرف الشيخ أحمد مهران . سلم بحرارة رَحَب .
- تفضل أنا منتظره اليوم .
- تناولت معه طعام الإفطار . والشاي عدة مرات .
- ابتسمت من كثرة ما يقدم .
- قال المعلم :
- اعرف ما يضحك قول الناس .
- يا اللي رايح فرشوط خد غداك مربوط .
- أهل الريف يهتمون أهل البندر بالبخل . الحياة مختلفة لا نستطيع أن نضيف كل زبائنا . انظر هل يستطيع أحد أن يعزم كل من على القهوة .
- قبل الظهر جاء والدك استراح قليلا أردفني خلفه . اتجهنا إلى بهجورة .
- * * *
- استقبلنا الشيخ أبو طه استقبالا حسنا . ظلا يتحدثان إلى ساعة متأخرة . في الصباح :
- محمود أمانة يا شيخ حسن .
- كان لدى القوم حدائق وكروم نخيل ، ومزارع قصب وعصّارة ، لم يكلفني أحد شيء .. تسلقت أعلى النخيل : قلّمت .. طرّحت .. جنيت
- قال الشيخ حسن :
- النخل الشرقي لا يقدر على تسلقه إلا الفرشوطي .
- محمود مهران . تسلقها سريعا كأنها يمشي على الأرض .
- من يومها لا اسم لي إلا محمود مهران .. اشتركت في تحميل القصب وتفريغه وتعبئة العسل وشحنه ..
- في سهرة جمعنا الشيخ حسن وقال :

- رسا علينا عطاء صيد السمك في شواطئ نجع حمادي ، ونحتاج إلى عدد من الرجال .

- اشترى الحاج قطعة أرض . أقام عليها شادرًا للسمك ، اشرفت على الصيد ، والبيع ، والشراء .. توسّعنا توسعنا كبيرا .. كثرت الأرباح .. بعد سنوات جمع الحاج أولاده :

- محمود شرب الصنعة ، أصبح أكبر تاجر سمك في النجع . سجلت هذا الدكان باسمه . والباقي ، وهو كثير ، لكم وافقوا جميعا .. قلينا .. شوينا . بعنا . ربحنا .

- أنا عشمّان يا عم الحاج . قبل أن أكمل قال :
- عشمك في غير محله ... بناتنا لأولادنا ، سأزوجه من ناس طيبين .
رزقت منها خمسة أولاد . هم الذين يديرون المحل . كان أبوك السبب في كل شيء عليه رحمه الله .

الفصل الرابع

كلنا بُرعى

- 1 (ولدي ... ولدي .
- 2 (نصيب أمي .
- 3 (في غيابة الحبّ .
- 4 (الصفّعة .
- 5 (الخازوق بالخازوق
- 6 (قامت القيامة .
- 7 (زمن الهواشم .
- 8 (العمدة الكبير .
- 9 (على حسب أوّداد قلبي .
- 10 (عود ثقاب .
- 11 (خضرة الشريفة .

1- وَلَدِي... وَلَدِي.

راحوا يضربون الأرض ضربا ، يشقونها شقا ، يحرقونها حرثا ، يقلّبونها تقليبا.. يعدّلونها ، يسوونها : محمود : يحمل أثقالا من حقل إلى آخر ، لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، يؤازره سمعان ... يأتيهم (البناء) في مقطف ، يفتونه في الحامض صباحا .. في المشّ ظهرا .. قي الملوخية عشاء .

وبرعي الصغير (يتدحرج) في الأعشاب وراء الغنم والماعز ، يرضعها حينا . يسقى من لبنها حينا يعدو معها ، يروح كأنه يقتات من خشاش الأرض . غلام قصير بطين تحسبه وسط الغنم خاروفا . التصقت الجلايب بالظهور ، فاح العرق ، شق الصباخ الجو شقا . لم تعد أنوفهم تشم : تراكم الطين فوق الأقدام التي غطاها الكلف ، فلم تعد تحس وخز الشوك ..

من على ظهور الخيل هففت قفاطين . رخرفت عباءات ... طارت في الهواء شيلان .. برقت عمام ... لمعت جزم .

انجعص العمدة .. ماج الشيخ .. علت جرون ، تمسّطحت مساطيح . جُمعت أقطان . حُصِلت نُقود . صُبَّتْ في حجور العمدة ، والشيخ .

تناكح آل مهران .. تناسلوا ... ملئوا البيوت والحيشان والغيطان: بنات وصبيان . ماعز وضان . جواميس وثيران .

تدفقت على بيت العمدة ، والنائب : لحوم ، طيور . جلايب ، غلال ، نقود ، قرايين . نذور . رَقَل أبنائهم في العز ، والنعيم . وعلى الذين حرثوا ، وزرعوا . وحصدوا حرّما كل شيء . تعالوا علوا كبيرا .

ظن أولاد محمود وسمعان وبرعي الصغير أنهم هكذا خلقوا . ارتضوا فيض أبيهم العمدة . شاكرين لأنعمه .

حول الطبلية تربع سمعان مهران ، وغلّامه الوحيد الذي أنجبه بعد أربع بنات . ماتت أم الغلام ، ولما يكمل الرابعة من عمره : ربّته البنات . شبّ . أخذ

يعبث بالبتّاو . يقذف به الطير والبهاائم . كسر الوالد واحدة ، غمس لقمة في الملوخية . أزاح التوم الطافي على السطح ، حتى الطشة محرومين منها ، ترك اللقمة تشرب . نقعها . جسها . لا تزال يابسة قال الغلام :

- نفسي- في رغيف قمح طرى يابا . عمّتي حليلة تحبز . وتقفل على الرغفان . تعطي أولاد العمدة ، وأولاد أبويا خليل : اشمعنى هُم يابا !!!
في العيد . إن شاء الله .. إن شاء الله ، أنا عايز جلايبة جديدة لنج ،
ومركوب أحمر .

مسح الرجل دموعه ، ترك طعامه .. جفاه مرقد .

مع ارتفاع قرن الشمس رفع فأسه العريض تساقطت عليه أشعة شمس الصباح المنكسرة . تطل من خدرها على استحياء . تحل ضفائرها ، تتمطى . تنكمش تارة من شدة البرد ، تتوارى خلف بقايا غلاثل الغيوم ، تمسح الندى . تراود النفس كأنها لا تريد أن ترى وجوها وهي تتمتم :
- يا فتاح يا عليم أصبحنا وأصبح الملك لله .
قال محمود :

- ماذا جرى ؟ فأسك تكاد تلاطم السحاب .. تعزف الغيوم .
بعصية هوى بها ، فأنغرس في الأرض حتى مقبضها . تركها ونقر فص .
ضم ركبتيه .. مسح عينيه .. نفّض يديه ..
- نعزق .. نحرت .. نزرع . نُحصّد . وهم مجموعون ، فاجخين على الدكك ، والمساطب .

خليل أصغر منك يشخط فيك كأنك عيل . الحرات يوميته أربعة قروش ،
العزاق ثلاثة ، وأنت مكفي على وشك ليل ونهار . وتسرق لك كم قنديل ،
لتشتري سجائر زي الحرامية ، وهم سجائر مكنة بالصندوق . طول وعرض

وصحة ، وتعيش بلقمة بتأو ومثّ . عمرك ما اشبعت . تشم الريحه الطالعة من بيوتهم زفر ، وحياق ، وطشه ، وأنت يا دوب خُبورين فطير يوم السوق . تفتكر آخر مرة دُثت فيها المفروكة . ولا المصبوبة . يوم الجمعة الكبيرة .

الحمد لله ولدي صغير . أولادك رجالة . ابنك الكبير من الغلب ، اشتغل حرامي .. تتصور ابن زنقاح الخدام ، عايز يخطب بتك . عنده حق . ما احنا خدامين .

قال محمود البغل :

- ربك المنتقم .
- دعاء الولايا يا ولد أبوي .
- أنا أعرف ربنا .
- أخوك الكبير كان واخذ العهد على الشيخ أبو شرقاوي أكلت عشاها القطة . وسوف تأكل عشاننا وغدانا . هذا كلب مسعور
- ربك مع الغلابة .
- ربك نبوتك يا ولد أبوي . الأنبيا ، الي اسمهم أنبيا ، لم يسمع كلامهم أحد إلا لما بينوا العين الحمرة . . أنت تصلي خايف من النار . لو مفيش نار . والله ما أنت راكمها . لا حق لضعيف يا أخوي .
- أنا أقوى واحد فيكم . لا أحد منكم يرفع كما أرفع . يأكل كما أكل .
- هناك من هو أقوى منك
- من ؟
- الخيل والبغال والحمير والجمال . القوة قوة القلب .
- انتفخت أوداج نفرت عروق ، تفتحت مناخير ، أحمرت آذان . زفر زفرة ، تطاير لها ورق الشجر . شد فرع سنط . هاج الجمل . ثار الثور ، جمع البغل ..

مشى يهز الأرض ، ينطح الصخر ، يطير الحصى ، يثير الثرى . اقتحم الدوار ، عرق يتصبب . صياحه يسد الطريق . من على دكة هناك ، هتف هاتف ، جهز الركاب يا .. كأنه لم يسمع ، شخط شاخط . دوى كالرعد في أذنيه .
- انظر شت .

ارتعش الجمل ، ارتعد الفيل . لم يستطع أن يتلفت التفت الساق بالساق ، تكعبل . سقط . على يده زحف ، نهض . ولى مدبراً ...

أحس العمدة ، لأول مرة ، أن الإخوة بدأوا يتغيرون ، قل الجهد ، كثر الصد . لم يعد يراهم إلا نادراً .

- كيف حال إختوتنا يا شيخ خليل .

- يعيشون يأكلون ، يشربون ، يسرحون ويروحون يتباهون . بالعمدة والشيخ . لولانا ما استطاعوا العيش . ما رفعوا رأساً . نحن لهم رعاية وحماية وعزوة .. ماذا يريدون أكثر من ذلك ؟

لا يحسنون إلا ما تحسنه البهائم . قلت لهم مرة . نستطع أن نأتي بمن يخدم الأرض ، الولد سمعان الغشيم ، يظن أن له نصيباً كبيراً ولا يعلم أن معظم الثروة كونها بفضل العمدية والمشيحة .

-2-

أوى إلى مضجعه . تمدد على ظهره . فرد رجليه . تجاوزتا السرير ، لامست خزانة ملابسه . تراءت أصابعه في المرأة تعلو وتهبط . فرك بعضها ببعض . حدق في السقف الخشبي ، اخترقت عيناه الحجب . تراءى الماضي حاملاً (مُتِم) ، من جنباته أطلت رؤوس حليقة . مرعي .. برعي . مهران زيدان أحمد . سيد . خديجة . عطا . عيسى . خليل .. محمود .. سمعان .. الصباح في المساء . الظلام في الضياء ، الغناء في الشقاء ، الإخوان في الأبناء .

- إخوتي .. أولادي ..

أولادي . إخوتي .

ترأت صورة أحمد الكبير . يحمله على كتفيه . يطعمه بيديه . في المقابل :
شيخ هرم . ضعيف القوة قليل البصر ، باسطا كفيه يستجدي نصيبه : قوت
غلمانه .

- لن أستطيع أن أكونه : أخوك . أخوك .. ولدك ، ولدك .. كلما كبر ابنك
صغر أخوك . كلما قرب الأول بعد الثاني . لن يكون الأخ ابنا . حب الابن يكبر
يوما بعد يوم . كره الأخ . يكبر ساعة بعد ساعة .

لو تركتهم لأكلوا كل شيء . ليسوا عمدا ، ولا مشايخ . لا هم لهم إلا
بطونهم ، ونسوانهم . ماذا يفعلون بالأرض والمال !! .

الخوف من الغول ، صحة وشباب ، وكتابة وقراءة ، يا خوفي ليكون عمدة
في حياتي . لو متّ لن ينال واحد قيراطا واحداً . لا أخواني ، ولا أولادي . ولدى
الكبير هايف ، والباقيين صغيرين ، مصيبة لو طلّعوا لأهمهم !! لن أتركهم
كأولاد .. ولم يكمل .

أنا الكبير .. أنا العمدة . أولاد العمدة ، عمد . جحش العمدة - عمدة .
حين ينهق يقف الخلق جميعا . لا عدوّ لك إلا ابن أمك وأبيك ، في عيونهم الكره
، والحقد والحسد . لم نسمع أن والدا قتل ولده .. عشرات قتلوا إخوتهم . يامنة
الشرقاوية كتبت نصب فدان لابنها الصغير .. بضربة واحدة سقط قتيلاً ..
أخوان لا أحد لهما . تنافسا على امرأة ، قتل سيدنا قابيل ، هابيل . كل عبيط
هبيل . قاتل ورضي الله عنه . كل القتلة أئمة وشهداء ، ورضي الله عنهم ينط
عليك في بيتك ، يهتك عرضك ، يطلّعك من دين الي خلفوك . ويدخل الجنة ،
وأنت تدخل النار . كما يقول الشيخ :

- هذه البلدة كبيرة والعمودية تضم أيضا النجع البحري وهو كبير.. ولا ينسى أهله أنكم أخذتم العمودية منهم . وهم يريدون أن يثبتوا للحكومة فشلنا في أمن البلاد ، وحماية الناس ، وأنا قادر على حماية الزمام كله ، بل المركز كله ، لكنني أريد أن أشر ككم معي ، يساعدي أولادكم . فالناس لا يخافون إلا من أولاد العائلات ، وأنتم أكبر ثلاث عائدات في البلد . أريد ابن الشيخ حسن شاهين ، وابن عبد العال الشرقاوي وابن الشيخ حسين عبد الغني ، وابن الشيخ مصطفى شاهين ، ليحكموا البلد ، ويحفظوا الأمن مع الشيخ خليل ..

فرح المتكبرون بمقعدهم عند العمدة وتعيين أولادهم خفرا .

كان (ابن حسن شاهين) شابا طويل القامة كوالده ، وسيم الطلعة ، كوالدته العوامرية . استشعر من نفسه وجاهة فاعتنى بها واعتز أيما اعتزاز . تسانده مكانة الشهانة في البلاد . أما على عبد العال الشرقاوي فقد كان متوسط الطول . يحمل قلبا قد من صخر . تآزره رذالة الشرقاوية ونطاعتهم وتسلطهم .

في شاهين الشاهين . بياض الشهانة ووسامتهم ، ودلع أحفادهم ونظافتهم وتأنقهم . قيع في دوار العمدة كأنه ابنه . وجه سمح لاستقبال الضيوف .

عبد الله أبو حسين : وجه شديد الاستدارة أشرب حمرة في سمرة. درب على كل فنون الزراعة وثقافة البلد : حراث عزّاق ، جّمال . حمار . خيال . كان العمدة محمد مهران قدوته ، ونموذجه الذي يحلم أن يكونه ، تحابا حد العشق ، كان أقرب إليه من أخيه ، وأصحابه وبنيه .

- كل المشاوير وسط المزارع .. قد تتأخر فيدخل علينا الليل . وأعداؤكم ، أعداء البلد كلها كثيرون ، والجماعة البحرين ، لا يزالون يحلمون بعودة العمدية إليهم ، وانتزاعها منكم ، يتربصون بنا ، ولا أثق بأحد غيركم ، وأنتم تعلمون

أني قادر على ضرب عشرات الرجال . يذكر آباؤكم : أنا وإخوتي طردنا السوق كله . حين اعتدى البراغيت على جدكم شاهين الله يرجمه .
أمام الدوار هلّ الجحش ، خرج على الناس في تمام بردعته ، .. نحيط به نبايت الرجال ، نهق الجحش إيدانا بالتحرك . أقفلت أبواب .. قام رجال : منهم من دخل بيته . ومنهم من ينتظر . من خلف الأبواب تلصصت نساء . تمتت .. توخّمت .

على جانبيه ركض الرجال تلوح نبايتهم كأنها أسياف تنهاوى يتطاير الحصى من تحت أرجلهم كالرصاص ... شق موكبه الدروب ، والنجوم الرجال يتحسّرون ، والنساء يتلصصن .
تعمد أن يسير في دروب الشهانة والشرقاوية . كلاهم تنبح . رجالهم تركض . تملل حسن شاهين : قال عمد ، وحراس : حوّلهم خدما ، وعبيدا .. كل يوم إهانة .

-4-

ازداد إحساس أولاد محمود ، وابن سمعان بالغبن .
- صرنا خدما لأولادهما ، حتى أولاد خليل يتكبرون علينا . لماذا لا تأخذون حقوقكم إن كان لكم حقوق !! نحن أولاد محمود مهران نجري في الحقول كالمواشي . ابن العمدة يأمر وبني ، حتى النسوان نُعدها له . لا تجعلونا نتبرأ منكم . هكذا أسر أحمد محمود لعمه سمعان . والد زوجته .
- كان الشيخ علي ابن العدوي الكبير ، الذي خلف والده على مشيخة الشرقاوية ، وليس منهم ، مجدهم لم يتجاوز خفير جحش نائب العمدة . مات جدهم عمر الشرقاوي رضي الله عنه شهيدا في سجن (قنا) في حمارة سرقها من سوق فرشوط .

كان العدوى صديقا للعمدة ، جمعها حب السلاح ، وقنص الصقور ،
وصيد الغزلان ، وعشق الخيل . لم يكن أحد يجالس على دكته الخاصة إلا
العدوى .

همس العدوي :

- مهما طال الزمن لا بد من الفراق ، الصغير يكر ، والقليل يكثر ، والبيت
الواحد ، يصبح بيوتا .

- خش في الموضوع يا عدوي .

- لا أحد يستطيع أن يفتحك غيري ، كل حي أولى بحقه .

قال العمدة :

- لا أول الناس ، ولا آخرهم ، الحق لا يُغضب أحدا . ربك اسمه الحق ،
والعدل . لعن الله قوما ضاع الحق بينهم .

قرط العدوى على نابه . يسابته رفع نظارته .

- طول عمرك حقاني يا عمدة .

- الحق لا ينكره عاقل .

تشجع العدوى :

- لو طلب إخوتك حقوقهم ؟

- يأخذونها في أي وقت .. دعني إلى أن تنتهي من مشاكل الجماعة البحرين .

- وما علاقتنا بذلك !!

لم يكن العدوى يعرف أن كل الحرامية يعيشون في حماية آل مهران ، وأنهم
السند الوحيد لهم منذ الأجداد ، منذ العباسي الأول .

2- نصيب أمي :

-1-

بعد أن رش السقاء باحة الدوار ، ملأ الزيار ، وفرش المساطب ، والدكك ،
مسطبتان نائتين يدون فرش .. شيوح بلد .. أعيان ... عامة .

في وسط الباحة ، على الدكة الكبيرة تربّع الشيخ خليل مهران حاسر الرأس
الحليقة . كأنها رأس عجل سمين .. انحنى شيخ الرحايمة .. همس في أذن
الشيخ المترع .

- أولاد أبو سالم ، وأبو منصور ، يطالبون بميراث أمهاتهم بنات المزحوم عبد
الحميد .. بالأرض كلها .

- كل الأرض ؟

- لأن خالهم مات قبل والده . بذلك أفتاهم الشيخ ، برغوت :

- قال النائب : إلي به فورًا :

حملة رجال دلقوه تحت قدمي النائب .

- لموا الشيخ يا كلاب .. أسندوه بجواري . القلة والشاي لمولانا .

- من زارك أمس يا فضيلة الشيخ ؟

- أولاد .. أولاد .. أولاد .. أبو سالم .

- ماذا قدموا لك ؟

- نصف قمع سكر .

- فقط ؟

- وأربعة أرغفة .

- أحضروهم فوراً .

من جيبه استل السكر ورغيفين .

- أين الباقي ؟

لم يرد .

قال النائب :

- اكتب يا كاتب : تقدم إلينا عشرات المواطنين يتهمون فضيلة الأمام

برغوت البرغوتي ..

انشكح الشيخ . يتهمونه بقبول الرشاوي . وفرض الإتاوات ... تزفلط ..

اندلق على وجهه .. تركه النائب .

وبتفتيش منزل فضيلته ..

حاول أن ينهض .

- عثر على كثير من المسروقات .

انبطح .. زحف على بطنه ..

- بم أفتيتهم يا مولانا ؟

- بكتاب الله " الرجال قوامون على النساء بما أنفقوا "

- مم ينفق الرجال إذا توزعت التركة على الحريم !!

- هل كنت تعرف المرحوم عبد الحميد؟
- الروح بالروح
- من أولاده؟
- له ولد واحد فقط . لم ينجب غيره . لا بنت ولا ولد . أمد الله في عمره .
- لقد مات :
- لا إله إلا الله . لم أسمع بذلك .
- وزوجات أبو سالم وأبو منصور؟
- أقرباؤه من بعيد . لا أحد يعرف من أبوهم ، رباهم المرحوم عبد الحميد .

قال أبو منصور :

- هل هذا هو الدين يا مولانا؟

قال البرغوثي :

- لكم دينكم ولي دين .

همس هامس :

- يا ابن دين

همس شيخ الرحيمة الحقيقة يا سيادة النائب أن المرحوم أحمد بن عمي ،

مات قبل والده بعام .

فتش النائب في دفاتر الوفيات . ليس لأحد منهما ذكر .

ببلاغ من شيخ الحصة ، وبخط المسجل نفسه ، ثم تسجيل وفاة المرحوم عبد الحميد إبراهيم ، وذلك في يوم الثلاثاء الموافق : 15 من أكتوبر سنة 1938 . أما وفاة ابنة المرحوم أحمد : فقد كانت في العاشر من شهر يناير : 1940 . بعد وفاة والده بستتين :

-2-

- جاءني أولاد أبو سالم ، وأبو منصور يريدون أن يرفعوا دعوى ميراث أمهاتهم . ولم أفعل شيئاً قبل أن أخبرك . هكذا قال المحامي للشيخ خليل نائب العمدة .

- لا تفعل شيئاً قبل أن أردّ عليك .

- فتش في دفاتر المواليد . فلم يجد ما يدل على أن المرحوم عبد الحميد إبراهيم عبد الرحيم أنجب بناتاً ولا أولاداً إلا ابنه أحمد . كما أن البنتين تزوجتا بدون قسائم زواج . ليس هناك ما يُثبتون به انتسابهما لهذه الأسرة .
- ارفع لهم دعوة .

طلب المحامي أوراقاً رسمية .

ترددوا على الشيخ ... علىَّ النائب .

قال النائب :

- فُتِّشت في كل الدفاتر . كلفت المحامي بالبحث في دفاتر المركز . في دفاتر المديرية . أرسلت إلى دار المحفوظات ، لم نجد شيئاً يثبت حقكم . شهادة الشهود لا تكفي ..

الحكومة تريد أوراقا رسمية . وگلوامحاميا آخر .

-3-

- انهالت عليه الكفوف والمراكيب كالمطر جرجر إلى الدوار
- ضبطنا الجندي في الخرابة " عاكش " في نعيمة البسطاوي كالكلاب
والحمير .

قال الشيخ خليل :

- ماذا نفعل يا شيخ برغوت :

القصاص يا عمدة ، من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
" ولي أمرها يقتص منه ، أخوها .

قال الشيخ خليل : نفذ حكم الشيخ يا ابن البسطاوي .

وسط الجموع المحتشدة . صدع أحمد بما أمر .

قال الشيخ برغوت : طهرت البلد يا عمدة . سمعونا الفاتحة لحضرة النبي .

صار أحمد الجحش . عشاوي البلد : كل من خالف الأمر هاتوا له الجحش .

-4-

قال أبو سالم :

- الحكومة لن تعطينا شيئا . سنتزع حقوقنا بالقوة .

استولوا على قطعة أرض .. بدأوا يزرعونها . داهمهم الغفر .. ساقوهم

للدوار .

قال النائب لكاتبه :

- اكتب : تقدم إلينا المدعو محمد أحمد عبد الحميد ببلاغ يتهم فيه كلا من

أولاد أبو سالم وأبو منصور بما يأتي :

1- اغتصاب أرض بقوة السلاح .

2- إتلاف زراعات ومحاصيل الغير .

3- حرق جرون الشاكين . ومنازلهم .

4- سرقة مواشيهم بالإكراه .

5- الشروع في قتل بأسلحة نارية .

وبناء عليه قمنا بالمعينة . فتأكد لدينا صحة البلاغ ، وقد تم ضبط بعض

المتهمين ، وبحوزتهم بعض الأسلحة المستعملة . وجاري البحث عن باقي

الهاربين وأسلحتهم .

صرخوا .

- نحن جميعا أمامك يا حضرة النائب .

لكُمة كخف الجمل كتمت نفسه .

- عند محاولة القبض عليهم ، قاوموا السلطة ، بأن أطلقوا وابلا من الأعيرة

النارية من أسلحة محرمة دوليا ، يشهد بذلك كل أهالي البلاد . لذا أمرنا

بالتحفظ عليهم ، وترحيلهم صباحا .

أشار النائب :

- قيدوا الجميع ، وألقوا بهم في الحرارة حتى الصباح .

قال شيخهم متوسلا :

- العفو ، والسماح . يا سيد الناس .

- لن يتم عفو إلا إذا بصموا على هذه الأوراق .

- ما تأمر به يا جناب العمدة .

- أقرأ عليهم الورقة يا محمد :

نحن الموقعون أعلاه ، وأسفله ، الباصمين . أقصاه ، وأدناه .. العافسين ،
شماله وجنوبه . الملطخين ، شرقه ، وغربه ، نقر ونعترف ، ونشهد شهادة عدل
وحق ، نحن وآباؤنا الأولون ، وأحفادنا الآخرون ، من بدء الخلق إلى يوم
الدين .

1- أن المرحوم عبد الحميد إبراهيم ليس جدنا ولا قريبنا ، وأن آدم الذي
خلفه ، ليس هو آدم الذي خلفنا .

2- إن المرأتين : فاطمة ، وزينب ، ليستا أمهاتنا ولا نعرف شيئا عنهما : ولم
ترهما في حياتنا .

- أن كل ما جاء في بلاغ السيد النائب صحيح . وليس لنا أرض ، ولا زرع .
لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، حتى نايبنا في الجنة ، ونصيبنا في النار قد تنازلنا
عنه .. ونحن على ذلك من الشاهدين .

قال النائب :

- أكمل يا كاتب .

وأن نغادر البلد .. ولا نعود إليها أبداً .

- لم ينطق أحد منهم حتى النسوان كتمن عويلهن .

قال شيخ حصتهم :

- هم أهلي وعشيرتي . وسنكون خدما لآل مهران إلى يوم الدين . عوناً لكم

على من عاداكم . اعف عنهم . واعفهم من الطرد .

قال الشيخ برغوث :

- لا تُسمه طرداً يا رجل ، بل هو هجرة في سبيل الله والوطن ، وطاعة لولي

أمر المسلمين . وقد أمركم النبي بالهجرة ، ولكم في رسول الله أسوة حسنة ، كما

أن طاعة ولي الأمر فرض عين عليكم ، طوبى للمهاجرين ، طوبى للطائعين .

همس هامس : طوبى تدشدش رأس المنافقين .

قال النائب :

- فليصموا جميعاً بأيديهم ، وأرجلهم ...

ويُعلن في كل البلاد :

لن ترث انثى قيراطاً واحداً بعد اليوم ، ويُرد كل ما ورثوه بالباطل قبل

ذلك .

همس شقيقه سمعان :

- ولا رجل .

قال أبو منصور

ربنا علي ..

قبل أن يكمل صاح نائب العمدة

- إلى بأحمد الجحش .

قال أبو منصور :

ربنا علي وعلى كل أهلي .

لم يعد يرهب الناس شيء كأحمد الجحش الذي اتخذه النائب

طلوقة لمن عصى أمراً .

3- غِيَابَةُ الْجُبِّ

-1-

قال سلمان أبو اسماعيل ، لابن خالته : أحمد عبد المعطي :

- أ رأيت ما جرى لأولاد " أبو سالم ، ومنصور ، جردوهم من كل شيء :

من أصولهم . وفروعهم ، لا جد لهم ، لا خال ، ولا حتى أمهات .. مرمطوهم في الطين ، لم ينبهم من طين جدهم ، إلا المرمطة .

- ليتهم مرمطوهم في الطين الحر .. غطسوهم في الحرارة .

- شيخ مزور . ونائب مفترى ، وعمدة شيطان أخرس . هذا الشيخ

السعران الذي أبى أن يُخرج من أرضهم قيراطاً واحداً لأبناء عمومتهم . لن يسمح بسهم واحد يخرج لعائلة أخرى .

- خالك يعطينا الإيجاز كل عام .

- الإيجار حاجة وانتقال الأرض شيء آخر . العمدة وإخوته أكلوا نصيب

إخوتهم من أبيهم . ثم استدارا على أشقائهما .

- ستأكلهم النار .

- ماذا استفاد اليتامي . نائب العمدة

يقول : ربك دراعك ، دينك . نبوتك .. ميراث أمهاتنا لن نناله إلا بالقوة .

النائب .. بكره خالك سيساعدنا ، حتى الشيخ المزور لن يقف ضدنا .

- إلا في ميراث الحريم .

قال سلمان أبو اسماعيل :

- هل يعجبك ما حدث يا خال ؟
- هذا ظلم بين . أنا وقفت مع السوالم ، وأولاد منصور . شديت لهم المحامي . لا بد أن تأخذ البنات حقوقها . أنا سأسلمكم أرض أمهاتكم بعد أن تنتهي من المشكلة مع الظالم المزور .
- أي مشكلة يا خال ؟
- شيخ البلد أرسل يريد نصيب حفيده .
- أي حفيد !!
- جدكم ، الله يرحمه ، تزوّج قبل أن يموت بعدة سنوات كما تعلمون ، ابنة هذا الشيخ المفترى ، لم يكن شيخا ، ولا غفيرا ، كان هو وأهله يعملون في زراعتنا .. ناسب العمدة فعينه شيخا بعد جدكم .
- أنجب والذي منها غلاما ، كما تعلمون ، بعد سنة مات جدكم ، ثم ماتت أم الغلام ، ولأنه وارث نصيبه ، ونصيب أمه ، حوالي ثلثي التركة ، حملوه على أكتافهم ، انتظارا لليوم الذي يضمون فيه أملاككم إلى أملاكهم .
- أعطه نصيبه يا خال .
- لو كان نصيبه فقط لهان الأمر . جده يريد الثلثين في الأرض ، والبيوت ، والبهايم ، قلت له نصيب البنات أولا قال :
- لا نصيب لهن . هذا اتفاق مع العمدة والنائب . لا نصيب لبنت في البلد كلها .
- ما العمل يا خال ؟
- قال أحمد عبد المعطي ! ربنا يخلصنا من العمدة والنائب والشيخ . والولد الدلوعة .

قال الشيخ يونس :

- الخلاص بأيديكم .

سأسافر مصر ، بلغوا كل الناس ، من أراد أن يرسل رسالة لابنه . أو أي شيء . خالي مسافر .
اصطحب عددًا من أصحابه ، وسافر .

-3-

مع غلمان العدوية ، وصبيان العزّامية ، ظل الغلام يلعب ، ويمرح .. فلما جَنَّ الليل قفل راجعا .. قبل أن يخطئ عتبة أخواله قال سلمان : وكان الفيضان في عز عنفوانه :

- هل تريد أن تتفرج على البحر يا خال ؟

أنس الغلام لابني أختيه ، سار معها أمسك كل منهما بيد .. رفعاه ، نططاه .. تقدما عدة خطوات والماء يعلو ، لم تعد أرجل الغلام تحمله . طَبَشَ .. رَفَسَ . غطس . شقق . بَقْبَقَ .. غرق .. في ساقية عمرتها المياه ، غَيَّبَ الشابات خالهما .

- تأخر الولد كثيرا يا حاج .

كان مع عيال العدوية .

- عيالنا تعشوا وناموا .. ابنكم عاد بعد المغرب ، انطلق الرجال والحريم يفتشون . يتساءلون . يتصايحون ، أشعلت نيران ، أوقدت كلبات . ذهب الليل ، لم تهدأ الجلبة . خاضوا المياه ، غطس من غطس ، سبح من سبح . اختفى قُرّة العين ، ضاع مهجة القلب .

- اجمعوا كل الحرامية : حرامية سوهاج وقنا ، من القصب ، من الدرة ، من مغارات الجبال ، من شقوق الجدران ، من خيام العُربان ، من أحضان النسوان .
سأسجنهم جميعا إن لم يأتوني به قبل أن تَسْمَ الحكومة خبرًا . هكذا صاح
العمدة :

قال أخواله : ندفع ما يريدون .

قال النائب :

- ويدفعون الغرامة . نحن نأخذ ، ولا ندفع . لولا حمايتنا لسجنوا ، أو
قُتلوا .

الشايب ، والشَّب ، وأبو فواز ، والضبع ، والكومي أقسموا جميعا :

- لو سُرقت بيضة واحدة من بلدكم لنعيدنها قبل أن تقوم من مقامك .
ابنكم لم يخرج من بلدكم .

-4-

تمايلت فتيات ، تراقصت أعجاز ، كُشفت سيقان ، انتفشيت جلاليب ،
تجرات حريم . أَلْقِيَتْ ثياب . بلعطت بنات . سبحت في المياه .. رَفَّست ،
طَبَّشَتْ ، تراشقن . انسحبن . التصقت جلاليب ، التفت بالسوق ، تقاطرت
على الأعناق قطرات ، تكورت صدور ، حَمَصَتْ بطول ، برز المستور . بحلقت
عيون ، على الرؤوس قُلِبَتْ جرار .

قبل أن يبزغ قرن شمس يوم .. شق صراخ الفتيات السكون شقا :

غريق .. غريق .. غريق ...

لم تتمكن القرية من بربشة عيونها ، اندفعت .. فاضت كالفيضان .. لم يصدق
أحد أن الغريق هو الفتى الجميل : على الإمام .

في بولاق حط الشيخ يونس رحاله حيث يتجمع بلدياته على نادي السباعنة، وقهوة المعلم مشرف ، طاف بهما ، سلم ، تأكد أن كل الناس رأوه ، قبل وقوع الحادث .

فصل جلاليب عند حسن الخياط ، نام في لوكاندة الحسين ، تعشى عند الدهان ، زار عيادات : باطنة ، وعيون ، دخل سينما ريفلى ، احتفظ بكل التذاكر ، والفواتير ، وعليها توارى فيها . ليلة الحادث ، تهاوش مع أحد نزلاء الفندق ، احتجز في قسم الجبالية أربعاً وعشرين ساعة ، أصر على الاحتفاظ بصورة من المحضر .

قبل أن يصل قريته تأكد أن النيابة تواصل التحقيق في دوار العمدة ، في يديه حقبة وسبت . تلكاً أمام الدوار ، جذبه الغفر .. دخل .

أين كنت حين قُتل أخوك ؟

- أخي لم يقتل ؟

- كيف عرفت ؟

- كل الناس تعرف .

- أنت متهم بقتل أخيك .

صرخ : أنا وحداني ، ولم أنجب ذكراً (على) أخي ، وولدي . وأنا أتهم أخواله بالإهمال . وهم يريدون أن يتخلصوا من بقايا أسرتنا ؛ ليصبحوا شيوخاً .

- أنت متهم بقتل أخيك ؟

- كنت في مصر منذ أسبوع " والمرحوم غرق أمس .

- أخوك قتل ، ثم ألقى في البحر .

- لو ثبت ذلك ، لأخذت تأري من أخواله .
- أنت القاتل الوحيد .
- كنت في مصر .
- أمعك شهود ؟
- ثلاثة من أهل البلد . سافروا معي .
- أين هم ؟
- لم يعودوا بعد .
- لماذا ذهبت إلى مصر ؟
- للعلاج .
- هل معك ما يثبت أنك كنت في مصر .
- من جيبه أخرج تذاكر السفر .
- أين كنت تقيم ؟
- في فندق الحسين
- هل معك ما يثبت ؟
- مد يده بفواتير الفندق ، والمطاعم المجاورة .
- وماذا فعلت في مصر ؟
- ذهبت للأطباء وهذه روستاتهم .
- وماذا فعلت غير ذلك ؟

- دخلت السينا . وهذه التذكرة .
- عملت حساب كل شيء . جريمة محكمة .
- وأين كنت تصلي .
- في الحسين ، وفي الأزهر .
- هل كان معك مصلون ؟
- كثيرون جدًا .
- لماذا لم تأت منهم بشهادات !!!

4- الصفحة

-1-

- انكسر ظهر الشرقاوية لن تقوم لهم قائمة .
- فليذهبوا في ستين داهية .
- انزوى الحنفية حرموهم من ميراث أمهاتهم ، ضربوهم بهدلوهم .
- قسموهم عدة بيوت حتى الشيخ يونس أبو على ، حفيد شعبان الكبير . دبروا له
- تهمة قتل أخيه . عدة سنوات في المحاكم . بيعوه أرضا .
- داهية . لن يسكت
- هو الآن صاحبهم يتردد على دوارهم
- لأنه لا يجد غيرهم .
- لكنه لن ينسى أبدا ما فعلوه به .
- ينقصه الرجال .
- لا تفرحوا الدور عليكم .
- ليس كل الطير يؤكل لحمه .
- خليل ذاق كل اللحوم .
- تظاهر الشيخ مصطفى شاهين بالنوم . استمع إلى كل ما يدور في عقول
- الشهانية ولم يعلق .

شاب ممشوق القامة . جميل العينين . وسيم الطلعة ، في صوته طراوة ونعومه وحلاوة ، لا تمل العيون التأمل ، والآذان التسمع ، يرى أنه أحق الناس بحكم البلاد ، فقد كان أجداده يحكون ثنائي قرى كبرى ، بيد أنه يدرك أن الزمان لن يعود . لكنه لن يستسلم . فإن ما بقى من أرض ، وهو الوارث الوحيد ، يجعله

من ذوي الأملاك ، وإن لم يكن من أصحاب النفوذ . لو انتزعت الأرض
المغتصبة من العمدة ، لافتقر .

-2-

أسند ظهره إلى جذع نبقة القرعة يستظل بظلها . شجرة نبق عجوز ، على
مشارف القرية ، تعلو هضبة ، تشرف على الحقول ، لها في القلوب مكانة خاصة
ليس لحبات نبقها مثل ، حجبها ، وشكلها ، وطعما ، وألوانا ، شجرة مباركة ، من
سدر الجنة ، من فسائل سدرة المنتهى . يغمر ضوءها الحقول ، يضيء ما بين
الأرض والسماء في ليالي معلومات ، لا تدركه الأبصار ، إلا من رحم ربك ،
تستشعره الطيور والحيوانات ، تزحف إليها الزواحف .

تظلل فروعها بئرا عميقة . ماؤها شديد العذوبة ، ناصع البياض ، من تذوقه
سبع مرات ، لا يظمأ بعدها أبدا ، فيه شفاء للناس ، شفاء لما في الصدور ، شفاء
لما في الأبدان ، يقصدها النساء من كل البلاد ، لا تقبل القرعة نذورا ، لكل داء
عدد من الحبات لا يتجاوز السبع حبات ، مليم أحمر ، واحد فقط ذاعت شهرة
نبقة القرعة ، لا يستظل بظلها إلا شيوخ ودراويش . ويل لمن يقترب .

سرح الشيخ شاهين ببصره الكليل .. بُحور خضراء .. أمواج صفراء .
اشرأت سنابل كأنها شرائح الذهب . غاب .. لم يتنبه .

- أنا يونس أبو علي يا عم الشيخ شاهين :

- أهلا بالغالي ابن الغالي . اجلس يا ولدي .

- أرايت ما فعله بنا أولاد مهران يابا الشيخ !!

- افترؤا يا ولدي .

- أليس في البلد كبار غيرهم ؟ طول عمر الشهاينة كبار البلد ، حاية لكل الناس .

- مال وسلطان يا ولدي . بعد أن كان جدهم العباسي جمالا عند الشهاينة . قبل أن يعينه جدك شعبان أبو علي غفيرا .

اغتصبوا أرض " أبو سعد الله " رجل غريب من العرابة ، يزرعونها ، ولا يدفعون إيجارا . الرجل يبحث عن مستأجر . عرض على . لا أستطيع أن أدفع الإيجار .

- الناس يقولون ..

- ماذا يقولون ؟

- كلام كبير لا أستطيع قوله .

- قل لا تخش شيئا .

- الشهاينة يخافون من أولاد مهران .

- انتفض الشاهين . والله لو أملك الإيجار . لذهبت إلى العرابة الآن .

- ثمن الأرض كاملا تحت أمرك يا والدي من الآن .

تردد الشيخ راضي سعد الله عدة مرات . استعان بالراجحي وأبو غابة . ودرويش .

- العمدة مسافر .

- سيأتيك قريباً .

- قال الشيخ شاذلي سعد الله :

- عشرة فدادين لا نتفع بهم لا أحد من أهل البلد يجرو . الغريب لا يستطيع . علينا أن نتنظر الفرج .

تلوى الثعبان ... على بطنه زحف ...

تثعلب الثعلب ...

إلى العرابة .. تسلل الذئب ... وضع أطراف ثوبه . بين رجليه . أرخى
أذنيه .. تشمم كل شبر .. تمتى أن تغير الريح اتجاهها ؛ حتى لا تمر على دوار
العمدة مهران فيعرف أحد أنباء سفره هذا .

قبل أن يجوس خلال ديارهم . جلس . فكر .. قدر .. لن يسمح الجبار بهدم
بنيانه ، عشرة فدادين ، هي عماد حياته ، أغلب الناس يظنون أنها ملكه ، كيف
يتقبل كشف عورته . قصم ظهره . فضح أمره . عمل لم يجروء عليه أحد من
قبل . لا شاهين ، ولا شرقاوي ، وأنت قليل الرجال ، لا ظهر لك . هم أن
يتراجع . ولكن ماذا تقول لشاهين والشرقاوي قالاً :

- عليك العقود . وعلينا الباقي .

- لا يستطيع العباسية محاربة البلد كلها . لن نظهر في الصورة كما قال
الشيخ شاهين نحن سنتصدى له ، سيكون خازوق الدنيا والآخرة .

في ركن قصي من الدوار ، جلس الشيخ سعد الله ، يرتشف قهوة الصباح .
بين يديه جثا على ركبتيه . من جيبه أخرج كيسا .

- هذا إيجاز العشرة فدادين لمدة خمس سنوات :

اعتدل الشيخ .

- لا تقل شيئا قبل أن تسمع حكايتي

- أنا يونس أبو علي ، حفيد شعبان أبو علي .
- أعرف والدك ، وجدك . وحكاياتك وأهلك مع أولاد مهران .
- افترؤا يا ولدي .
- ساعد توهم على الافتراء بأرضكم التي تركتوها لهم . لولاها لافتقروا .
- وماذا نفعل ؟
- لستم ضعفاء ، ولا فقراء .
- نستطيع أن نتزع أرضنا بالقوة ، لكننا لا نريد أن نكون سببا في حروب بين قبائل سوهاج ، وقنا .
- لذلك جئت أعفيكم من الحرج . واستأجر الأرض . ولا لوم عليكم . كل الناس يعرفون أنهم لا يدفعون إيجارا .
- لا تستطيع أن تتزع الأرض منهم . لن يمكنوك من زراعتها يا ولدي .
- اكتب تعهدا على نفسي أنني لن أطالبكم بقرش واحد مما دفعت . لكن أخشى أن يوسطوا أحدا . أو يهددوكم فتراجعوا تنقضوا اتفاقكم معي . كل الناس تخافهم .
- أنت صغير السن يا ولدي ، ولا تعرف من نحن ، لا أريد أن أكون سببا في فتنة كما قلت لك . نحن من كبار المديريتين . وسوف تؤجر الأرض لغيرهم ، بعد أن أشهدت عليهم كبار السماعنة .

- هذه خمسة أسماء من كبار رجال البلد ، وهذه أختامهم ، رجال
قادرون على انتزاع الحقوق ، ولن يتحرش بهم أولاد مهران ، هم يدبرون
خوازيق للناس ، ولا يواجهون .

من دوارهم إلى مكتب المحامي " أبو ستيت " بالبلينا . أبرمت العقود ،
والعهود ، والوعود .

عاد الثعبان يتمطى ، دون أن يشعر به أحد ..

-3-

- أنا رسول الشيخ سعد الله .
- قل له ينتظر شهراً .
- لا يطالبكم بإيجار ، هو يخبركم أن تسلموا الأرض كاملة للمستأجرين
الجلدد .

- منذ الذي يجرؤ ؟

- ما على الرسول :

دوت الصفعة .

- صفعة الموسم .

- كل المواسم .

جمع العمدة ونائبة كل المشايخ .

- لأول مرة يترشح واحد منكم . ابن عمكم عبد الشافي عمدة الكوم كل السماعة يؤيدونه . السمهودي غريب عنكم . لا أريد أن يخرج منا صوت واحد .

تزاحم الناس ، كل الأصوات للعمدة عبد الشافي ، نجح السمهودي مرشح الوفد . تواعد الجميع . أقسم . الويل : لأولاد مهران . ارتعى يونس تحت أقدام السمهودي .

انحسرت مياه الفيضان . نزل المستأجرون يستبتون " يلقون " . تشابكوا مع رجال العمدة . سقط من سقط . ظلت القضية عدة سنوات .. أوقف العمدة عدة مرات . برئ بعد أن خسر - الأرض والسمعة ، والمال ، ظلت الصفعة تدوي . والرجل يتحسس قفاه كلما تذكر . والنائب يعرك نابه .

5- الخازوق بالخازوق

-1-

قبل أن تَبْزَغ الشمس تسلل أناس ... أبقار .. جواميس .. أغنام .. معيز .
جمال . حمير ..

سالت أعناق المواشي كأنها أمواج غدران حركتها نسائم الصباح . جداول
رقراقة تنساب كأنها بُسْطُ الإِسْتَبْرَق . ترفع أرجلا . تلامس أرضنا تقبلها ، لا
تسمع همسة .. تشاءب كأنها تسير نائمة ، لم تُنزع عنها غلائلها . تنططت
سخلان . تناطحت جديان . على هديل اليبام ، هزت أغنام رؤوسها ، كأنها تختم
وَرْدَها . وتيس محمدان لا يكف عن ممارسة الحب . ازوَرَت بنات خجلا .
سرحت عيون اختلست . أزاح خاروف لِيَّة مبطرحة ملأ خياشيمه .
استعذب .. شَفَط . انتشى . على جانب الطريق كلب يلهث وقطة تموء .
وجحش يتشمم .

تسربت أسراب ، صوب الشمال ، صوب الجنوب . وحمدن تتلمط زُرعت
الأرض ، شُتِلَتْ فسائل من حيوانات . وأناس أداروا ظهورهم لشمس
الشموسة . راحوا يتعبدون ، يتقون الله حق ثقاته .. هللت معاول . ركعت
شواذيف ، رتلت سواقي ، سجدت فتوس ، وحدث محاريث . سَبَّحت .
استخلاف في الأرض . استعمارها .. جهاد في سبيل الحياة .

خلت القرية تماما .. سكنت الدروب . همست أطراف النخيل ، يوشوش بعضها بعضا . تُسر حديثا . ليس بالدوار من أحد . أعد خفير البراد.. كوبا واحدا . رصّ الحجر بعناية . بصبص البصّ ، لمعت حبات الجمر كأنها حب رمان . همس الساقى :

«الشاي ، ع النار ، والجوزة في إيده . ولدي يا ولدي » .

التقط الشيخ خليل الغاب . تراقصت المياه ، تعلو وتهبط ، تقوم وتقعّد ، كأنها دقات قلب عاشق . زفر دخانا متقطعا . رفع الساقى ، اندفع العنّابي .. علت الفقاقيع كأنها البلور . شفت شفطة شقت يا فوخه .

ظل أسود يتسلل . في أول الدرب البحري انحرف يمينا .

- من هذه المرأة ؟

- الداية .

- آتني بها .

- التفت الساق بالساق . إلى سيدي المفترى المساق . غاضب ، أم مشتاق .

يقذفني بالمركوب ، يتوسل توسل المحب المحبوب ، يشخط . ينتر . يرق يلين ..

يـ .. يـ .

- على استحياء قالت :

- صباح الخير يا حضرة العمدة:

- ظلت واقفة . أحس منها تعباً . أمرها .

- لا يصح يا عمدة .

- اترزعي :

- حين يشتمها تزول الكلفة

- رفعت ثوبها . كشفت عن ساقها . ازور عنها . صرّت عجيزتها .
- أزاحت طرحتها . تقرّفت .
- ماذا تعملين هذه الأيام .
- كما أنا : داية ، مغسّلة . مطهّرة . ماشطة . مدلكة . أجهز العرايس .
- والعواجيز .
- المرأة تحتاج إلى تنظيف دائم .
- كادت تسقط :
- خذي راحتك .
- رفعت ثوبها حتى ركبتيها . رحرحت .
- مكسوفة منك يا حضرة العمدة . لم أرك منذ صرت عمدة .
- طول عمري عمدة يا مرة .
- تتم :
- تحجل من كشف وجهها . وقد كانت تنزع لباسها في قلب السوق حين تراني .
- والنسوان الداخلة والطالعة عندك . والرجال ينتفون أيضا
- كاد يغشى عليها .
- لا تنزعجي . أعرفهم جميعا . من يدخل من الباب ، ومن ينط من
- الحيطان . وآخر واحدة كانت عندك . لا تكذي .
- لا أستطيع يا سيدي .
- غوري من وشي .
- زوجة الشيخ مصطفى شاهين .
- العجوز !!
- سمعت النسوان يحكون عنه . ولا خليل مهران في شبابه .

- هو أنا عبّزت يا بنت الكلب .
- فَشَّرْ يا سيد الناس .
- سألتني عن الجيران وجيران الجيران . ولم تسأل عنه قلت لها :
- والشيخ يونس
- قالت : لا أعرفه .
- مكر نسوان .
- أدركت رغبته وصفته لها .
- أنت تبالغين : لم أر أحدا بهذه الأوصاف
- سترينه إن شاء الله .
- من سهل طريقا . من فرّج كُرْبَة . سهلت.. فُرِجت . سمعت شخرها
- ونخرها يهز البيت هذا . ارتوت العجوز . شكرت . حمدت . دفعت . خرجت .
- لم استطع صبرا . راودته ، تمنع . اغتصبته
- غاوي عواجيز .
- أتنى بالحاجة يا منة الشرقاوية . ولك ما تريدين .
- هي من عمر جدتك .
- قال الشيخ خليل :
- زوجة الشيخ عبد العال ؟
- وعبد العال نفسه .. حصل مرة . قبل أن يبدأ بلّ نفسه خرج يلعن .
- قال الشيخ خليل !
- غوري من وشي .
- أدارت وجهها . وعجيزتها تتراقص .
- صندوق زبالة كل وساخات البلد : أسرار الرجال ، فضايح النسوان .

- لم نرك منذ مدة . ألم توحشك شرقاوية . ولا شهينية ؟
- كفاية عواجيز . أريد عروسا ، قررت الزواج من كبار القوم .
- شرقاوية ؟
- أعوذ بالله من السود .
- هو أنت عاتق . زوجة الشيخ أكبر من أمك .
- الشيخ يقول وبوالوالدين إحسانا .
- هل تريد زواجا فعلا .
- ببضاء حمراء طويلة ممتلة واسمها زينب حسن شاهين .
- أرملة !!
- أصغر مني بستين كانت معي في الكتاب . وكانت تحبني . وظلت على حبها حتى بعد أن زوجها ابن عمها غصبا عنها . وها هو قد استشهد في فلسطين .
- رفضت كل من تقدّموا .
- لأنها تنتظري .
- لا يتزوج شاب أرملة .
- إلا أنا .
- الشهاينة لا يزوجون بناتهم لغريب
- إلا أنا : - شاب وغني ، وحفيد سلطان الكبير .
- سأستطلع الأمر .
- ابدئي بها .

بعد أيام عادة سيدة الماشطة

- الخلاوة الكبيرة خمسة جنيهات .
- لم تصدق سجدت .. كانت تنتظر .

- لو لم يطلبني لذهبت إليه :حاولت .
- أريد رؤيتها .

في ميعادها وجدت الباب مفتوحا ، دلفت . أقفل حسن الحداد الباب من الخارج . وجلس ينتظر .

تسلق يونس جدار الشونة الملاصقة . يحذر شديد نزل . وجدته قبالتها . سقطت طرحتها .. شخصت عينها . اندفعت نحو الباب المغلق؛ بكت ، لم تستطع أن تقول شيئا .

- ازيك يا زينت :

لم ترد . كفكفت دمعها انصرفت .

كان الشيخ حسن شاهين رجلا متكبّرا ، غليظ القلب ، جافي الطبع يقول دائما :

-نحن أحباب الله سخر البشر - لخدمتنا . لا ندلنا في هذه البلد ، ولا في غيرها .

همس الشيخ علي إمام الزاوية ، قريب يونس :

- الشيخ يونس يتشرف بمصاهرتكم .

قبل أن يكمل طارت عمامته . التقطها . رفة الشلوت عاليا . توضأ بصقا وتَفَأ .

- لو سمع بذلك أحد ستكون نهايتك . لا تحدث نفسك به .

قام يلهج :

- ملعون أبو الزواج . ومن يتزوجون ومن لا يتزوجون . في الدنيا والآخرة . زوجتي طالق . وكل الحریم : السيدة زينب ، والسيدة نفيسة . والحوار العين ، على الطلاق ما أنا داخل الجنة على شأنهم .

قال الشيخ خليل :

- ما آخر الأخبار يا شيخ علي ؟
يعتقد الجميع أنه يعلم ما في الصدور ؟ يسمع همس الهامسين خلف الأبواب . تأتیه الأنباء قبل أن يعلم أصحابها .
- هل وصلت إليك ؟
- قص عليه ما حدث .

- قل للشيخ يونس في أذنه :
- النائب يقول لك : لا نخش أحدا ، لن يستطيعوا أن يمسوك بسوء . لا تنسى أنك حفيد سلطان الكبير ، كان كبيرا قبل أن يخلق هؤلاء . لو كان عند النائب بنت لتشرف بزواجك منها .

- أرسلت إليه : سأهرب معك إلى أي مكان .

تسللت إلى بيت الماشطة .
- أريده الآن .
حين دخل عليها ، اندفعت ارتمت في حضنه .
- انتظرت طويلا .
- لم اتزوج

- إما الزواج ، أو الهرب ، أو الموت
راحت تقبل كل شيء ، تعانقا سقطا تقلبا ، اشتعلت الشعلة . انطفأت
الشمعة . بكيا طويلا .

- منذ أيام لم يظهر شيخنا - ظننتك مريضا .
- لست مريضا . بل حزينا يا ابن عمي .
- لا شيء يحزن سيد الناس .
- لم يعد السيد سيّدًا يا حضرة النائب :
- الكبير يعيش كبيرا ، ويموت كبيرا .
- تصور يا شيخ خليل أن الولد ابن أبو علي تجرأ وفكر .
- لا أحد يجرؤ أن يحلم بشيء يضايق الشيخ شاهين . ولكن فيم فكر هذا
الواطي ؟

- يناسبنا

هَبْ خليل واقفا .

- قطع لسانه ، ولسان أهله ، يناسب الأشراف .
ألم يعلم أن جدكم الباشا الكبير رفض أن يناسب الوالي التركي !! أنا عمدة
البلاد ، ابن مهران الكبير ، لا أجرؤ على ذلك . فكيف بهذا الوغد . عار لا ينبغي
السكوت عنه . الشرقاوي " إلى اسمه شرقاوي " سمع أن جحش أولاد علي
طارد حمارة ناجي الشرقاوي . خرج الشرقاوية ، وقتلوا الجحش والحمارة
وغسلوا عارهم . المحامدة ، أعداؤكم ، ضبطوا كلب هذا الولد . مع كلبتهم .
قتلوا كل كلاب الشقّ البحري . علموه وأهله الأدب .

قال يونس أبو علي :

- يا عم الشيخ خليل أنت حاكم البلد الآن ، من بعد آبائي وأجدادي ، وتعلم من نحن ، قبل أن يكون شاهين .
- لا أحد ينكر .
- أريد أن أتقدم لخطبة ابنة الشيخ شاهين .
- أحسنت الاختبار ..
- أريد مساعدتك .

همس " شغلني خاطبة ابن الكلب "

- ليس بيني وبينهم ودّ . وهم يتمنون أن يستقوا بكم . عليك أن تذهب إليهم بنفسك سرا أولا . ثم يتم الإعلان بعد ذلك . ادفع لهم ما يطلبون ، قبل أن يطلبوا . اذهب ومعك الفلوس . واطلب يد شاهين .. نفسه .. الرجل في ضائقة .

بعد صلاة العشاء تسلل إلى دوار الشهانية .. أمام الدوار فتيتهم : بيض .. طوال .. عراض . بقايا عز يتلاشى ، كأنه بقايا وشم .
في قلب الساحة " دكة " الكبير : جلس : محزونا . مهموما . مغموما .
على " طرايطف " صوابه " تقبّص " . منكس الرأس . وقف طويلا .. لم يلتفت إليه . كرر السلام . أشار إليه . جلس تحت قدميه . " قُمْبر " طويلا .
رفسه . جرّ دوه . مرمطوه في الوحل . غطّسوه في البرك .
- لن تطلع عليكم شمس في هذا البلد .

حاصر الشهانة بيوت أولاد علي . أضرمت نيران .. قبل أن يمتد لهيها .
سبقت رجائهم ونسأؤهم إلى سجن المركز .

بعد أيام أفرج عن الشهانة ، بضمان الشيخ خليل نفسه !!!

لم يدر بخلد أحد أنها كانت تلقاه سرا .. حملت حملا خفيفا .. مرت به لم يعد
الخفيف خفيفا .

عذبوها . حبسوها . لم تبج . أنا ميتة .. ميتة . فليعيش هو :

كانت الداية تقص على الشيخ خليل كل شيء ، حتى عدد مرات اللقاء .

- سيأتي شاهين . ومناخيره في التراب :
- لا بد من غسل العار أولا ، ثم الانتقام من الكلب :
- لن نستطيع أن تفعل شيئا ، دون علم الشيخ خليل .
- أنا أستاذن من ابن مهران !!
- ليس أمامك طريق آخر .
- عار الأب ، وذل الأمد .

في الظلام الدامس .. رأس فرعون وهامان . وجنودهما . غطسة قارون ،
في الوحل في الطين . عُفّرت الجباه المتعالية ، الأنوف المتشاحخة ، والأعطاف
المتثانية . تراب السكك " عاوين الكوانين " في هذه السويحات يختلي الشيخ
بنفسه . لا يقطع خلوته قاطع . لكنه كان ينتظر .

- هـش . هـش . تقدّم بضع خطوات .

- لماذا تكلف نفسك الحضور يا سيد الناس ؟

لماذا لم ترسل لأخيك خليل يأتيك حيث تكون ؟

أراك محزوناً . فماذا بك ؟

قال شاهين :

- أَلَمْ تَعْلَمْ بِمَا حَدَثَ ؟
- أَخَذُوا جِزَاءَهُمُ الْكَلَابَ . كُلُّ شَيْءٍ يَهُونُ ، مَا دَامَ الْعَرَضُ مَصُونًا .
- لَمْ يَعْدهُ هُنَاكَ شَرَفٌ . مَرَمَطُنَا فِي الْوَحْلِ ابْنُ الْكَلْبِ
- الْمَسَاسُ ب... عَارَ عَلَيْنَا جَمِيعًا .
- بَيْتِي يَا وَلَدَ عَمِّي .
- الْعَفَّةُ ، وَالطَّهَرُ ، وَالشَّرَفُ . تَمَنَيْتُ أَنْ أَخْطُبَهَا لَوْلَدِي .
- فَاتِ الْأَوَانِ ؛ سَاعِدُنَا فِي دَفْنِ الْعَارِ .
- تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . اغْسِلْ عَارَكَ . اعْرِفْ غَرِيمَكَ وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَدَعْ الْأَمْرَ
- لَنَا . عَجَّلْ قَبْلَ انْتِشَارِ الْخَبَرِ . الْحُكُومَةُ لَهَا آلَافُ الْأَذَانِ وَأَعْدَاؤُكُمْ يَتَرَبِّصُونَ بِكُمْ
- وَبِنَا .

قَبْلَ يَدِيهِ . رَجَعَ خَطَوَاتِ

- وَصَلَ الشَّيْخُ يَا وَلَدَ :

أَرْسَلَ إِلَى يُونُسَ .

- لَا تَحْشُ شَيْئًا نَحْنُ مَعَكُمْ . أَتَيْتِ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا . لَكِنَّ التَّكْبَرَ .

-8-

فَرَحَتِ الْغُبَرَاءُ بِاسْتِقْبَالِ وَحْيِ السَّمَاءِ ، رَسُولِ الْجَنَانِ بَعْلُهَا . عَرَبَسَهَا ،
وَالدَّهَاءُ وَوَلَدُهَا ، مَحْيِيهَا وَمَمِيتُهَا . تَطَهَّرَتْ مِنْ عَشْبِهَا . كَأَنَّمَا دَلَكْتُهَا مَدْلَكَةً ...
نَتَفَتَّهَا نَاتِفَةً .

في قميصه البني تهادى ، تنتظر العروس أوبته . في موعد لا يُخلفه . تبسمت شقوق ، مُدَّتْ أيدي ، تحتضن .. تقبل . جمعت محاصيل القطن والذرة . فرشت أراضي حطبا وبوصا . بدأ نقلها إلى الصحراء قبل أن تغمرها المياه . وسط الأكوام . دُسَّت الجميلة في التراب : إيزيس الطاهرة .. رابعة العاشقة . في التربة الطهور تحت ثراها . دُسَّت " زينب الشاهين .

في وسط البوص المعد للتحميل ، برك هجين ، فحل متين ، عليه حمل كبير ، شد وثاقه ، عُقِلَ عقاله . قبل أن يصل التفتيش بخطوات هتف المأمور : قف . كله يجمع ..

انسحبت القوات . لم تعثر على شيء .

قال الشيخ خليل :

- أعداؤكم بتربصوص بناوبكم . لأول مرة أحد يشكوكم في أمر كهذا

تمتم شاهين :

ينبش القديم ابن الكلب .

كانت الزيارة قد سبقته .

- كيف تسير أحوال البلاد يا شيخ خليل ؟

- كما يريد معالي الباشا .

- ناسك ؟

- كل الناس . ناسي

- البحرين .

- والقبليين يا باشا .

- نكمل بعد الغداء .

- كل مرة تأتي محملاً هذا كثير .
- هي زيارة كل أسبوعين ،للسلام والوحشة
- من تظن يا شيخ خليل وراء موضوع «أبو بَسْلة»؟
- أي موضوع ؟
- اختفاؤه
- لم أسمع بذلك .
- الدنيا مقلوبة
- بعيد عنك يا باشا
- مطلوب المساعدة الموضوع حساس جداً
- غداً سأردّ عليك .

قبل أن تطلع الشمس كان الرجل في بيته .

بعد شهور همس المأمور .

- ما أخبار زينب شاهين يا عمدة ؟
- بخير يا باشا .
- أريد أن أراها .
- غداً تكون عندك .
- زينب بنت الشراقوية يا عمدة ، الزوجة الثانية لشاهين يا عمدة .
- سكت الشيخ خليل لم يرد..
- قل يا شيخ
- قال خليل :
- ألا يخفي عليك شيء ؟

- وماذا كان تحت الجمل المبارك؟
- تتم خليل : الله يخرب بيتك .
- فوثناها لك هذه المرة .
- وكل مرة إن شاء الله .
- حيرتني يا عمدة . أنت مع من ؟ تبلغ وتستر تحبس ، وتضمن . أنت مع من ؟
- ربك مع الجميع يا باشا .

- مرة آراك شجاعا إلى حد التهور .
- ومرة خواف إلى حد الجبن .
- مرة أكرم الكرماء ، ومرة أبخل الباخلين .
- الصادق الأمين . ولا الكذاب الأشر .
- تخبص بالنهار .. وتصلح بالليل ؟؟
- حيرتني انت جنسك ايه؟

ابتسم الشيخ وقال :

مصرى يا بيه

- تناسى الناس .. بقيت الأوجاع تنقح .. والمواويل تنكأ .. والعواجيز تنبش .
- مين ومين قدك يا شاهين يا ابن الأكرمين .
- كل الناس عبيد وأنتم السلاطين .
- كل الناس : اتخلقوا من طين .
- وأنتم من العسل والسمن معجونين
- الرأس في السما رافعين .

عمره ما طأطأ الجبين .
على كل الخلايق قادرين .
بالشمال باليمين ضارين .
فوق كل الروس بالماكب نازلين .
على كل الرقاب دايسين
مين يقدر عليكم مين ؟

جنت الشرقاوية أم البنية . طافت الدروب ، في الليل ، في النهار . خبطت
على كل البيان . . افتحمت على الشاهين الدّوار .

- شاهين ، يا شاهين
- يا ابن الناس الطيّين .
- وديت زينب فين .
- دفتها تحت الجمال البازكين .
- كان يجرى ايه لو جوزتوها لابن السلاطين ، مد إيده : طالب القرب يا
محسنين ، البنت عاشقة والولد زين ، كان يجرى إيه .
- بدل ما مرط راسكم في الطين .
- زي الحريم قاعدين .
- ابن الكلب خلّص على كل النسّاوين .
- الدور على كبيركم : شاهين .

- صارت الشرقاوية حكاية كل بيت ، من محبسها تصرّح شاهين موت
زينب ، هاتولي يونس أنا عايزاه أنا شائلة منه كل يوم ينام معي ، ينام مع زينب ،
ينام مع شاهين .

- كل الناس تهمس كل البلد تُدندن :
- زينب - يونس - شاهين

- وُجد يونس مقطوع اللسانين : لسان فمه ، ولسان بطنه .
- تتم الشيخ خَلِيل
- كل الطير يؤكل لحمه . كل الطير حل لبني مهران الخازوق بالخوازيق يا أولاد الكلاب بالهنا والشفاء ..

6- قامت القيامة

الحرامية أكثر من الأهالي حرامي من الأعيان : عباءات شيلان، لا سات . خرزان .. كراييج . خراطيش . عيال زيّ القعدان .
تتفاخرون بكثرة الحرامية ، عائلات كاملة . ليسوا حرامية يا باشا، أعيان .
أولاد أعيان ، فتوات شجعان ، حماة أوطان .

يحمون من ؟

- أهاليهم .

- نحن نحمي الجميع ، إن لم تضعوا حدًا لهذا الإجرام فستوقفون جميعا ،
عمد المركزين ، ونعين عساكر بدلا من العمدة . الزناتي أكبر عمدة لا يقدر على
عتل طالع في المقدر جديد، هذا إنذار لكم جميعا أنا اللواء محمد أبو السعود الذي
ظهر أسويط من الخط ، وأباد كل المغارات ، يعجز عن القبض على كام عتل . لا
مكان لعمدة ، ضعيف ، من لم يستطع عليه أن يستقيل قبل أن يُقال ونحن نحمي
الجميع .

- دون أن يستأذن قال :

- أنا العمدة : محمد مهران بن مهران العباسي أراك يا باشا قد قسوت
على عمد البلاد ، العمدة الذين ينتظرون حماية من أحد لا يستحقون أن يكونوا
عمدا وتاريخنا شاهد ، ألم تسمع عن بهائم البرنس ؟ ماذا فعلت الحكومية ؟

- العمدة أعادوهم

- بعد أيام .

- أولاد المأمور عادوا في نفس اليوم .الناس لا تحب الحكومة ، ولا تثق في وعودكم .
- الحكومة تغيرت يا عباسي ، وأيام زمان انتهت ، حكومة صدق باشا لا ترحم . تنبيه لكل عمد الصّعيد .

- الزناتية عددهم كثير منتشرون في كل البلاد ، في سوهاج عيلة واحد ، في قنا عائلتان وسط غابات من القبائل . والولد ابن أبو عسران وسط ناسه ، الساعنة .. زي الديب يغمض عينه ، ويفتح أخرى
- ضيقوا عليه ، سدوا كل طريق ، العسكر جاهزة لابد من ترحيله .اعتقال مدى الحياة .
- اختفى أبو عسران .
- قال العمدة زناني : لن يُخرج الثعبان من جُحرة إلا الحريم . استدعوا زوجته عدة مرات ذهب وفد من أهلها .
- نَعِدكم يا حضرة العمدة أنه لن يدخل البلد .
- انتم تعرفون مكانه ولا بد من تسليمه .
- لم يرد أحد . في طريق عودتهم حاصرتهم الشرطة ساقوهم للمركز .
- العمدة يتهمكم بالتستر على مجرم . وتهديد العمدة في بيته .
- لم نذهب إلي بيته ، وليس لدينا مجرمون .
- لابد من تسليم الخارجين على القانون .
- هذا عمل العمدة ورجاله .
- لن يستطيع .
- ابحثوا لكم عن رجل يستطيع .
- قال العمدة .

- سنأخذ الحريم .
- وراء زوجته ثلاث قبائل ، ويل لمن يقترب .
- قال المأمور :
- نحن الحكومة .
- لا حكم لأحد على بناتنا .
- التفت المأمور إلى العمدة ، وقال :
- ابعد عن الحريم يا زناتي .
- قال أبو هاشم .
- دعه إن استطاع .
- نريد أن نتعاون جميعا ليستتب الأمن .
- لا يستتب إلا إذا منعمت الظلم ، أبو عسران لم يفعل شيئا .
- قال العمدة :
- هذا تهديد يا باشا .
- التهديد شغل نسوان كل ما يصلكم من العمدة تُهم باطلة آتوني بشاهد واحد ، لو ضبطتم أحدا منا أعدموه . لو أردنا أن نفعل شيئا لفعلناه في وضح النهار .
- قال المأمور :
- مع السلامة يا عمدة أبو هاشم ضيفي هذه الليلة .
- تقبضون علينا بدون تهمة !!
- إجراءات بسيطة وستعودون .

تسلل ابن عسران ... لم يجدها .

- عملها الكلب لن يبيت ليلته .

رصد كل حركة . كل سكون . كل همسة ، كل وشوشة .. زقزقة . كل خرير
كل هدير ، كل غدير ، كل قناة : آمال أعوادًا تخطّي أعراشا أوراقا أغصانا ،
تسلّق شجرا انبطح على فروعها كمش . لبد .

تهادى حصان الزناتي الأشقر ، سلالة خيل الزناتي خليفة مؤسس المغرب ،
فاتح المشرق ، قاهر الهلالية .. العبيد تركض . الرياح تسكن ، الأمواج تتسمر ،
يشق بصدره العريض موجات الظلام - يُزيح أغصان الأشجار المتهدّلة على
جانبى الطريق الضيق .

تراصت الأشجار كأنها جماعات العسكر . سكنت . خشعت ؛ إجلالا
تتنحى هيبة . تقوم تحية .. تستقبل ، تودّع .

بفخذه القويتين قبض على فرع متين ، تدلّده منه ، كأنه قرد ، بضربة واحدة
فلق الرأس فلقا . طوّح بنفسه بعيدا ، سقط على الجانب الآخر ، فصلت التربة
بينه وبينهم . برق البرق ، طار الصقر ... اختفى الشهاب .

قال المأمور :

كنا بصدد الصلح ، قامت القيامة ، لن تقعد أبداً .

- ضاقت بنا الواسعة . لم نجد حاميا غيرك ، عمدتنا ، وكبيرنا الآن .

- وفي كل زمان يا ابن شاهين .
- مقتل الزناتي هز المدريتين . لن يمر بسلام .
- دار على كل العمدة والأعيان ، الدور عليكم يا بن مهران .
- العمدة ابن شيخ المشايخ يا ... أنت كبير ناسك . والشرقاوية .
- أولاد عمك لا تستطيعون حماية رجل واحد ؟ وأنا في رقبتني ثلاث قبائل .
- التسّر على قاتل الزناتي لا يقدر عليه أحد .
- إلا أنت يا سيد الناس .
- الصباح رباح .
- زوجتي ، أخته ، واقفة تنتظر . أولادي يتوسلون .
- وبقية ناسك .
- خدامينك .
- اذهب للشيخ خليل .
- ارتعش .
- الشيخ خليل !! الموت أهون .
- ابتسم العمدة . لم يُعلق .
- الحرامية لهم عازة يا عمدة .
- عند الضعفاء .
- دورهم يوم معركة سوق الجمعة
- أنا أرسلتم .

- على أبواب السوق الكبير اصطفوا ، أشرعت نباييت كأنها الرماح
- من اليوم السوق لنا وحدنا ، لا يقاسمنا أحد ، كل الضرايب لنا .

- السوق بيننا وبينكم . لكم البوابة القبلية ، ولنا البحرية .
- ستدفعون كما يدفع غيركم .
- إن لم تغادروا بوابتنا ، فسنطركم بالقوة .
- اصطكت النبائيت ، زعقت الشمايخ . دوى الخرطوش . تداعى الناس
- من كل فج ، ترجل الهواشم ، ظلوا يطاردون الجماعة القبليين . حرقوا نخيلهم .
- هدموا بيوتهم . حموا القبيلة . رفعوا رؤوسكم .
- رؤوسنا مرفوعة دائما يا شاهين . نحن حماة القبيلة ، والحرامية ، لولانا ما
- بات واحد منهم في بيته ليلة واحدة . اذهب إليهم ليحموا نسيبك .
- مع ألف سلامة يا شيخ شاهين .
- من خلفه قالت زوجته قمر عسران :
- نيلتها بستين نيلة .
- اندفعت كاللبؤة . ارتمت تحت قدميه .
- أنت كبيرنا ، عمدتنا ، سيد الذين خلفوهم ، حسن غشيم ، أخي ،
- ولذك ، خدامك .
- قال العمدة :
- ابن مهران ، لا يرد شفاعة النسوان ، مع السلامة يا بتتي .
- سحبته وانصرفت .

- استدعى العمدة المشايخ والأعيان .
- علمتم بمقتل الزناتي . وقاتله من أهلنا البحرين . والحكومة تبحث عنه
- ليل نهار . والجماعة عشمانين فيكم .. في حمايته خطر ، وفي طرده عار .. والأمر
- لكم " أصحاب البلد .
- قال شيخ الحنفية .

- أنا لا أستطيع أن أرفض هم أحوال أولادي .
- قال الشيخ أمين أبو علي .
- أهلنا وعشيرتنا :
- وقال العدوي :
- من قصدك فكأننا قصد البلد جميعا . على بركة الله . قال العمدة :
- وما رأي مولانا الهلالي ؟
- من استجارك فأجره ، وأبلغه مأمنه .
- لم يتبق إلا رأي شيخنا الشرقاوي الكبير .
- انجص الشرقاوي وقال :
- في حمايته خطورة كبيرة على العمدة ، وعلى البلد كلها . الحكومة لن تهدأ . الزناتية يتجمعون عند الخطر ، وهذا كبيرهم .
- قال أبو طالب :
- يريدون ثأرهم من غريمهم . وهذا حقهم .. يريدونه هو . لا يريدون القبض عليه . فلا خوف منهم . الخوف من الحكومة .
- الحكومة لا تعرف طريقه إلا إذا ..
- أكمل .
- دلم على مكانه أحد من أهل البلد .
- العمدة ليس له أعداء .
- لكن .
- قال الشرقاوي :

- عداوتنا للشهانة شيء ، وحياة البلد كلها شيء ، الشر-قاوي شريف ، والشريف لا يخون ، ولكم على ذلك عهدي ، وميثاقي . وسأستضيفه في بيتي ، وأتحمل المسؤولية وحدي .
- قال أبو طالب :
- طول عمرك كبير .
- انشكح الكبير .

-3-

- تقدم الشيخ حسن شاهين بقامته الطويلة ،، على بعد خطوات . ألقى السلام بصوت كأنه صوت جل هائج ، لأول مرة يقف العمدة لاستقبال أحد . هوى الشاهين يُقبل يديه ، حال بينه وبين ذلك .
- العفو يا شيخ البلد. يا ابن الكبير الله يرحمه . الله يجازي من كان السبب .
 - كنا أطفالا يومها .
 - تمتم حسن شاهين : يرفعني عاليا ، ليدوس على مناخير أهلي : الأحياء ، والأموات .
 - خادمكم ابن عسران ينتظر .
 - دعه . مع سلامة الله يا ابن عمي .
 - في صدره قال شاهين:
 - معي ولا ضدي . بين الإحترام والسخرية مني ، شعره ، يتسم حبا ، أم سخرية ، هما معا في ابتسامه واحدة ، يصر كالجمل ، ينتقم متى شاء ، يعفو متى شاء . يقوم لاستقبالي صباحا ، يضع حذاءه فوق عنق الذين خلفوني ، والذين لم يخلفوني ، أمام الناس جميعا . دون أن يرفع مركوبا . إشارات . حركاته ، نظراته ، ابتساماته . سب ولعن وقذف . لا يستطيع أحد أن يمسك عليه خطأ واحداً .

عاد شاهين . ظل الشاب واقفا خارج الدوار . قبل نهاية سهرته .
- أَدْخِلُوا الضيف .

بقايا نار التدفئة ، كاد الجمر ينطفئ ، حبات تبرق كأنها الياقوت والمرجان ،
تشب حيناً ، عود ثقاب ، اشتعلت البقايا شيباً ، يقلبها بطرف الماشية ، يقبضها
حيناً ، يتأملها ، لا تفارق لفافة التبغ المبتلة فاه ، عند منتصفها يلقي بها .
رفع عينيه شاب في الثلاثين من عمره ، بادى الشباب والفتوة ، منسق
الأعضاء . متين التكوين . كأنه قُدّ من صخر . رأس مدوّر ، تعلوه عمامة
حبكت بعناية شديدة . على كتفيه شال متواضع . يُكّ شباباً وبهاء ورواء .
جبهة عريضة تكادُ تبرق ، على الرغم من شدة الانكسار ، سيماهم في وجوهم
من أثر الخوف والقلق والذل . على استحياء يرفع الطرف . من وقت لآخر .
رموش ، سابغة ، شديدة السواد . وجنتان بارزتان ، قويتان ، كأنهما خبتاً دؤم ،
حمرة وصلابة ، عينان واسعتان غائرتان ، كأنهما ضربة فأس تدور في المحاجر
حدقتان محمرتان .

أنف ممتلئ قليلاً ، يندفع من فتحته هواء ، تكاد تسمعه ، تعلوان وتهبطان ،
رقية غلباء ، كأنها رقبة مصارع ، غُرست في كتفين قدّتا من الصفا والمروة ،
صدر عريض ، التصقّ به جلمودان ، تكاد فتوته تصرخ .. عليه " رُبّع ملكان "
أزرق فاتح . أحكم الحائك صنعته .

كان الشيخ محمد مهران دقيق الفراسة ، خبيراً بالرجال .. أضمر إعجابه . لم
يبد عليه شيء من ذلك .

- ستعيش بيننا كأولادنا . نوفرك سكن ، سنجد لك عملاً . لا تفعل شيئاً
دون علمنا . كن حذراً ، الزناتية سيعرفون ، وكذلك الحكومة . توخّ الحذر

من الصديق قبل العدو ، سيغرون واحداً من أصحابك . عليك أن تعرف من هو ؟ انصرف الآن .

حين خرج كان حسن شاهين لا يزال ينتظر ، اندفع يشكر العمدة . ألقى السلام ، لم يسمع ردًا ، بدا صوته الأَجَش يُرغى ويُزبد ، يعلو ويهبط ، كأن لهاة جمل تتردد في حلقة ، في عنقه الطويل . انكبَّ يقبّل يد سيده .
- جميل لا ننساه مدى الحياة . طوقت عنق الشهاينة .
" في سره دُست عليهم بالمركوب " في عودته همس : .
اكتسب احترام الناس . أَمَنَّ نفسه ، وضع كل الحرامية في جيبه ، نفوذ جديد ، زعامة جديدة .

-4-

- لا نستطيع أن نصبر طويلا .. لن نعيش منكسي الرؤوس . لأول مرة يجرؤ أحد ، كان الناس يفسحون الطريق لمواشيئنا ، ترتع وتلعب ، وتأكل ما تشاء ، حيث تشاء . أراضينا حرم مقدس لا تطأها قدم بغير إذن . كان الزناتي الكبير يقول :

- يجب على الناس جميعا أن يغتسلوا ، ويتوضئوا قبل دخول الدّوار .
قال بدر الزناتي :

- الناس يقولون :

لو قُتل الزناتية السماعنة جميعا ما أخذوا ثأرهم .

- كليب سدّ في ناقة .

- العمدة بالعمدة .

- عمدتنا بعشرة عُمد .

قال عبد الجواد الزناتي :

- لا نريد للموضوع أن يتسع ونعادي كل القبائل .. السباعية استنكروا ،
تبرؤوا منه .

- نعلم أن مصابكم جليل . وأن العمدة الكبير لا يساويه أحد ، بعد
الأحداث الدامية في (دشنا) اتفقنا على أن من قتل يقتل دون غيره ، هكذا قال
كبير السباعنة .

- ثأرنا عند ابن عسران : سنصل إليه ، ولو في فلك السماء ، أو باطن
الأرض . الفلوس تحترق كل الحواجز ، تغرى أقرب الناس : الأهل .
الأصدقاء ، الزملاء . حتى العمدة والحكومة .

-6-

التقى جمال أبو زيد ، ابن أخت الزناتي ، بأمين الهواري . طالع في المقدر
جديد ، يقتل بغدوة .
قال جمال :

- أرضنا تمتد حتى بلدكم في الحاجر ، نكتب لك ما تريد . ندفع ما تشاء .

تعمل العصابات ضمن مجموعات من الأهل ، ليس بينهم غريب ، سلالات
بعضها من بعض . إذا غرّد عصفور منفردا ، فلن يغني طويلا .

كان أمين الهواري عزفا منفردا شاذا . رصدته العيون . لعب في مربع
الهواشم .

قال ابن مهران :

- ما حكاية الولد اللي طالع في المقدر .

- وصلت رسالته .. اختفى الهواري .
سيطر الهواشم . أبو عسران . بدأ يتحرك بالليل ... بالنهار ..

- 8 -

زحفوا على بطونهم .. تلوّوا كالثعابين . انكبوا .. اندلقوا . جرازين تقفز
فئران تتسلق . ضفادع تنشط .. برك . مستنقعات نفايات ذئاب جائعة ،
كلاب مسعورة ، أسلاك بعيدة .. عالية ..
بناية . يحذر . حرص حريص . خفة . رشاقة . بمبضع جراح قُصت
أسلاك . زخف رجال إلى مخازن القوم . حملوا على أكتافهم . حول رقابهم .
إطارات . صناديق . كراتين . بالات .
استوقف الحلاق سيارة . ألقى بسائقها . انطلق كالريح . قطار التل الكبير
قسمها ، طارت الكبينة ، سقطت في التربة . كاد الحلاق يموت .

انطلق سلمان الضبع .

- قف .

هكذا هتف الضابط الإنجليزي . توقف الضبع . دَوّت نيران الشوار ..
انهالت كالطرر .

دَهِس الضبع الكمين . دَوّت صفارات اختفى الرفاق .

همس الحلاق .

- غدا تتدفق عربات المؤن : الخضراوات . اللحوم .. الفواكه . دعوها تمر
إلى المعسكرات .

- فرصة لتجويد الكلاب .

- لا تتعرضوا لها .
- أنت معنا ولا معاهم .
- غداً سترى .
- ملأت السيارات ساحات المعسكرات .. اختفى عمال التفريغ .
- فتشوا عنهم في كل مكان : التل . القرين . القصاصين .
- ليس لأحد منهم أي أثر .

على قهوة الصعايدة وضع الحلاق رجلاً على أخرى " طنَّقِر اللبدة. " شد
نفسا عميقا ، نفث الدخان ، تطاير الهَبُو . علا الهباب .. سعل الضابط . فرك
عينيه .. رفع كرباجه . قبض أبو الشام على رسغه . شلّت يمينه - سقط
الكرباج . أشار الحلاق .

- اتركوه . تفضل يا خواجه
- حبيبي مستر حلاق الطعام تلف .
- بالهنا والشفاء
- الضباط ماتوا جوعا .
- البقية في حياتك .
- ماذا تريدون ؟
- سلامتكم .
- قال المعلم أبو الريش الكومي .
- الإفراج عن المحجوزين .
- تعويض مناسب .
- قال الخواجه :
- كل ما تريدون ، بعد تفريغ الحمولات .

- يفتح الله يا خواجه .

قبل أن يصل الخواجه مقر قيادته هاجم الضبع ورجاله الحجز ، خلصوا
الرهائن ..
- إياكم أن يفرط أحد في سلاحه . السلاح مهرب من وزارة الداخلية .
سلاح ميري . لو وقع في يد الانجليز .. أزمة مع الحكومة .

- مصيبة .. مصيبة كبيرة . قطعوا الطريق أفرغوا السيارات .. ألقوا بكل
ما عليها في التربة . ولّعوا فيها النار . الإنجليز في كل مكان ضرب النيران لا
ينقطع . هاجموا المحافظة ، الحرب .
اشتعل خط القناة .. دبابات .. مصفحات قتال حتى الموت . مطلوب
بالاسم أ . أحمد رضوان الحلاق . ليس له أثر في الدلتا كلها فرّ إلى الصعيد ، لن
يستطيع العودة .

-9-

حَطّ الحاجر ، غيرَ حَطّ القناة . الكوم والعوامر ، غير التلّ والقربين ، كل
الناس حماية ، كل البيوت مأوى .
العمد استكفوا . العوامري ، وأبو خليفة ، ومتولي (حيطان مايلة) . مرازي .
لا فعل ، ولا سند . ضياع .. هكذا ناجى الحلاق نفسه .

- كل الزملاء إخوان ، الهواشم ، الشّيَاب ، أولاد الشبّ ، أبو فرغل
وأولاده ، الماوى ، وأولاد أخته ، إلا أنا وأنت ، من يعمل وحده عمره قصير ،
أيدي في إيدك يا عم (عسران) ، صبيّك وخدامك .

عدة عمليات والحلاق صبي مخلص ، تابع مطيع ، حرامي . صادق أمين ،
يؤمر فيلبي ، وأبو عسران لا يخرج من بيته .

- ألا تعرف أن البراغيت تابعة لنا ؟
- بهائم العفاشات ترجع اليوم . ومعها من سرقها ، إن لم تبث البهايم في
حيشانها . فلن تبيتوا في بيوتكم . هكذا شخط الشيخ خليل في كبار اللصوص .
قال أبو هاشم :

- هذه البلاد ، بلادنا ، وهي في حمايتنا .
قبل أن يكمل كان مركوب الشيخ خليل أكل نصف وجهه .
- أنتم والبهايم والناس أجمعين في حمايتي .. قبل أن تطلع الشمس ، ثمن
البقرتين ومثله معه ، غرامة ، يصلني هنا .. وسيأتيني السارق .

-10-

في همس هامس ، وخطو وئيد ، وسر خفي ، بدأ الحلاق يتحسس خطاه إلى
الناس ، علاقات بشبه أعيان ، على أطراف القرى .. في مكينات الري ، يتوهمون
الجاء ، يتخيلون الحماية . يتردد الحلاق عليهم .. حلم بأن الشيخ خليل
استدعاه .. بصق عليه ، لحس البصق . شكر النعمة . سجد ، صدق حلمه .
- أخوالي : قالولي أفعل ما تشاء .

تاه بخثولة بعيدة :

كانت أمه شفيقة بنت مهران ، لكنه مهران آخر .

- لم نرك منذ مدة .

- كنت مريضا يا عم عسران .

- بهائم البراغيت .

- لم أسمع عنها .
- دكان الخطيب .
- لم أدخل بلدكم إلا لزيارتك ، وهذه آخر عملية .
- خمسة جنيهاً ؟
- لم أكن وحدي . جئت اليوم لأنفذ ما تريد .
- اهدأ . لا تفعل شيئاً إلا حين أطلب منك . الشيخ خليل لن يهدأ . كل الزملاء يبحثون عن الحرامي الجديد . ويل له إن عرفوه .
- لا كبير لي غيرك . ولو أمرتني لذهبت إليهم في بيوتهم . أنا لا أحتاج حماية من أحد ، لست مطلوباً لا من حكومة . ولا من أهالي .
- تهديد .

- بدأ الكلب ينبح . يهددني في بيتي .. حان حيتك يا ابن شفيقة . أصبح لك أعوان وأتباع . أعلم أن كثيرين بدأوا يتقربون يغيطون أولاد مهران .. حتى الزناتية اتصلوا به . وعدت العمدة بالكف عن المشاكل . البلاد مقلوقة . يومك قريب يا ابن حلاق الحمير .
- توالت رسل الزناتية على الحلاق .

- 11 -

- يوم الثلاثاء القادم - إن شاء الله سنظهر الأولاد ولن يتم الفرح إلا بتشريفك يا عم عسران ، ستكون ليلة من ليالي العمر .
- تتم عسران .
- آخر ليلة في عمرك يا ابن شفيقة . في بيتك ، بين أهلك . ستكون مطمئناً . صيدك بعيداً مستحيل .
- سفرة دائمة يا ريس .

- فضلة خيرك .
- الجماعة الشرقيين خباصين .
- تجاهل أي إشارة إلى الزناتية .
- لا أدخل بيوتهم .. يرسلون إلى غلة ونقودًا . خافين منك .
- والدكان الذي كسرتة ؟
- لا أعرف عنه شيئًا .. صدق أخوالي العباسيون كلام الناس . وضربوني في السوق .

- عبد العاطي ضيّعه الطمع .
- كنوز الدنيا ولا ظفر واحد منك يا عم عسران .
- تعالى يا أمي اقرئي معنا الفاتحة على الخاين .. ست طاهرة ومصلية .

- الليل ليل .. سأمر على ناس بحري البلد ثم أروح قبل أن يطلع النهار .
- ليس معك سلاح . خذ هذا المسدس .. سأوصلك إلى آخر البلد .
- اترك بندقيتك
- ليس بها زخيرة .
- كسر بندقيته نفخ فيها . وضع أصبعه . تأكد أنها فارغة . مرا على دكان غانم زيدان . استأذن الحلاق .
- سأشتري سجائر . وألحق بك .
- تمشى عسران قليلا .. داخل الدكان استل الحلاق من عمامته خرطوشتين ، حشا بهما بندقيته .
- تحسس عسران جيبه . على بعد خطوات أدار وجهه .. مزق الخرطوش كتفيه . اختفى الحلاق .
- قال شيخ خفر الكوم :

- عسران مطلوب للحكومة . وجود جثته في بلدكم جريمة . تستر على هارب من جريمة قتل . تخلصوا منها خارج الزمام .
كانت مياه الفيضان بدأت تسيل في الحقول ، حمل رجال من الكوم جثة القتل ألقوا بها في ساقية مهجورة خارج الزمام ... بعد أيام استخرج شبان جثة خالهم . لم يُفيد حادث .

- 12 -

كان مقتل عسران محتملا . لكن لم يكن متوقعا أن يكون على يد غلام قُسل . حذرته من الاستهتار والدناوة . مقتلنا في طعام الآخرين . ونسوانهم " لأول مرة يدوقون لحمنا . خوفي من القادم " . هكذا قال عبد الله أبو هاشم .

لم يستطع الزناتية أن يخفوا فرحتهم بمقتل عسران ولا يبدوها . فلم يقيموا عزاء لعمدتهم .
قال بدر الزناتي :

- لا تظهروا شامتكم . ولا تحفوا فرحتكم باسترداد كرامتكم ، أعلنوا براءتكم من مقتله ، وأن ثأركم لا يزال عند الهواشم . ليظلوا خائفين .

ساد مربع السماعنة سكون :

- القاتل والمقتول أولادنا .

- لا ننكر على الزناتية حقهم . ولكن .. يتهمنا العوامرية بأننا وراء خطف رجلهم . والعدوية يتهمونكم بسرقة مواشيهم .. الحلاق يقضي- ليله عندهم . يشيعون أنه سيقتل آخرين .. هكذا همس العمدة محمد مهران في أذن أحمد أبو هاشم .

- نحن أبناء القتل ، وأحباؤه . نذرنا أجدادنا للموت على السكك . لم يمت رجل منا على فراشه كما تموت النساء . لسنا طلاب ثأر . ولا من قتل من ؟ لكن العار كله أن يُقتل عسران على يد هذا الغلام . لا يرتفع سلاح فوق سلاحنا . لا صوت يُدوي غير صوت رصاصنا .. لن يُزرع زرع ، لن ينبت نبات إلا إذا ارتوى بدماء الحلاق .. عز النهار . بهذا أمر أحمد أبو هاشم .

من عصور سحيقة . من قبل العصور ، من جنان الخلود ، من علياء ذات البروج . تفجرت جداول رقراقة . سالت عيون نضّاجة . تحبّشت فوق هضاب الأحابيش . تدفقت صوب الشمال ، سابحة ضد تيار الحياة ، لأنها هي الحياة تقتات الخيال ، يحدوها المجد والجلال . وكأنّ عراقة الجنوب ، تطهر حادثة الشمال . تعالت أمواج .. تطامنت جذوع الأشجار خاشعة ، عنت رؤوس النخيل ، ساجدة ، تشققت أرضين ، تبسمت شقوق ، مُدّت أزرق ، فُتحت صدور ، تحتضن عريسها .

اختبأ الثعبان في جحره ، تحيط به أسوار من الأمواج .. عَطَلَتِ الطرق . سُدَّتِ الفجاج ، تقطعت السيل .. غُلَّتِ الأيدي . برد البارود... تخرطشت الحراطيش

أقلعت السماء - تحبّش الحبشي ابتلعت الأرض ماءها ، غيض الماء ، مات الذي أحياها .. ترسّب ذوب الذهب من أصلاب النيل . ضمته ترائب الأرض في أرحامها . انسحب بعلها . تقهقر مُغرقها ، تحيها . انسل نافخ الروح فيها . سائل المسك .. ذوب العنبر على صدر حبيبته نسج النيل غلائله .

قال أحمد أبو هاشم :

- الحاج عبد الرحمن متولي هو الحاوي ، الرفاعي ، الذي يُخرج الثعبان من جُحره .

قال اسماعيل أبو هاشم :

- يمدّه بالمثونة ، وبالخراطيش ، يستعين به ، يأمن رذالته . ونطاقته . ليس في سماعة قبلى غير الحلاق . يستقوي به خصوم ابن مهران .
 - تسلل غلام من صبيان الهواشم إلى مكينة المتولي .
 - الشيخ أحمد هاشم يسلم عليك .
 - أصفرّ وأخضرّ وأغبرّ .
 - نرسل له ما يريد .
 - ليس بلطجيا يفرض إتاوات ، هو من أعيان السماعة كما تعلم .
 - ماذا يريد ؟
 - لا يريد شيئا . يسألك عن أحمد الحلاق .
 - لا أعرف عنه شيئا .
 - أرسلت إليه يوم السوق لحما ، وسمنا ، وسكرا وشايا ثم ، سكت ..
- فلوسا .

انحط الرجل على الأرض .

تمتم : يُعدون علينا أنفاسنا . خبأت المرأة تحت بردتها كل شيء . لم يفتشها أحد . كيف عرفوا !!! مكشوف عنهم الحجاب . مدد يا سيدي حرامي مدد .
انقطع المدد ، إلى الأبد .

خرج الثعبان من جحره يَتمطى . تسلل . تلوى بين الجموع المتدفقة إلى
السوق الكبير ، سوق الجمعة . مضى يومه عند المتولي . في ماكينته ، بين الكوم
وسمهود . عاد .. لم يشعر به أحد . تكرر الذهاب . دام الإياب .
في يوم جمعة عز النهار .. من بين جموع الحمير العائدة . غرّبل الرصاص
جسد الحلاق . تسمع الشرق . لم يخف الغرب فرحته .

7- زمن الهاشم

-1-

- ثلاث ذكك ، عليها بُسَط ، مساند ، مخدات . سقف من الجريد والبوص .
مزاير . قلل . في ركن قصي عدّة الشاي : « وأبورجاز » ، سخان ، براد . صواني ..
كبابي . جَوْز . لا يشعل أحد لفافة تبغ بحضرة كبيرهم .
- نحن الآن من الأعيان . لا يليق بنا كسر ، دكان ، أوجر ثيران ، أو حتى
خطف أحد من الأعيان .
- لسنا مطاردين . من الحكومة ، أو الأهالي .
- الحلاق قتلناه ثأراً .
- الهواري لم ننتهم فيه .
- لسنا محميين من أحد .
- نحن الحامون للناس جميعا .

تأمل أحمد أبو هاشم إخوته ثم قال :
-إياكم والغرور فقد قضى على أولاد الشايب وهم سبعة إخوة ، وأولاد الشب ،
أكثر من عشرين رجلا ، خاصموا العمّد والأعيان ، عادوا الحكومة ، افترؤا على
كل الناس . لم يبق منهم أحد .

احذروا الصغير قبل الكبير ، أي عيّل طالع في المقدّر . من قال أن الحلاق
يجرؤ على قتل عسران . الهواري قد يظهر له ناس يوما من الأيام .. عيال الحلاق
سيكبرون .

- لا نستغني عن الأعيال والعمد .
- نحن نحميمهم من الناس .
- وهم يحمونكم من الحكومة .
- الحكومة لا تنسى أننا أبناء الذين كسروا قصر البرّنس .
- لولا تستر الناس عليهم لهلكوا جميعا . الشيخ مَهْران العباسي ، حماهم
من البرّنس نفسه . لا تفعلوا شيئا .
- كيف نعيش ؟
- سيصلكم ما تريدون ، دون أن تخرجوا من بيوتكم .
- كيف ؟
- أرسلت للسهمودي من يقول له .
- أبو هاشم يسلم عليك : وانتظر الرد .
- وإذا لم يرد ؟
- لن يجرؤ ، وقد شاهد دم الحلاق يسيل في أرضهم
- كان الحلاق يبتزّه .
- كل الذين فرحوا في الحلاق سيردون .. أمنوا نطاعته ..

عاد الرسول مُنكَّس الرأس .

- ماذا حدث ؟

- لم يحدث شيء .

- قل .

- رفض مقابلي .

- فقط .

- تهته .

- أنطق .

- قال لي عبدهم .

- خذ هذه الأمانة واصلها لأسيادك

رزعني شلوتا . كفاني على وشي ، تف عليّ ، وعلى ..

- أكمل :

سبّ ، ولعن ، وتهديد ، ووعيد .

- لو رأيت أحدا منهم سأصلبه على عمود التليفون . .

أرميه رمي للكلاب . يتناولون على أسيادهم . لولانا ما عاشوا يوما

واحدا . سأتي بهم مكتفين .

قل لهؤلاء الكلاب . لن تبيتوا في بيوتكم بعد اليوم .

فكر أبو هاشم طويلا ...

يتمى السمهودي لأسرة قليلة العدد في جزيرة وسط محيطات من القبائل ،
لا يعلم أحد من أين جاءوا من (دِيرْب نجم) في الشرقية . من المطاعنة في إسنا لا
يزوجهم أحد ، يزوجون بناتهم لكل الناس ، يصفونهم بالفلاحين .
تملكوا .. ملكوا . حكموا . ارتبطوا بالوفد ، صعدوا بصعدوه . لم يهبطوا .
غطسوا .. قَبُوا . نَبَعُوا .. ارتموا في أحضان الساعنة . خدموهم . أكرمواهم ..
أطعموا .. سقوا . تملكوا رقاب الناس .
لم يعلق الكبير .

همس اسماعيل أبو هاشم في أذن أخيه الأصغر
- علينا أن تغافله ، ونذهب إلى السمهودي قبل أن يفيق من نشوته ،
ويتنشر خبرنا .
- الآن ؟
- عز النهار .
- أحس بهما .
- انتظرا . سأذهب إليه بنفسى ، ونكتسب ودهم .
- وإن أهانك !!
- لن يفعل .

- شاب قوي مغرور . ربط الكومي في النخلة . طين عبد العاطي . وراه رجاله . لا تذهب أنت .
- غداً ستمع الفضيحة . ويحصن نفسه . المال لديه . والسلاح - يشترى الرجال .

-3-

- قفوا بعيدا .. اختبئوا لا يراكم أحد . الذرة العالية تحيط بنا من كل مكان .
تقدم الكبير .
- السلام عليكم يا شيخ أحمد
لم يسمع ردا . مديده .. على وجهه دوّت صفعة . كادت تسقطه . حاول أن يتماسك ، أمسك السمهودي بتلابيبه . انهالت عليه أكف الرجال . حاول أن يتفلّت .. لم يستطع .. من بين عيدان الذرة . تسللت طلقة . استقرت تحت إبطه .. خر صريعا . قُتل السمعودي .
انخلعت الحقول . انتشر الجراد .
- الفرار الفرار . صدوا كل متقدم .. أطلقوا الرصاص على الجميع .
- كمشوا خلف السواتر ، انبطحوا على حافة الجسر ، تقطعت الطلقات .
ابتعد الناس . شبح يترأى خلف سور المستشفى
- خفير يحمل خرطوشا يترصدنا ، لا نستطيع الحركة .. سيصوب على أول واقف منا .. اتمشوا .. البدوا .. التصقوا بالتراب

- الحكومة في الطريق .
- لا يستطيع أحد صيده غيرك ، سأقف أنا وليكن ما يكون ، لا حيلة لنا .
- من بين أسوار المستشفى مد الخفير خرطوشه ، قبل أن يسحب زناده ،
- انطلقت رصاصة الكبير ، داخل ما سورة الخرطوش ، استقرت في صدر الخفير .. تسللوا .. فروا - عادوا إلى بيوت غير بيوتهم .

- ليس لنا عداوات .. كل الناس أهلنا حباينا .
- عيار طائش ، كان ينظف سلاحه . وهذا هو السلاح .
- قضاء وقدر . لا نريد أن نخلق عداوات ونحن على أبواب انتخابات .
- قيّد الحارث ضد مجهول معلوم .

-4-

- ثلاثة قتلى في أقل من عام . والفاعل مجهول .
- الحكومة لا تعرف حتي لو تعرف . لم يتقدم أحد بشكوى الحلاق أولاده
- صغار .. السمهودي أهله لا يريدون مشاكل - الهواري مشاكله كثيرة . أهله
- تبرأوا منه .

- كلبك إن دار ما لوش تار .
- الجماعة كفوا تماما عن السرقة .

تفطرت ... النذور : سخلان - جديان - خرفان ... عسل . سمن . فول ،
عدس ، قمح ، شعير . حتى علف الماشية . لا ينقصهم إلا الشموع والموالد .
مدد يا سيدي أبو هاشم . مدد .،

- أولاد أبو ربيع قدموا من السفر منذ أسبوع .. لم يمروا علينا .
- حرقوا عليهم بيوتهم :
من المطار توجه محمد حسن الشرقاوي إلى البيت الهاشمي . طاف بالبيت .
وأتى بالنذر .

سلب .. نهب .. رذالة . نطاعة . سكاة .

لا كعامة . لا صريمة . لارسن . لالجام . لا قيد . لا هجار . لا عقال .
انطلقت مواشيهم . في مزارع جيرانهم ، برطعت .. كسرت عيدان . عفت
بطيخا وشاما .

ضاق بهم الجابرية . أرسلوا الرسل . لم يجرؤ رسول أن يبلغ .
تقدم جابر الجابري ، عين أعيان المركز ، متوسلا .
- نحن جيران منذ أن حللتهم هذه الديار . لم تروا منا إلا كل عناية ورعاية .
عاش أجدادكم يحفظون الجميل ، لا أهل لهم غيرنا ، لا يجرؤ أحد أن يمسه
بسوء ، يحسبكم الجاهل أهلنا ، كفوا أذاكم عن أرضنا .
جذبه شاب من أولادهم .

- انزل من على حصانك أولا . ثم تكلم

- أنا جابر الجابر .

- طرّ

- أنا جابر الجابر

- طزين . عد من حيث أتيت .

- أتعطرونني من أرضي ؟

- لا أرض لكم هنا

- بيوتكم في أرضنا .

- انزلوه . ثم دعوه ينصرف .

- احتجزوا الحصان .. عاد الجابري ماشيا .

في دوار الجابرية

- لن يبيت حصاننا إلا في إسطبله .

- أبلغوا الشرطة .

- الموت أهون .

اقتحم رجال الجابرية بيوت الهواشم . دوّت أعيرة الهواشم .. سقط محمد

الجابري قتيلا .

من الكمائن والنقط تدفقت الشرطة . في غابات الذرة المطلة على الوادي
السحيق ، احتل الهواشم الربّي العالية أمطروا الوادي .. قُتل جنديان . انسحبت
الشرطة .

اختفَى الآخرون .

فرّ الهواشم .. عبّروا الجسر . أنداحوا في بلاد السّاعةنة .. حاصرت الشرطة
القرى . اتلفوا مزارعا هدموا بيوتا . استاقوا نساءً وأطفالا .

قبل أن تغرب الشمس تداعت كل القبائل . تحركت المواكب .. يتقدمها
شيوخ ونواب ، عمد وأعياء طوّقوا المركز .
- وفود القبائل تُطلب الإذن يا باشا :
- ليس لديّ وقت لا تأذن لأحد .
اقتحم الرجال الأبواب .
- هكذا دون إذن !!
- صاحب البيت لا يستأذن
- البيت بيت الحكومة
قال الشيخ زيدان الزيداني .
- المركز وكل ما عليه ملكنا . وأنت ضيفنا .

- قال البريري : المحتجزون . يطلق سراحهم الآن .
- قال المأمور :
- لن يكون ذلك أبدا .
- قلت الآن :
- قال أبو مهران :
- إذا لم تطلقوهم فلن يبيت أحد منكم في بيته :
- الحكومة قادرة على حبس من تشاء ،
- دون سبب ؟
- سلموا المجرمين .
- ليس في مركزنا مجرمون .
- الهواشم يا عمدة .
- الهواشم من المديرية البحرية .
- اختبئوا في بلادكم .
- حريمنا لا علاقة لهم بذلك . ولن نفك الحصار عن المركز . إلا إذا
- أطلقتم الحريم .
- أوامر عليا .
- ستلغى الأوامر ردّ على التليفون يا سعادة المأمور .
- على الجانب الآخر :

- رَجَّع الأمانة إلى بيوتها الآن . لن يبيت طفل خارج بيته .

- حاضر يا فندم .

انسحب الجميع . قال أبو مهران :

- لا تطلقوا طلقة واحدة ، كان الهواشم في طليعة العائدين .

قبل أن يتتصف اليوم الثالث كان وفد الأعيان في مكتب وزير الداخلية .

نحن فؤاد باشا سراج الدين وزير داخلية مصر .

أمرنا بما هو آت .

يحذر على رجال الشرطة ، أو أي فرد من أفراد الداخلية دخول قرى ونجوع

مركز أبو تشت . دون إذن من عمدة البلاد يعمل به من الآن . وزير الداخلية .

8- العمدة الكبير

-1-

من فوق دكتته مدّ عصاه .. خطّ خطوطاً .. بالطول بالعرض . تقاطعت ..
تداخلت تداورت . لم يتبين طريقه . تاه طرف العصاة .. نملت أصابعه .
سقطت عصاته . لم يشعر بها . أحمد الكبير مات ترك صغاراً سيد درويش . لو
كان أحمد زيه لشحتنا . محمود غشيم . سمعان جعجاع . الصغير غلبان مشيخة
الغفر كثيرة عليه .

المصيبة في المصيبة . استعنت به على كل الناس . بلعني . داهية لو طبقوا
قانون الكتابة والقراءة . الوحيد الذي يكتب ويقرأ . هو وأولاده . وضع ابنه
على التليفون . يملك نصاب عمدتين . جبار ، لكنه محبوب .
يهزّر مع كل الناس ، عايش معاهم في الدكاكين .
في الموالد .. على المساطب .

-2-

دخل يتوكأ على فرع صغير .
قال الخفير :
- ماذا تريد يا أبو الطيط ؟
- عايز العمدة .
قال العمدة محمد مهران :
عايز ايه يا رجل .
- أنا عايز العمدة الكبير .

جذبه الخفير :

- العمدة أمامك :
- أنا عايز الشيخ خليل .

نهض لفح جلايته على كتفه ، نسي عصاه ، فات مركوبه .

- العمدة الكبير !!
- كل الخطابات الشيخ خليل العمدة . نسي الجميع أن البلد لها عمدة واحدة اسمه محمد مهران العباسي .

على قبر أمي

في جانب من الدوار جلس . اندفع الغلام نحو المتربع هناك . صرخ :
- أمي عيانة يا حضرة العمدة .

جذبه خفير :

- هو العمدة دكتور يا ابن الكلب .

- أنا عايز السكر بتاع أمي .

- السكر في الدكان :

- قال لي البقال هات ورقة من العمدة خليل .

- ماذا تعملون به !!

- أمي عيانة . دواها كباية لمون بسكر .

- خذ هذه الورقة .

قبض عليها قبضا شديداً ، عض على أطراف هلاهيله بأسنانه . تطايرت
الخرق في الهواء كأنها أجنحة الفراش ، دفع بالورقة . مد صبي البقال يده
المتسخة بقرطاس كأنه خيطٌ ، بحلق الصبي :

- بس !!

- المكتوب في الورقة " تلقِمة واحدة "

- قال البقال :

- اكتب يا سيد : تسلمت أنا حليلة القرعة كل تموين هذا الشهر : سكر ،

وشاي ، وزيت ، وعدس ، وفول .. كل الأختام في الدرج .

مرق الغلام في الدروب الضيقة اخترق الكيمان ، رفع رجلين كأنهما فلكة
مِغزل . عودا ثقاب ... قبل أن يطأ أرض مخبئها . دوت صرخة . اندفع ...

كالرصاصة ، ارتمى عليها ، فتح فاها ، سحقها سكرًا ، صب ماء ، عصر لمونة ، جذبته امرأة ، تلقفه رجل .

ظل سيد ابن حليلة يزور قبرها كل يوم ، يضع سبع حبات من فتافيت السكر ، سبع قطرات من الماء ، سبع نقاط من عصير الليمون .

- اصحي يا أمي .. قومي . النهار طلع ..

فرغ القرطاس ييس الليمون .. ماتت أمي .

اختفى سيد ابن حليلة القرعة .

- كل البطاقات كل الأختام لا يخرج منها شيء . الشتاء قادم الناس عرايا . نصف الدمور . نصف البطاطين - نصف العدس والبقول والقمح والزيت والجاز . لا تصرف سكرًا ، أو شايًا ، أو صابونًا . إلا بورقة مني . خزن كل شيء .

- مفتش التموين يا عمدة .

- الهواء لن يدخل بدون علمي : جهز أوراقك . حملة سرية ستمر عليك يوم السبت الساعة (12) ليلا .

تظاهر الحاج علي ارتبك ، تحبّط يبحث عن الدفاتر . فرز المفتش الدفاتر اسما .. اسما ..

- بالاضطلاع على دفاتر الصرف ، وتفتيش المحل والمخازن ، تأكدنا أن جميع المواد التموينية صرفت لمستحقيها ، وقد أكد الأهالي ذلك . وعليه نوصي بمضاعفة حصّة هذا التاجر الأمين ، وتحويل حصص بعض التجار إليه .

مد يده بثلاث علب من سجائر العمدة ، التي لا يدخنها أحد في خط الحاجر غيره .

- أين السكر والشاي !!
- قالها الغفير باستغراب :
- لا يصرف إلا بورقة من العمدة .
- العمدة لا يكتب ورقا .
- لا بد من ورقة من النائب : الشيخ خليل .
- العمدة الكبير هو الذي أرسلني .
- أوامر الشيخ خليل .
- لا تسري على عمدة البلاد .
- على كل الناس :
- جذبه من جلبابه ، جر جره إلى الدوار .. دفع به إلى مجلس العمدة وضيوفه .
- همس البقال في أذن العمدة ، وانصرف .

- قال العمدة محمد مهران :
- يا سيادة عمدة البلاد . هل تأذن لي بكوب من الشاي .. اكتب لي ورقة لأدخل الحمام .

دون أن يلبس نعليه ، هجم في صمت صاحب ...

- لن تر التموين بعد اليوم .سأنقله إلى الخواجة شفيق . ستعود للمش
والمלוحة ، يا زفر .

-5-

هدير سيارات - صياح عمال . ضجيج .. جَلْبَة . خبط .. رَزْع ، استيقظ
مذعورًا .

- العمدة باع قطنه . ننقله للمحلج .
لم يعلق .

بعد أيام تسلل إلى مكتب الخواجة " نور "
وفرت على المشوار . كنت سأتيكم . هذا بقية ثمن قطنكم .
- الجيب واحد يا خواجة .
- شروّة مبروكة .. بعته في نفس اليوم .. ربنا عشاني : أخذت عرابين
مائي قنطار ، أريد مساعدتك .

- لدينا خمسون قنطارا . جاهزين بعد أسبوع وسأدبر لك الباقي
- هذا ثمن قطنكم وعمولتك .
- القطن كالقمار يا خواجة .
- واخذ على مكسبه وخسارته .

همّ بركوب جحشه .
قال الشيخ خليل :
- مريت على الخواجة نور أمس .
تسمرت رجله في الهواء ..

كان يعلم أن الخواجة لا يستطيع أن يخفي عن خليل شيئا . عدل عن سفره .
دون أن ينطق . اتجه إلى ماكينة الري . انطوى . انكمش ..

نزل الخواجة نور من سيارته :
- التسليم اليوم يا عمدة الشيخ خليل قبض الجديد والقديم :
لم يعلق .
شُحن القطن شحنت معه كرامته . رجولته . عموديته .

شديد الغموض . صندوق محكم الإقفال .. لا يبتسم قط - (عبوسا .
قمطيرا) . نخافه . نخشاه .. ترهبه .. نجله . لا تدري إذا كان احتراماً أم
خوفاً .. لكن المؤكد . أنك لا تستطيع أن تحبه .
لا تتعدى علاقاته شيوخ البلد ، لا يشارك الناس أفراحا .. أحزاناً . يأتون
إليه مهطعين ، دون أن يدعوهم الداعي ، جماعات ، وواجدانا ، قادمون ...
مسافرون . صديق كل العمدة ، صاحب صاحبه . صديق صديقه ... عدو أهله
وناسه . لا يأكلها باردة . يتلعه ناراً حامية ، بينه وبين الحلال عداء فطري . يرد
الهدية . يغتصبها اغتصاباً ، أيدي رجاله في كل الجيوب . يردد دائماً :
" لعن الله قوما ضاع الحق بينهم " .

-6-

على جانب القضبان . أطراف القصب . كؤم أكواما . قش . عفش عيدان .
قوالح . افترشها . التحفها .. ليالي ، أياما .. تسلل إلى رطيف المحطة . حمل
سبتاً ، شنطة تنع قفّة ، قفصاً . تشعبط لمح الكمساري ، تزحلق .. تنقل من محطة
إلى أخرى .. تسلق .. مشى طويلاً ، سار كثيراً

- زحمة . عربيات ، قطارات . تلفّت - طنّش .. تاه .
- أنا فين يا عم .
 - في مصر يا ولدي .
 - ناسي في بولاق .. وليسوا في مصر .
 - ضحك العجوز .
 - اركب يا ولدي .
 - سار الكارو مخترقا الشوارع .
 - هذه بولاق يا ولدي . القهاوي تفتح بعد صلاة الفجر .. هناك قهوة منوّرة .
 - تسلل . إليها ..
 - شطبنا .
 - فين ناس البلد ؟
 - الناس نايمة .. انتظر ..
 - كان عامل القهوة مشغولا بالتنظيف ، والترتيب . كان سيد غلاما فارعا يحسبه الرائي رجلا . مديده ، قبض الكراسي قبضا يسيرا رفعها . رصّ كل شيء .
 - اجلس يا ولدي .
 - من عريية الفول دفع إليه رعيفا محشوا .
 - التهمه . والجوع يقفز من عينيه . مع الرغيف الخامس . قال عامل المقهى :
 - فرضوا الصلا خمسة .
 - ضحك بائع الفول وقال :
 - والطواف سبعة :

شهور ، يكنس ، يمسح ، يغسل .

تقع قهوة المعلم حسنين الدّقش على ناصية شارع فؤاد ، وأبو طالب ، أمامها ميدان صغير ، ومرافق عامة . وسينما علي بابا . على البنك تربع الدقش ، آخر فتوات بولاق ، ترك الفتونة ، لكنه لا يزال مسموع الكلمة ، الدقوشة لهم نصف بولاق .

من البوظة المجاورة اقتحموا القهوة ، لأول مرة يحدث . تطايرت الكراسي .. فرّ الناس . رفع سيد طاولة كبيرة . أهوى بها على رؤوسهم ، لم يقووا حد منهم على الحركة ، حملهم واحداً ، واحداً ، جرجرهم إلى حيث معاطن الحمير والبغال . ذاعت شهرة ابن حليمة .
قال الدقش :

- تسلم يا معلم سيد .
- سيد ابن حليمة القرعة .

- يا ريس حسن شوف شغلانة للسيد .
 - ليس لدينا عربات يجرها .
 - حارس . خفير . عتال
- قال الريس حسن محمددين :
- مشروع مستشفى كبير في العجوزة :

عدة سنوات لم يغادر المكان . لم يشعر بالزمان .. التقط كل الحرف . كل الصناعات .

- بَيْت يا (سيد) على : نجارين ، حدادين . مبيّضين هات : حديد ، اسمنت . خشب .
- تعلّمت كل شيء يا سيد يا ولدي . أمانة .. إخلاص . لا ينقصك إلا الزواج .

- من يناسب ابن القرعة !!
- أنا أعرف عنك كل شيء ، واتشرف بنسيك ...
- كان يوم فرحه يوما مشهودًا في تاريخ بولاق .

- بأشر السيد كل أعمال شركة محمد بن الدقش للتجارة ، والتشييد والبناء ، مناقصات ، مزايدات .
- تاجر في كل شيء
 - يا معلم سيد .
 - لم يتبق إلا السكر والليمون .
 - وكاله له في الساحل لتجارة السكر ، شادرفي روض الفرج لتجارة الليمون فقط ، كل ليمون بحري وقبل يصب في وكالاته .
 - وزعلوا على الناس في كل المواقع مياه بسكر وليمون ، ثلاث مرات في اليوم .

- لا تخلوا جيوب المعلم سيد من السكر والليمون .
- مقهى السكر والليمون . لا يقدم شيئًا آخر
- ذاعت . شهرة المعلم سكر . الحاج ليمون .
- نسى الناس سيد أبو القرعة .

همس في أذن صديقه الشيخ محمد الحنفي

- أعلمت بما فعله خليل !!

اذهب إليه ، وأنه ما بيننا .

- العمدة غاضب جدًا .

- وماذا " يريد .

- استرداد الأموال ، والتنازل عن الأرض .

- لم آخذ إلا نصف نصيبي . والأرض شقاي وشقاي عيالي . كفاه تكويشا .

لم يحاسبه أحد . يبيع ويشترى ، ويصرف على العزائم والفشخرة .. يحسب الجنيه عشرة ، لا يدفع شيئاً من جيبه ..

- راجل كريم

- من شقانا

- الكرم عمل لكم سمعة

- لا شيء يجرب البيوت كالكرم .

- مصمم على التنازل :

- يتنازل كل منا . له أربعة فدادين ورث أبينا . وكل ما هو مكتوب

باسمه ، نصيب البنات وأخوتنا الذين بلع أرضهم . والمندرة ، والجامع .

- اشترى منهم .

- انت شيخ البلد . هل سمعت أن واحدا منهم باع قيراطا واحدا !!

همس الحنفي : إذا اختلف اللسان !!

ماذا تقول ؟

- لا شيء : مصيتوا دم الغلابة يا ولاد الكلب .

استدار السبع على الضبع . بعد أن قرقشا عظام السخلان والجديان . لم ينل
إخوانهم نصيب امرأة . لم يستطع العمدة أن يغتصب من شقيقه شيئاً . لم يترك
للأحفاد إلا الأحقاد ، والشحناء والبغضاء ، رحم الله الجميع وأسكنهم ...

-8-

عليها أجوال .. أكياس ، ققف - طافت بلاد المال . عزفت موسيقا
جنازية . على قبرها افرغت أكياس السكر . عصر الليمون . صبت مياه . أنا
سيد يا أمي . جئت لك السكر والليمون : قومي اصحي يا أمي .

سقى كل البلد سكرا وليمونا . بنى مسجدا . ذبح عجلا .
- كل واحد يقول شعراً نكتبه على باب الجامع . قال شيخ : هذا قبر السيدة
حليمة الزهراء . حفيدة الحسن والحسين .
وقال آخر :

هذا قبر البتول العذراء سيدة نساء العالمين .

قال سيد : حرام عليكم يا ناس .

قال الشيخ الهلالي :

هذا قبر حليلة القرعة شهيدة السكر والليمون .

9- على حسب أوداد قلبي

-1-

نزلت مع النازلين .. وضعت قدميها على أرض لم تطأها من قبل . لا تعرف
أي أرض .. أي بلد . لا يعينها مكان . لا يشغلها زمان . اليوم . أمس . غدا .
العام الماضي . العام القادم . كله من العمر " هو فين العمر : اللي راح .. ولا اللي
جاي " .

تخب في جلباب لا لون له ، فضفاض كأنه خيمة (هرتها) الشمس ، تركت
عليها الأيام همها وغمّها : فقرها وبؤسها ، على قدميها كلف . كلش . تكلّس .
تججّر . تحسبه بقايا مركوب تشقق . من بينه أطلت رؤوس أوتاد ، دكّها الدقاق
فتشقت .

اسندت ظهرها . أغفت قليلا .. دَلَقَ القطار ما في جوفه ، استفرغ ما في
بطنه : أشباه أناس . قفف .. مقاطف .. هلاهيل . بلاليص . لبش قصب . حمل
حطب .. خرفان ، جديان ..

سارت مع السائرين . دفعت أمواجهم القشة ، طفت . سبحت .. تحت
بصيص ضوء منعكس من صليب معلق ، قرأت " الله محبة " .
انطوت عدة طيات . لفت نفسها على نفسها . ثعبان قرسه برد الشتاء ،
نامت ، كم ساعة ، كم يوما ، كم شهرا !! نامت .

بطرف عصاته المقسة لأمس أطراف أصابعها لم تشعر . عاود . كرر . نقر
نقرا خفيفا على رأسها . تنبعت . للممت أثمال جلبابها . أطراف ضفائرها .
بماء بارد مد القسيس يده ، شربت ، طعمت .. انتظرت .. طال انتظارها .

أصوات بعيدة ... جلبة طبول .. مزامير . دفوف . كفوف .
على الرصيف المقابل تفرقت - تكومت . جنّ ليل .. لم يهدأ صخب .

على دكة صغيرة أمام الباب الكبير تربعت ، احتشام ، وقار ، هيئة ، هيئة ،
عصبت رأسها بعصابة خضراء ، تلفعت شالانا صاع البياض ، شدت مئزرها ،
تمنطقت بنطاقين . تربية قارئ في محراب الحسين . لا تكلم إلا همسا . كأنها
نذرت صوما .

بسبابتها أشارت . تدرج . تكحرت ، عبر الطريق . في أذن الفتاة همس :
قامت . تبعته . أشارت إليها جلست ... قبيل الفجر نهضت ، مشت البنت
خلفها .

- هذا مكان الأكل والشرب . هنا الحمامات .. عُرف البنات . هذه
حجرتك . بها كل ما محتاجينه .

غرفة صغيرة ، بها سرير بعمدان ، عليه ملاية . لحاف كبير . خزانة ملابس :
أشكال . ألوان . مقاسات .. تأملتها أقفلتها ..

من شدة الإعياء نامت كما هي . انقضى نهار . كان مساء .. طُرق الباب عدة
مرات . لم ترد . غمزته فانفتح .

أدارت الفتاة وجهها للحائط . فردت رجلا . لمت الأخرى . انحسر الجلباب ،
تكشفت أفخاذ ، مدت يدها تسترها . ترحلت كأنها لامست صابونا .
شعرت بالخجل . استيقظت الفتاة مذعورة . تلملم نفسها .

- عليكم بها أريدها عاروسا .
- نقعتها مرات . جلتها . هرشتها . كرشتها .. دلكتها . الجسد يُبرق ..
- كالبنّور . تماوج شعر كقطع الليل .
- عليك بها يا مولانا ، حفظها كل المواويل ، كل الأغاني ، كل الألحان .
- الأصوات . المقامات ، الطبقات . الرقص . الحركات . السكنات : بديعة .
- منيرة . فتحية . سامية . تحية .

- أنا خالتك الحاجة زينب .
- أنا خضرة .
- أنت وداد .
- حاضر يا أمي
- احتضنتها .
- لم أسمعها قبل ذلك .
- لن أناديك إلا بها

- البنت استوت يا حاجة
- في ستة شهور !!
- شق ليلها . ليل الساحل كله . ولدت " وداد " نجمة .
- من غوازي سنباط
- من غرة .
- من بني غازي
- سلالة الغازي الأول ، الذي غزا مصر .

صاح مؤذن :

- الصلاة خير من النوم
- سحبت أبواب ، غلقت شبابيك . هم بالدخول .
- قفلنا
- الناس أمامكم يفتحون .
- ناس تفتح . وناس تقفل
- همس ساخر :
- مقفل للصلاة .
- قال آخر :
- هو فتحها والآ قفلها .

- في موكب كبير شُيعت الحاجة زينب الحمادية ... في السرداق الممتد جأر
- شيخ المقارئ " الزانية والزاني "
- لم تجد غير هذه السورة الله يخرب بيتك يا مولانا
 - هو لا يعرفها
 - أكبر زبائنها .

- ثروة ضخمة : عقارات ، محلات ، أراضي . مزارع . حدائق . قصر . على النيل .
- قال الأستاذ محمود حسن المحامي :
- أين السيدة : وداد محمد أحمد الشريف الشهيرة بوداد الغازية؟
- هذه وصية الحاجة زينب ، رحمة الله عليها .

- أوصيت أنا زينب السيد عبد الله ، الشهيرة بالحاجة زينب الحمادية . بما يأتي :

أولا : ربع ممتلكاتي وقفا على المسجد والكتاب ، ورعاية اليتامي ، وتعليمهم في الأزهر الشريف .

ثانيا : الربع الأخير ، لأبنائي وبناتي الذين كانوا يعملون معي طوال هذه المدة .

ثالثا بقية التركة والقصر ، والمحلات لابنتي : وداد محمد أحمد الشريف .

الشهيرة بوداد الغزبة .

من المياه المتدفقة من صنوبر " الطلمبة " توضأ الشيخ أحمد أبو هاشم . صلى ركعتي الفجر ، ختم الصلاة أسبل عينيه ، سالت دموعه ، غاب طويلا .
 - كنت فتى القبيلة المدلل ، منذ معركة الجسر- ، عين من الأعيان ، دون أطيان ، لم يجرؤ أحد من بحري ، أو قبلي أن يتخطى الحدود .
 لم تسحب يدي زنادًا . لم أقتل . لم أطلب مالا ، تتدفق الأموال على بيتنا . كأنه بيت مال المسلمين .

لم نبدأ أحدًا بعدوان ، فرض علينا القتال فرضا خرج الأولاد عن طوعنا والكبير يدفع الثمن . كل البيوت كانت مفتحة ، كل الجيوب تصبّ في جيوبنا .
 العُمد والمشايخ ، أخواننا ، أعمامنا ، وها نحن كلاب ضالة عافتنا كلاب السكك . لن يدوم مقامنا في حماية ابن مهران طويلا . الشرطة كلاب مسعورة .
 أصحاب الثارات لا يستنون طويلا ، السمهودة نجح في الانتخابات . استقوى ، الحكومة حكومته ، الناس خدام الراكب ، لو لم نكن مطلوبين ، مطاردين ، لسعى إلينا . البقرة وقعت هزيمتنا كسر لكل الساعنة ، خلع أسنان العباسي ، والكومي . الجابرية يضطبحون بأهلنا كل يوم ، فلوسهم كثيرة ، والكلاب سعرانة . الزناتية لن يكتفوا بقتل عسران .. أولاد الحلاقِ كبروا . حتى أمين " بانت له ناس " . موتنا شرف لكل الناس . أخذنا بثارات الخلق . قتلنا " أبو هاشم " حتى الحكومة ، قضينا على الإجرام . طهرنا البلاد . الحرامي الجديد يأكل القديم .

قال الشيخ محمد البريري ، عضو مجلس الشيوخ :

- الحكومة مصرة على تسليم الهواشم أو إيقافك يا عمدة :
- لا استطيع تسليمهم مهما حدث . عار ما بعده عار .

قال الشيخ :

دعني أقنعهم بالتسليم :

حكى أبو هاشم حكايته للشيخ البريري .

- هذه كل التفاصيل . والأمر إليك يا عم الشيخ ، وسأنفذ ما تأمر به فوراً .

صفن الشيخ قليلا ، ثم قال :

- لا تسلموا أنفسكم . وسأبذل جهدي لحماية العمدة من الحكومة ، وهي

ليست حكومتنا كما تعلمون .

اجتمع أبو هاشم بإخوته .

- لا نريد أن نسبب للعمدة مشاكل أكثر من ذلك ، الحكومة لن تهدأ ،

وكذلك أصحاب الثارات ، فلوس الجابرية كثيرة مغرية ، العرب يقتلون

بعشوة .. وخذ القاصد من المقصود بعيد . لا نعلم من القاتل . لكنهم جميعا

يعلمون من المقتول . سأسلم نفسي . الحكومة لا تريد أحداً غيري . وكذلك

الأهالي .

- نموت جميعا ولا تسلم نفسك .

- أنا مقتول .. مقتول

- نقتل جميعا .

مساحات شاسعة من الغابات الخضراء ، تحيط بنجع حمادي ، وبهجورة .

تسلل الهواشم في انصاص الليالي إلى مدقاتها الملوثة:

- في منتصف الطريف كمين ستجدون عنده طعامكم وكل ما يلزم

هكذا ، وعدهم الشيخ محمد أبو طه صديق العمدة . لم يخلف الرجل وعده .

عدة شهور . صار العسكري واحداً منهم . تصلهم كل الأخبار . أنس بهم ..

اطمأنوا إليه .

كانت كَرُوة القتل لا تتجاوز الخمسين جنيها.

قال رسول مجهول :

- خمسمائة جنية .

- لا أستطيع قتله .

توالى الإغراءات من عدة رسل . لم يستطع أن يصمد طويلا.

- الدفع مقدما .

- دلنا عليه وخذ ما تشاء .

- يسير وخلفه اثنان ، وأمامه واحد ، لا يفترقون ، من وقت لآخر يشعل سجارة ، يجلسون عندي بعض الوقت كل ليلة .

مد العسكري يده بسجارة ، أشعل عود ثقاب مده إلى فم الكبير . على ضوء العود . مرقط رصاصة من هناك فتتت رأس الهاشمي . في لحظة كان . رصاص الهاشمية يمزق جسد العسكري .
حملوا شيخهم واختفوا .

11- خضرة الشريفة

- كل الرجال عشقوها .
- حتى البرنس نفسه .
- طلبها استعصت .
- قتلها .
- سَمَتها نعسة المراتية :
- شفيقة الفرشوطية
- هربت مع خليل مهران .
- تزوجها .
- باعت كل شيء . فتحت محلات في مصر .. في اسكندرية .. في لبنان . في بلاد الحجاز .
- شاهدها ناس في المدينة .. في مكة .

- فتش عنها في كل الدنيا . سعى مع الساعين . طاف مع الطائفين .. كبر .. هَلَل . لَبَّى . رَمَى . نحر . حلق . قَصَّر . واللحن الشجي يملأ الحرمين . " على حُسب أوداد قلبي بايوي راح أقول للزين سلمات "

جاورت الكعبة عدة سنوات أسطورة نجع حمادي .

كان يا ما كان - في سالف العصر والأوان . حكاية وداد ، والفتى مهران ،
على كل لسان .

بجوار جامع جدّها الفاتح الأول . بنت بيتا . زاوية .. كتابا .. حفرت بئرا -
سبيلا . تكية .

ذاعت شهرة خضرة الشريفة ، سليلة بيت النبوة ؛ آخر من بقى من الدوحة
السنية ، تقاطر الحجيح من كل النجوع والكفور يوفون بالندور . يطوفون
بالبیت العتيق في مصر عتيق . ليالي .. أذكار . موالد .

زار مع الزائرين .. طاف مع الطائفين . لمحها . تكهرب .. تسمرت .
بحلقت . جحظت . قصّرت الطرف . غصّت البصر . أرهفت السمع .
تقلصت الشفتان . تحاذل الساقان حاولت أن ترجع البصر - كرة أخرى لم
يطاوعها . لم يرتد إليها طرفها .. حاول أن يسجد . أن يقترب . ارتمت
شهقت .. لم تكمل .. على صدره فاضت روحها .
أطفئت الأنوار . غلّقت الأبواب .

في صلاة الجمعة ، في كل المساجد ، كانت خضرة الشريفة موضوع الخطبة .
اليوم نُودع آخر الدوحة البهية ، الطاهرة النقية ، درة عقد السلسلة الزكية ،
ريحانة بيت النبوة . العابدة ، السائحة . التوابة الأوابة ، قوامه الليل ، صوامه

النهار ، المستغفرة بالأسحار ، التي حرم الله جسدها على النار ، غوَاثَة الملهوف ،
مفرجة الكروب ، غفارة الذنوب ، ضاربة الفسق بالمركوب .

امرأة مؤمنة ، وهبت نفسها لكل فقراء النصارى والمسلمين ، لم تدع سائلا
يسأل . أجابت دعوة الداعين ، ولبت رغبة الراغبين ، المغضوب عليهم
والضالين دوى المسجد الكبير .

آمين .

آمين .



على ربوة ذات قرار مكين ، في أعلى عليين ، على سفح الجبل المقدس ، جبل
المقطم . المشرف على القاهرة المعز . وقلعة المذل . على رؤوس كل المزارات ، أقيم
على المقطم أول بيت وضع للزوار . تعلوه قبة خضراء ، سبع مآذن شاهقة ..
سبع قباب عالية . سبعة أبواب واسعة ، سبع عتبات خضر ، حُفرت آباد زُرعت
أرض . نُثِرَ حَب ، تساقط طير ، تكاثر حمام . هدل يمام .

في ليلة جمعة من الشهر العربي ينبعث من السماء نور يمتد إلى المسجد الحرام ،
إلى المسجد الأقصى . لا يراه إلا الموعودون يضيء سنا برقة مصر - كلها . من
الكوثر تتساقط قطرات تملأ البئر . سبع ملاعق من الماء المقدس .. للعقم . للربو ،
للكبد ، للكلى . للحب . للكره ، للغنى . للفقير ... توافد الحجيج ، تسلقوا
المقطم كالجردان الزوار . الثَّمار . الذكر .. العُهر . الدراويش الحشاشين .

مدد يا آخر السلالة مدد .

عاد خليل وهو يهتف :

- سلام على نجع حمادى

بعدك يا وداد

سلام على بهجوره

يا بهجة القلب يا بنوره

سلام على الساحل

يا أم الشعور الجدابل ..

سلام على فرشوط

يا أم الحزام مربوط .

سلام عل خليل

يا دوا كل عليل

سلام في الأولين

سلام في الآخرين

سلام في جنة النعيم

سلام في أعلا عليين

سلام من فؤادي

سلام على وداد . ودا دي .

مات خليل مهران وهو يلهج :

على حسب اوداد قلبي يا بوي

راح أقول للزين سلمات

على حسب أوداد قلبي يا بوي

لا يزال الناس يحجون .. يعتمرون . يسعون . يطوفون . يكبرون . يلبون .

قائمين . راكعين . ساجدين .

- مدد يا خضرة .. مدد يا شريفة ... مدد

انتهى

أ.د. أبو القاسم رشوان



الاسم : أبو القاسم أحمد رشوان موسى

العنوان 6 أكتوبر الحى 4 المجاورة 8 رقم

1668

تلفيون : 38343134-

01094122749

الشهادات والدرجات العلمية :

- ١- الشهادة الثانوية من معهد جرجا الدينى .
- ٢- ليسانس دار العلوم ١٩٦٥ جامعة القاهرة.
- ٣- ماجستير فى الأدب العباسي كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٤ .
- ٤- دكتوراه فى الأدب المسرحي كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٨٠ .
- ٥- أستاذ مساعد فى الأدب القديم كلية دار العلوم جامعة الفيوم ١٩٩٧ .
- ٦- أستاذ بكلية دار العلوم جامعة الفيوم ٢٠٠٢ إلى الآن .

الوظائف التي عمل بها :

- ١- تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية في مدارس مصر ١٩٦٥-١٩٦٧.
- ٢- تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية في مدارس الكويت ١٩٦٧-١٩٧٦.
- ٣- مدرس أول بمدارس الكويت : ١٩٧٦-١٩٨٦.
- ٤- خبير فني بإدارة الكتب والمناهج بالكويت : ١٩٨٦-١٩٩٠.
- ٥- عضو هيئة التدريس بكلية دار العلوم بالفيوم : ١٩٩٠ إلى الآن .
- ٦- أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد : ١٩٩٣-١٩٩٩.
- ٧- رئيس قسم الدراسات الأدبية والنقدية بكلية اللغة العربي بالجامعة الإسلامية بإسلام آباد: ١٩٩٦-١٩٩٩.
- ٨- مستشار رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان لشؤون الطلاب : ١٩٩٦-١٩٩٩.
- ٩- رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بالفيوم : ١٩٩٩-٢٠٠٥.
- ١٠- عضو مجلس كلية دار العلوم بالفيوم ١٩٩٩ وإلى الآن .
- ١١- عضو مجلس الدراسات العليا كلية دار العلوم بالفيوم ١٩٩٩-٢٠٠٥.

الكتب والبحوث :

- ١- محمد بن عبد الملك الزيات حياته وأدبه.
- ٢- مصر القديمة في المسرحية المعاصرة.
- ٣- تاريخ الأدب الجاهلي .
- ٤- نصوص من عصر صدر الإسلام .
- ٥- تدريس النصوص في المراحل التعليمية .
- ٦- دراسات في الأدب القصصى .
- ٧- دراسات في الأدب المسرحى .
- ٨- طرق الأداء الجامعى وتقييمها .
- ٩- التربية الإسلامية والتحديات المعاصرة .
- ١٠- الأطر الفكرية فى شعر شوقى .
- ١١- الهجاء الفنى فى الشعر القديم .
- ١٢- لوحات من شعر الطلل الجاهلى .
- ١٣- استدعاء الرمز المكانى فى الشعر القديم .
- ١٤- قراءة فى أشعار المخضرمين .
- ١٥- استخدام نظرية النظم الشفاهى فى الشعر الجاهلى .
- ١٦- صحوة القلب فى الشعر القديم .
- ١٧- الرسم بالأصوات .
- ١٨- الفرس والقلق الحياتى فى الشعر الجاهلى .

- ١٩- قراءة في شعر الخيل .
- ٢٠- فن المدح عند زهير بن أبى سلمى .
- ٢١- توظيف الموروث الشعري في عينية أبى ذؤيب .
- ٢٢- التفسير الرمزي للشعر الجاهلي .
- ٢٣- جدلية الخطاب الأسري في الشعر القديم .
- ٢٤- الشعر الجاهلي قضايا وموضوعات .
- ٢٥- محاولا التجديد في شعر صدر الإسلام .
- ٢٦- معلقة العرب (مكانتها الاجتماعية والفنية الجزء الأول .
- ٢٧- معلقة العرب (مكانتها الاجتماعية والفنية الجزء الثاني).
- ٢٨- مختارات من شعر الدولة الأموية .
- ٢٩- قراءة في معجز نجيب محفوظ اللص والكلاب .
- ٣٠- مدديا صاحب المدد رواية.
- ٣١- جِرَاحُ لَا تَنْدَمِلُ رواية

الموقع www.aboelkassem.com

إميل arashwan2007@yahoo.com

ت: 01094122749

38343134